الشهيد سيد قطب (رحمه الله)

في ظلال القرآن

طبعة إلكترونية منقحة و مختصرة

قا م بإنجازها الفقير الى رحمة ربه محمد رباعــة

الجزء الثامن (8)

دار القبس للنشر الإلكتروني

ص ب: 42 أولاد موسى 35011 / بومرداس (الجزائر)

الهاتف: 78 ـ 73 ـ 20 ـ 0662

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) البقرة {286}

مختصر في ظلال القرآن الجزء الثامن (٨) الطبعة الثانية (٢) ماي ٢٠٢٢

سورة الملك

مكية ، و آياتها ٣٠

هذه السورة تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم فى السماوات ، وإلى حياة فى الآخرة . وإلى خلائق أخرى غير الإنسان فى عالم الأرض كالجن والطير ، وفى العالم الآخر كجهنم وخزنتها . وإلى عوالم فى الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق فى الحياة الحاضرة الظاهرة ، فى هذه الأرض . كما أنها تثير فى حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفى واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين . وهى تهز فى النفوس جميع الصور والإنطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، فترى هناك يد الله المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله . وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض – على سعتها – إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء . الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ، ومن حكمة الله وتدبيره (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور) والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التى أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبعث حركة التأمل والإستغراق فى هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف (الذى خلق سبع سماوات طباقا . ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .) والحياة الدنيا تبدو فى الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والإنتظار (وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها:ألم يأتكم نذير ؟ قالوا:بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا:ما نزل الله من شىء ؛ إن أنتم إلا فى ضلال كبير وقالوا:لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير !) والنفوس فى الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذى تعيش فيه ، ولا تلقى بالا إلى الغيب وما يحتويه . وهى مستغرقة فى الحياة الدنيا محبوسة فى قفص الأرض الثابتة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التى لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ؛ وتهز فى حسهم هذه الأرض الثابتة التى يطمئنون إليها ويستغرقون فيها (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير) والطير . إنه خلق يرونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا . ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة الله الذى صور وقدر (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شىء بصير) وهم آمنون فى دارهم ، مطمئنون إلى مكانهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره . ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسى ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم ، تهزهم على قهر الله وجبروته الذى لا يحسبون حسابه (أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور) والرزق الذى تناله أيديهم ، إنه فى حسهم قريب الأسباب ، وهى بينهم تنافس وغلاب . ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك فى السماء ، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون (أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور) وهم سادرون فى غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون . فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا ، فى صورة متحركة موحية (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟) وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله فى ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ؛ ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب . فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم

، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة فى تنور المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر ، وتدبر الغاية من هذه البداية (هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون . قل:هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) وهم يكذبون بالبعث والحشر ، ويسألون عن موعده . فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوؤهم أن يكون (ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل:هذا الذى كنتم به تدعون !) وهم يتربصون بالنبى ﷺ ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذى يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود ! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب ، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب (قل:أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟ قل: هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) وتنذرهم السورة فى ختامها بتوقع ذهاب الماء الذى به يعيشون ، والذى يجريه هو الله الذى به يكفرون !(قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟) إنها حركة . حركة فى الحواس ، وفى الحس ، وفى التفكير ، وفى الشعور ومفتاح السورة كلها ، ومحورها الذى تشد إليه تلك الحركة فيها ، هو مطلعها الجامع الموحى

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{١} الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ{٢} الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ{٣} ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ{٤} وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ{٥} وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{٦} إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ{٧} تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ{٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{٩} وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ{١٠} فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ{١١} إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ{١٢} وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{١٣} أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{١٤} هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ{١٥} أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ{١٦} أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ{١٧} وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ{١٨} أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ{١٩} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ{٢٠} أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ{٢١} أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{٢٢} قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{٢٣} قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{٢٤} وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٢٥} قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{٢٦} فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ{٢٧} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{٢٨} قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{٢٩} قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ){٣٠}

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التى عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التى نبهت القلوب إليها . فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجهر . وكان جعل الأرض ذلولا للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير فى السماء . وكان القهر والإستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرء فى الأرض والحشر . وكان الإختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذى به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد . فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير (تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير)!! وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى فى السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها فى سياقها بالتفصيل (تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) هذه التسبيحة فى مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحى بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها فى الكون بعد تمجيدها فى جناب

الذات الإلهية . وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهى تنطلق من النطق الإلهى فى كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم (تبارك الذى بيده الملك) فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه . . وهي حقيقة . حين تستقر فى الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الإعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف فى هذا الملك بلا شريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد ! (وهو على كل شىء قدير) فلا يعجزه شىء ، ولا يفوته شىء ، ولا يحول دون إرادته شىء ، ولا يحد مشيئته شىء . يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره ؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود . . وهي حقيقة حين تستقر فى الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أى حال . . والقيود التى ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون فى تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم منهذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شىء بلا حدود . ويكلون لقدرة الله كل شىء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود (الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، وهو العزيز الغفور) ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ، وآثار قدرته على كل شىء وطلاقة إرادته . . أنه خلق الموت والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية ، التى تنشئ هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى ؛ وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست المسألة مصادفة بلا تدبير . وليست كذلك جزافا بلا غاية . إنما هو الإبتلاء لأظهار المكنون فى علم الله من سلوك الأناسى على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) واستقرار هذه الحقيقة فى الضمير يدعه أبدا يقظا حذرا متلفتا واعيا للصغيرة والكبيرة فى النية المستسرة والعمل الظاهر . ولا يدعه يغفل أو يلهو . كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح . ومن ثم يجيء التعقيب (وهو العزيز الغفور) ليسكب الطمأنينة فى القلب الذى يرعى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للإبتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح ! ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله فى أكبر وأرفع مجاليه ؛ كما يربط به من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء فى الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة (الذى خلق سبع سماوات طباقا) وكل ما فى هذه الآيات آثار لمدلول الآية الأولى ، ومظاهر للهيمنة المتصرفة فى الملك ، وللقدرة التى لا يقيدها قيد . ثم هى بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء . والسماوات السبع الطباق التى تشير إليها الآية لا يمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشوف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفى أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة . والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله ، فى السماوات بصفة خاصة وفى كل ما خلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكماله كمالا يرد البصر عاجزا كليلا مبهورا مدهوشا (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب (فارجع البصر) وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت (هل ترى من فطور ؟) وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟(ثمارجع البصر كرتين) فربما فاتك شىء فى النظرة السابقة لم تتبينه ، فأعد النظر ثم أعده (ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) وأسلوب التحدى من شأنه أن يثير الاهتمام والجد فى النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هى التى يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها . فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق ، الذى لا تشبع العين من تملى جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقى إيحاءاته وأيماءاته ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذى يعيش منه من يتأمله بهذه العين فى مهرجان إلهى باهر رائع ، لا تخلق بدائعه ، لأنها أبدا متجددة للعين والقلب والعقل . ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون ، وإلى تملى مشاهده وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعا ، وفى كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمى الذى لم يقرأ ولم يخط حرفا ، كما يخاطب العالم الفلكى والعالم الطبيعى والعالم النظرى سواء . وكل واحد من هؤلاء يجد فى القرآن ما يصله بهذا الكون ، وما يثير فى قلبه التأمل والاستجابة والمتاع . والجمال فى تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) وما السماء الدنيا ؟ لعلها هى الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هى النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التى نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر

فى السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء . ومشهد النجوم فى السماء جميل . ما فى هذا شك . جميل جمالا يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمراء إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب . . بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية . . وكله جمال وكله يأخذ بالألباب . هذه النجمة الفريدة التى توصوص هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتمع بالمحبة والنداء ! وهذا القمر الحالم الساهى ليلة . والزاهى المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفانى الذى يدلف للفناء ليلة . . ! وهذا الفضاء الوسيع الذى لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده . إنه الجمال . الجمال الذى يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفا فيما يملك من الألفاظ والعبارات ! ويذكر النص القرآنى هنا أن هذه المصابيح التى زين الله السماء الدنيا بها هى كذلك ذات وظيفة أخرى (وجعلناها رجوما للشياطين) . وقد جرينا فى هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشىء فى أمر الغيبيات التى يقص الله علينا طرفا من خبرها ؛ وأن نقف عند حدود النص القرآنى لا نتعداه . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور . فنحن نؤمن أن هناك خلقا اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم فى القرآن ، وسبقت الإشارة إليها فى هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئا ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصابيح التى تزين السماء الدنيا رجوما للشياطين ، فى صورة شهب كما جاء فى سورة أخرى (وحفظا من كل شيطان مارد) (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) كيف ؟ من أى حجم ؟ فى آية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئا ، وليس لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه فى مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولنؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم الله أن هناك خيرا فى الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فمالنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه خيرا ؟:فى مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ؟! ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم (وأعتدنا لهم عذاب السعير) فالرجوم فى الدنيا وعذاب السعير فى الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا ، الذى أعده الله للشياطين فى الدنيا والآخرة هى ذكر السماء أولا ، ثم يجىء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصابيح السماء ذكر اتخاذها رجوما للشياطين . ولما ذكر ما أعد للشياطين من عذاب السعير ذكر بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) ثم يرسم مشهدا لجهنم هذه ، وهى تستقبل الذين كفروا فى غيظ وحنق شديد (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور . تكاد تميز من الغيظ !) وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها فى شهيق وتفور ؛ ويملأ جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق من الغيظ الكظيم وهى تنطوى على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين ! والتعبير فى ظاهره يبدو مجازا تصويريا لحالة جهنم . ولكنه – فيما نحس – يقرر حقيقة (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟) وواضح أن هذا السؤال فى هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهى مشاركة لجهنم فى الغيظ والحنق . كما هى مشاركة لها فى التعذيب ، وليس أمر من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب ! والجواب فى ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة ، بعد التبجح والإنكار واتهام الرسل بالضلال (قالوا:بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا:ما نزل الله من شىء . إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا:لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير !) فالذى يسمع أو يعقل ، لا يورد نفسه هذا المورد الوبىء . ولا يجحد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ولا يسارع باتهام الرسل بالضلال على هذا النحو المتبجح الوقح ، الذى لا يستند فى الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويدعى ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول: (ما نزل الله من شىء:إن أنتم إلا فى ضلال كبير)! (فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) والسحق هو البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم فى الموقف الذى لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لا رجاء لهم فى مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويا لها من صحبة ! وياله من مصير ! وهذا العذاب ، عذاب السعير ، فى جهنم التى تشهق بأنفاسها وهى تفور ، عذاب شديد مروع حقا . والله لا يظلم أحدا . ونحسب – والله أعلم – أن النفس التى تكفر بربها – وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله – هى نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتبارا فى الوجود ، فهى كالحجر الذى توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار ، إلى غير نجاة منها ولا فرار ! والمألوف فى سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين فى مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين فى مقابل صفحة الكافرين ، تتمة لمدلول الآية الثانية فى السورة (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) بذكر الجزاء بعد ذكر الإبتلاء (إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير) والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذى لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم فى خفية عن الأعين ، وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزاء العظيم الذى يذكره السياق فى إجمال:وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير . ووصل القلب بالله فى السر

والخفية ، وبالغيب الذى لا تطلع عليه العيون ، هو ميزان الحساسية فى القلب البشرى وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده:حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال:قالوا:يا رسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره . قال:" كيف أنتم وربكم ؟ " قالوا:الله ربنا فى السر والعلانية . قال:" ليس ذلكم النفاق " . . فالصلة بالله هى الأصل . فمتى انعقدت فى القلب فهو مؤمن صادق موصول . وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها فى السياق بما بعدها ، فى تقرير علم الله بالسر والجهر ، وهو يتحدى البشر . وهو الذى خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكامنها ، التى أودعها إياها (وأسروا قولكم أو اجهروا به ، أنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟) أسروا أو اجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر (إنه عليم بذات الصدور) التى لم تفارق الصدور ! عليم بها ، فهو الذى خلقها فى الصدور ، كما خلق الصدور ! (ألا يعلم من خلق ؟) ألا يعلم وهو الذى خلق ؟ (وهو اللطيف الخبير ؟) الذى يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفى المستور ، ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التى خلقها الله ، إلى الأرض التى خلقها لهم ، وذللها وأودعها أسباب الحياة (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور) والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ؛ وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعا . . ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول . والأرض الذلول كانت تعنى فى أذهان المخاطبين القدامى ، هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة ، وبالفلك التى تمخر البحار . والمذللة للزرع والجنى والحصاد . والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات (وإليه النشور) إليه . . وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والملك بيده ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ؟ وهو على كل شىء قدير ؟ والآن – وبينما هم فى هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفى هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره . . الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزا ويرجها رجا فإذا هى تمور . ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور . . يهز هذه الأرض فى حسهم ويثير هذاالحاصب فى تصورهم ، لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار ، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟) والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب ، فى بعض الأحيان ، عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلا فيرتج كل شىء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، ثوانى معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها ؛ أو يغوص فى جوفها عندما تفتح أحد أفواهها وتخسف كسفه منها . . وهى تمور . . البشر ولا يملكون من هذا الأمر شيئا ولا يستطيعون (فستعلمون كيف نذير)!!! ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين (ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟) والنكير هو الإنكار وما يتبعه من الآثار ، ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم (فكيف كان نكير ؟) وهم يعلمون كيف كان ، فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير ! بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والنذير ، إلى لمسة التأمل والتفكير . فى مشهد يرونه كثيرا ، ولا يتدبرونه إلا قليلا . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهى اللطيف . (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شىء بصير) وهذه الخارقة التى تقع فى كل لحظة ، تنسينا بوقوعها المتكرر ، ما تشى به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو فى الحالين:حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل فى الهواء ، يسبح فيه سباحة فى يسر وسهولة ؛ ويأتى بحركات يخيل إلى الناظر أحيانا أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع ! تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير فى حركاته الخاصة بنوعه ، لا يمله النظر ، ولا يمله القلب . وهو متعة فوق ما هو مثار تفكير وتدبر فى صنع الله البديع ، الذى يتعانق فيه الكمال والجمال ! والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير(أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟) ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير(ما يمسكهن إلا الرحمن) والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب ، الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة . . النواميس التى تكفل توافر آلاف الموافقات فى الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة وتتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام . والرحمن يمسكهن بقدرته القادرة التى لا تكل ، وعنايته الحاضرة التى لا تغيب . وهى التى تحفظ هذه النواميس أبدا فى عمل وفى تناسق وفى انتظام . فلا تفتر ولا تختل

ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله (ما يمسكهن إلا الرحمن) بهذا التعبير المباشر الذى يشى بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيهوحين يقبض ، وهو معلق فى الفضاء ! (إنه بكل شىء بصير) يبصره ويراه . ويبصر أمره ويخبره . ومن ثم يهيئ وينسق ، ويعطى القدرة ، ويرعى كل شىء فى كل لحظة رعاية الخبير البصير . ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفزع من الخسف والحاصب ، بعد أن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عودا وبدءا كما يعلم الله من أثر هذا الترداد فى قلوب العباد (أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا فى غرور) وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم:من هو هذا الذى ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذى يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ (إن الكافرون إلا فى غرور) غرور يهيئ لهم أنهم فى أمن وفى حماية وفى اطمئنان ، وهم يتعرضون لغضب الرحمن وبأس الرحمن ، بلا شفاعة لهم من إيمان ولا عمل يستنزل رحمة الرحمن . ولمسة أخرى فى الرزق الذى يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لا يخشون ذهابه ، ثم يلجون فى التبجح والإعراض (أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا فى عتو ونفور) ورزق البشر كله – كما سلف – معقود بإرادة الله فى أول أسبابه ، فى تصميم هذا الكون وفى عناصر الأرض والجو وهى أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقا ، ولا تتعلق بعملهم بتاتا . فهى أسبق منهم فى الوجود ، وهى أكبر منهم فى الطاقة ، وهى أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله .وإنسانية هى من رزق الله أصلا ؟ (أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه)(بل لجوا فى عتو ونفور) والتعبير يرسم خدا مصعرا ، وهيئة متبجحة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه ، وأقبح العتو والنفور ، والتبجح والتصعير ، ما يقع من العيال فى مواجهة المطعم الكاسى ، الرازق العائل وهم خلو من كل شىء إلا ما يتفضل به عليهم . وهم بعد ذلك عاتون معرضون وقحاء ! وهو تصوير لحقيقة النفوس التى تعرض عن الدعوة إلى الله فى طغيان عات ، وفى إعراض نافر ، وتنسى أنها من صنع الله ، وأنها تعيش على فضله ، وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئا على الإطلاق ! ولقد كانوا – مع هذا – يتهمون النبى ﷺ ومن معه بالضلال ؛ ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلا ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله فى كل زمان . ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين فى مشهد حى يجسم حقيقة الحال(أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟) والذى يمشى مكبا على وجهه إما أن يكون هو الذى يمشى على وجهه فعلا لا على رجليه فى استقامة كما خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذى يعثر فى طريقه فينكب على وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد ! وهذه كتلك حال بائسة تعانى المشقة والعسر والتعثر ، ولا تنتهى إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هى من حال الذى يمشى مستقيما سويا فى طريق لا عوج فيه ولا عثرات ، وهدفه أمامه واضح مرسوم ؟! إن الحال الأولى هى حال الشقى المنكود الضال عن طريق الله ، المحروم من هداه ، الذى يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها فى سيره ، ويتخذ له مسارا غير مسارها ، وطريقا غير طريقها ، فهو أبدا فى تعثر ، وأبدا فى عناء ، وأبدا فى ضلال . والحال الثانية هى حال السعيد المجدود المهتدى إلى الله ، الممتع بهداه ، الذى يسير وفق نواميسه فى الطريق اللاحب المعمور ، الذى يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء . إن حياة الإيمان هى اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الكفر هى العسر والتعثر والضلال . . فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر فى حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب ! ويتوارى السؤال والجواب ليتراءى للقلب هذا المشهد الحى الشاخص المتحرك . . مشهد جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق . ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات ، مستقيمة الخطوات ، فى طريق مستقيم ، لهدف مرسوم (قل:هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون) وحقيقة أن الله هو الذى أنشأ الإنسان ، حقيقة تلح على العقل البشرى ، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد – وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يعلم من الخلائق – وهو لم يوجد نفسه ، فلا بد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده . . ولا مفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والمماراة فيها نوع من المماحكة لا يستحق الاحترام (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) وما قابل الإنسان به هذه النعمة:نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة (قليلا ما تشكرون) والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التى يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ، معجزة أعجب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل . وهى سر الله فى هذا المخلوق الفريد . . ثم يذكرهم أن الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثا ولا جزافا لغير قصد ولا غاية . إنما هى فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزاء فى يوم الجزاء (قل:هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) والذرء:الإكثار . ويحمل كذلك معنى الانتشار . والحشر هو:الجمع بعد النشر فى الأرجاء . وهما حركتان

متقابلتان من الناحية التصورية ، تقابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم في الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق في آية واحدة ، ليتقابل المشهدان في الحس والتصور على طريقة القرآن . وليتذكر البشر وهم منتشرون في الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها ، هي الجمع والحشر . وأن هناك أمرا وراء هذا ، ووراء الابتلاء بالموت والحياة . ثم يحكي شكهم في هذا الحشر ، وارتيابهم في هذا الوعد (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال المماحك المتعنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء . ويستوى بالقياس إليهم أن يجيء غدا أو أن يجيء بعد ملايين السنين . . فالمهم أنه آت ، وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة . ومن ثم لم يطلع الله أحدا من خلقه على موعده ، لأنه لا مصلحة لهم في معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكاليف التي يطالب الناس بها استعدادا لملاقاته ، بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد ، دون الخلق جميعا (قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين) وظيفتي الإنذار ، ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك . والموعد الذي يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا)! فقد رأوه قريبا مواجها لهم حاضرا أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم ، وبدا فيها الاستياء ، ووجه إليهم التأنيب (وقيل:هذا الذي كنتم به تدعون) هذا هو حاضرا قريبا . وهو الذي كنتم تدعون أنه لن يكون ! ولقد كانوا يتربصون بالنبي ﷺ والحفنة المؤمنة التي معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ؛ وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوبعة التي أثارتها الدعوة في صفوفهم . كما كانوا يتبجحون أحيانا فيزعمون أن الله سيهلك محمدا ومن معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيما يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء ، ينبههم إلى أن أمنيتهم حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال . فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم (قل:أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟) وهو سؤال يردهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير في شأنهم ، وهو الأولى ! فما ينفعهم أن تتحقق أمانيهم فيهلك الله النبي ومن معه – كما لا ينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لا يموت . وهو الذي ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون . . إنه يلوح لهم بالعذاب الذي ينتظر الكافرين (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وهو أسلوب في الدعوة حكيم ، يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون ، وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم . . فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد . ففي بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعل في النفس من أسلوب التصريح ! ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه ، مع التلميح إلى اطمئنانهم لأيمانهم ، وثقتهم بهداهم ، وبأن الكافرين في ضلال مبين . (قل:هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو في ضلال مبين) وذكر صفة (الرحمن) هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ؛ فهو لن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون . ويوجه النبي ﷺ إلى إبراز الصلة التي تربطهم بربهم الرحمن . صلة الإيمان (آمنا به) وصلة التوكل (وعليه توكلنا) عليه وحده والتعبير يشي بالقربى بينهم وبين الرحمن . والله – سبحانه – هو الذي يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القربى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما ليقول له:لا تخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بي منتسبون إلي . وأنت مأذون مني في أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا المقام ! فقل لهم . . . وهذا ود من الله وتكريم . ثم ذلك التهديد الملفوف (فستعلمون من هو في ضلال مبين) وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذي سبق ذكره في الآية (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ؟) وفي الوقت ذاته لا يجبههم بأنهم ضالون فعلا ، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب في الدعوة يناسب بعض حالات النفوس . . وأخيرا يجيء الإيقاع الأخير في السورة يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول وهو الماء (قل:أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ؟) والماء الغور: هو الغائر الذاهب في الأرض لا يقدرون عليه . والمعين : النابع أي الفائض المتدفق . وهي لمسة قريبة في حياتهم ، إن كانوا ما يزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه . . والملك بيد الله وهو على كل شيء قدير . فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور ! وهكذا تنتهي هذه السورة ، وينتهي هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . في آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعا خاصا . أو كانت رحلة في عالم مجهول مغيب ، أو منظور لا تلتفت إليه الأنظار والقلوب .

سورة القلم

مكية ، و آياتها ٥٢

لا يمكن تحديد التاريخ الذى نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولا ، وأن سائرها نزل أخيرا – ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله ﷺ وقولهم:إنه مجنون ! والروايات التى تقول:إن هذه السورة هى الثانية فى النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ومن المتفق عليه فى ترتيب المصاحف المختلفة أنها هى السورة الثانية ؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التى جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، فى الوقت الذى أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فتقول عن رسول الله ﷺ تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يردها وينفيها ، ويهدد المناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد فى السورة . واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكرا وحده بعد مطلع سورة العلق . والذى نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية فى ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبى ﷺ بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له (وأنذر عشيرتك الأقربين) وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم ، التى قال عنها قائلهم (أساطير الأولين) وبعدما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التى اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة فى السورة على المكذبين ، والتهديد القاصم فى أولها وفى آخرها على السواء . والمشهد الأخير فى السورة يوحى بهذا كذلك (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون:إنه لمجنون) فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك فى أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا – كما تقول الروايات الراجحة – إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة . والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبى [ص] للالتقاء فى منتصف الطريق ، والتهادن على تراض فى القضية التى يختلفون عليها وهى قضية العقيدة (ودوا لو تدهن فيدهنون) وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطرها . لقد كانت هذه الغرسة – غرسة العقيدة الإسلامية – تودع فى الأرض لأول مرة فى صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لا فى الجزيرة العربية وحدها بل كذلك فى أنحاء الأرض جميعا . ومن ثم نرى فى السور المكية – كسور هذا الجزء – أن الله كأنما يحتضن – سبحانه – رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسرى عنه ، ويثنى عليه وعلى المؤمنين . ويبرز العنصر الأخلاقى الذى يتمثل فى هذه الدعوة وفى نبيها الكريم . وينفى ما يقوله المتقولون عنه ، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويعفيهم من التفكير فى أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء ! ونجد من هذا فى سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبى ﷺ (ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم) وقوله تعالى عن المؤمنين (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟!) ويقول عن أحد أعداء النبى البارزين (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم !) ثم يقول عن حرب المكذبين عامة (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين) وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) ويضرب لهم أصحاب الجنة – جنة الدنيا – مثلا على عاقبة البطر تهديدا لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالهم من مال وبنين . وفى نهاية السورة يوصى النبى ﷺ بالصبر الجميل (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت . .) ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت ، مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب ، يتولى الله – سبحانه – بذاته حربهم فى ذلك الأسلوب العنيف . . من خلال هذا كله نتبين ملامح تلك الفترة ، فترة الضعف والقلة ، وفترة المعاناة والشدة ، وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة فى تلك التربة العنيدة ! كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة

وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التى كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهى ملامح فيها سذاجة وبدائية فى التصور والتفكير والمشاعر والاهتمامات والمشكلات على السواء . نلمح هذه السذاجة فى طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبى ﷺ (إنه لمجنون)! وهو اتهام لا حبكة فيه ولا براعة ، وأسلوب من لايجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان ، كما يفعل السذج البدائيون . ونلمحها في الطريقة التى يرد الله بها عليهم فريتهم ردا يناسب حالهم:(ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون). . وكذلك فى التهديد المكشوف العنيف (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين) ونلمحها فى رد هذا السب على رجل منهم (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . . .) ونلمحها فى القصة – قصة أصحاب الجنة – التى ضربها الله لهم . وهى قصة قوم سذج فى تفكيرهم وتصورهم وبطرهم ، وفى حركاتهم كذلك وأقوالهم (وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . . الخ) وأخيرا نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل:(أم لكم كتاب فيه تدرسون:إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟) وهى ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني ، وتفيد فى دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ؛ ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبتلك الجماعة فى أواخر عهد الرسول ﷺ ومدى ما نقلها من هذه السذاجة فى التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح فى أساليب الخطاب فيما بعد ، وفى الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاما لا تزيد . وهى فى حياة الأمم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة . . التى انتقلتها الجماعة فى هذا الوقت القصير . والتى تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التى لم ترتفع إليها قيادة قط فى تاريخ البشرية ، لا من ناحية طبيعة العقيدة ، ولا من ناحية آثارها الواقعية فى حياة الإنسان في الأرض ، ولا من ناحية السعة والشمول لتضم الإنسانية كلها بين جوانحها فى سماحة وعطف ، وفى تلبية لكل حاجاتها الشعورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية فى شتى الميادين . . إنها المعجزة تتجلى فى النقلة من هذه السذاجة التى تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهى نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة ، لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ{١} مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ{٢} وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ{٣} وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ{٤} فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ{٥} بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ{٦} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{٧} فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ{٨} وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ{٩} وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ{١٠} هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ{١١} مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{١٢} عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ{١٣} أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ{١٤} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{١٥} سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ{١٦} إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ{١٧} وَلَا يَسْتَثْنُونَ{١٨} فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ{١٩} فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ{٢٠} فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ{٢١} أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ{٢٢} فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ{٢٣} أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ{٢٤} وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ{٢٥} فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ{٢٦} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ{٢٧} قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ{٢٨} قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{٢٩} فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ{٣٠} قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ{٣١} عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ{٣٢} كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{٣٣} إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ{٣٤} أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{٣٥} مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{٣٦} أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ{٣٧} إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ{٣٨} أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ{٣٩} سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ{٤٠} أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ{٤١} يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{٤٢} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{٤٣} فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ{٤٤} وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ{٤٥} أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ{٤٦} أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ{٤٧} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ{٤٨} لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ{٤٩} فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{٥٠} وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ{٥١} وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ){٥٢}

(ن ، والقلم وما يسطرون) يقسم الله – سبحانه – بنون ، وبالقلم ، وبالكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف "نون" . بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة . . فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، فى وسط الأمة التى لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة ، فى الوقت الذى كان دورها المقدر لها فيعلم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها ، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسى فى النهوض بهذه المهمة الكبرى . يقسم الله – سبحانه – بنون والقلم وما يسطرون ، منوها بقيمة الكتابة معظما لشأنها كما أسلفنا لينفى عن رسوله ﷺ تلك الفرية التى رماه بها المشركون ، مستبعدا لها ، ونعمته على رسوله ترفضها . (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) فيثبت فى هذه الآية القصيرة وينفى . . يثبت نعمة الله على نبيه ، فى تعبير يوحى بالقربى والمودة:حين يضيفه سبحانه إلى ذاته (ربك) وينفى تلك الصفة المفتراة التى لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه . وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول ﷺ فى قومه ، من قولتهم هذه عنه ، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم فى رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين ، وظلوا يستودعونه أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن عليا – كرم الله وجهه – تخلف عن رسول الله أياما فى مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التى كانت عنده ؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه:هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال أبو سفيان – وهو عدوه قبل إسلامه – لا ، فقال هرقل:ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ! (وإن لك لأجرا غير ممنون) وإن لك لأجرا دائما موصولا ، لا ينقطع ولا ينتهى ، أجرا عند ربك الذى أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم . . وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه:(وإن لك لأجرا غير ممنون)؟ فى عطف وفى مودة وفى تكريم ؟ ثم تجىء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم (وإنك لعلى خلق عظيم) وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد على النبى الكريم ؛ ويثبت هذا الثناء العلوى فى صميم الوجود ! ويعجز كل قلم ، ويعجز كل تصور ، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود ، وهى شهادة من الله ، فى ميزان الله ، لعبد الله ، يقول له فيها (وإنك لعلى خلق عظيم) ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين ! ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواح شتى: تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت فى كيانه ، وتتردد فى الملأ الأعلى إلى ما شاء الله . وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة . ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة ، التى يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين . ولقد رويت عن عظمة خلقه فى السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات منوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روى عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدلالتها من كل شىء آخر . أعظم بصدورها عن العلى الكبير . وأعظم بتلقى محمد لها وهو يعلم من هو العلى الكبير ، وبقائه بعدها ثابتا راسخا مطمئنا . لا يتكبر على العباد ، ولا ينتفخ ، ولا يتعاظم ، وهو الذى سمع ما سمع من العلى الكبير ! وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى عده مع المشركين ، الذين رموه بذلك البهت اللئيم ؛ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين(فستبصر ويبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) والمفتون الذى يطمئن الله نبيه إلى كشفه وتعيينه هو الضال . أو هو الممتحن الذى يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا المدلولين قريب من قريب . . وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين معه ، بقدر ما فيه من التهديد للمناوئين له المفترين عليه . . أيا كان مدلول الجنون الذى رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هذا القول . إنما كانوا يعنون به مخالطة الجنة له ، وإيحاءهم إليه بهذا القول الغريب البديع – كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطانا هو الذى يمده ببديع القول ! – وهو مدلول بعيد عن حقيقة حال النبى ﷺ وغريب عن طبيعة ما يوحى إليه من القول الثابت الصادق المستقيم . ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخاصمونه ويجادلونه فى الحق الذى معه ، ويرمونه بما يرمونه ، وهم مزعزعو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية ، التى يتظاهرون بالتصميم عليها . إنهم على استعداد للتخلى عن الكثير منها فى مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوهم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويلينوا يحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكى يدهن هو لهم ويلين . . فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق ، وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها (فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون) فهى المساومة إذن ، والالتقاء فى منتصف الطريق . كما يفعلون فى التجارة . وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير ! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شىء منها ؛ لأن الصغير منها

كالكبير . بل ليس فى العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لا يطيع فيها صاحبها أحدا ، ولا يتخلى عن شىء منها أبدا . وما كان يمكن أن يلتقى الإسلام والجاهلية فى منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا فى أى طريق . وذلك حال الإسلام مع الجاهلية فى كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم ، وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر ، ولا تقام عليها قنطرة ، ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذى يستحيل فيه التوفيق ! وقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبى ﷺ ليدهن لهم ويلين ؛ ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم ، أو يتابعهم فى شىء مما هم عليه ليتابعوه فى دينه ، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب ! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ! ولكن الرسول ﷺ كان حاسما فى موقفه من دينه ، لا يدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيه ربه (فلا تطع المكذبين)! ولم يساوم ﷺ فى دينه وهو فى أحرج المواقف العصيبة فى مكة . وهو محاصر بدعوته . وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون فى الله أشد الإيذاء وهم صابرون . ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغى أن تقال فى وجوه الأقوياء المتجبرين ، تأليفا لقلوبهم ، أو دفعا لأذاهم . ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم) وقد قيل نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر كما قيل:إن آيات سورة القلم نزلت فى الأخنس بن شريق . . وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله ﷺ ولجوا فى حربه والتأليب عليه أمدا طويلا . والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميم . . . فهو حلاف . . كثير الحلف . ولا يكثر الحلف إلا إنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به ، فيحلف ويكثر من الحلف ليدارى كذبه ، ويستجلب ثقة الناس . وهو مهين . . لا يحترم نفسه ، ولا يحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف ، وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولو كان سلطانا طاغية جبارا . والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا ! وهو هماز . . يهمز الناس ويعيبهم بالقول والإشارة فى حضورهم أو فى غيبتهم سواء . وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ؛ فهو يخالف المروءة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف الأدب فى معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا . وهو مشاء بنميم . يمشى بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بموداتهم . وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين ، لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو لنفسه احتراما عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام ، ناقل الكلام ، المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه فى قرارة نفوسهم ولا يودونه . وهو مناع للخير . يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته ، كلما آنس منهم ميلا إلى النبى ﷺ لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشىء أبدا . فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة (مناع للخير) فيما كان يفعل ويقول . وهو معتد . . متجاوز للحق والعدل إطلاقا . ثم هو معتد على النبى ﷺ وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصدهم عن الهدى ويمنعهم من الدين . . والاعتداء صفة ذميمة تنال من عناية القرآن والحديث اهتماما كبيرا . . وينهى عنها الإسلام فى كل صورة من صورها ، حتى فى الطعام والشراب:" كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه " . . لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصيل . وهو أثيم . . يرتكب المعاصى حتى يحق عليه الوصف الثابت (أثيم). بدون تحديد لنوع الآثام التى يرتكبها . فاتجاه التعبير إلى إثبات الصفة ، وإلصاقها بالنفس كالطبع المقيم ! وهو بعد هذا كله (عتل) وهى لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السمات ، لا تبلغها مجموعة ألفاظ وصفات . فقد يقال:إن العتل هو الغليظ الجافى . وإنه الأكول الشروب . وإنه الشره المنوع . وإنه الفظ فى طبعه ، اللئيم فى نفسه ، السىء فى معاملته . . وعن أبى الدرداء رضى الله عنه:" العتل كل رغيب الجوف ، وثيق الخلق ، أكول شروب ، جموع للمال ، منوع له " . . ولكن تبقى كلمة(عتل) بذاتها أدل على كل هذا ، وأبلغ تصويرا للشخصية الكريهة من جميع الوجوه . وهو زنيم . . وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة فى عدو من أعداء الإسلام – وما يعادى الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميم – والزنيم من معانيه اللصيق فى القوم لا نسب له فيهم ، أو أن نسبه فيهم ظنين . ومن معانيه ، الذى اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . والمعنى الثانى هو الأقرب فى حالة الوليد بن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهينا فى القوم ، وهو المختال الفخور . ثم يعقب على هذه الصفات الذاتيه بموقفه من آيات الله ، مع التشنيع بهذا الموقف الذى يجزى به نعمة الله عليه بالمال والبنين (أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين) وما أقبح ما يجزى إنسان نعمة الله عليه بالمال

والبنين ؛ استهزاء بآياته ، وسخرية من رسوله ، واعتداء على دينه . . وهذه وحدها تعدل كل ما مر من وصف ذميم .ومن ثم يجىء التهديد من الجبار القهار ، يلمس فى نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ؛ كما لمس وصفه من قبل موضع الإختيال بمكانته ونسبه . . ويسمع وعد الله القاطع (سنسمه على الخرطوم) ومن معانى الخرطوم طرف أنف الخنزير البرى . . ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه ! والأنف فى لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال:أنف أشم للعزيز . وأنف فى الرغام للذليل . . أى فى التراب ! ويقال ورم أنفه وحمى أنفه ، إذا غضب معتزا . ومنه الأنفة . . والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير . . الأولى الوسم كما يوسم العبد . . والثانى جعل أنفه خرطوما كخرطوم الخنزير ! وما من شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصما . فهو من أمة كانت تعد هجاء شاعر – ولو بالباطل – مذمة يتوقاها الكريم ! فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض . بهذا الأسلوب الذى لا يبارى . فى هذا السجل الذى تتجاوب بكل لفظ من ألفاظه جنبات الوجود . ثم يستقر فى كيان الوجود . . فى خلود . إنها القاصمة التى يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم . وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ، والبطر الذى يبطره المكذبون ، يضرب لهم مثلا بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ؛ ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نعم المال والبنين ، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلى أصحاب هذه القصة ، وأن له ما بعده ، وأنهم غير متروكين لما هم فيه ، وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة ، ولكن السياق القرآنى يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده . ويكون هذا هو الجديد فى سياقها القرآنى . ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه فى تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة ، الذين كانوا يعاندون ويجحدون ، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هى أقرب إلى السذاجة والبساطة ! والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفنى فى القرآن ؛ وفيه مفاجآت مشوقة كما أن فيه سخرية بالكيد البشرى العاجز أمام تدبير الله وكيده . وفيه حيوية فى العرض حتى لكأن السامع – أو القارئ – يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى . فلنحاول أن نراها كما هى فى سياقها القرآنى ، ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة – جنة الدنيا لا جنة الآخرة – وها هم أولاء يبيتون فى شأنها أمرا . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة – كما تقول الروايات – على أيام صاحبها الطيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم . . فلننظر كيف تجرى الأحداث إذن ! (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون) لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين . وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه ، وباتوا بهذا الشر فيما اعتزموه . . فلندعهم فى غفلتهم أو فى كيدهم الذى يبيتوه ، ولننظر ماذا يجرى من ورائهم فى بهمة الليل وهم لا يشعرون . فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاء على ما بيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين المعلوم . . إن هناك مفاجأة تتم فى خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح فى الظلام . والناس نيام (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم) فلندع الجنة وما ألم بها مؤقتا لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون . ها هم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا ، وينادى بعضهم بعضا لينفذوا ما اعتزموا (فتنادوا مصبحين:أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) يذكر بعضهم بعضا ويوصى بعضهم بعضا ويحمس بعضم بعضا ! ثم يمضى السياق فى السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ، يتحدثون فى خفوت ، زيادة فى إحكام التدبير ، ليحتجنوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين ! (فانطلقوا وهم يتخافتون:ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين !!!)وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها . . أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها فى الظلام ، فتذهب بثمرها كله . ورأيناها كأنما هى مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفى الرهيب ! فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون . إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين(وغدوا على حرد قادرين)! أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان . . حرمان أنفسهم على أقل تقدير !! وها هم أولاء يفاجأون . فلننطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشهدهم مفجوئين (فلما رأوها قالوا:إنا لضالون) ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار . فقد ضللنا إليها الطريق ! . . ولكنهم يعودون فيتأكدون (بل نحن محرومون) وهذا هو الخير اليقين ! والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبييت ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم ويبدو أنه كان له رأى غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد فى رأيه ، ولم يصر على الحق الذى رآه فناله الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه (قال أوسطهم:ألم أقل لكم:لولا تسبحون) والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان (قالوا:سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين) وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين . . ها هم أولاء

يصنعون (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون)! ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير(قالوا:يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون) وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب (كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . . ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)! وكذلك يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة ، ومما هو متداول بينهم من القصص ، فيربط بين سنته فى الغابرين وسنته فى الحاضرين ؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفى الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين – من كبراء قريش – من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائجه . وسنته أن يبتلى بالنعمة كما يبتلى بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم ، فذلك كان مثلا لعاقبتهم (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) وأما المتقون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم(إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) وهو التقابل فى العاقبة ، كما أنه التقابل فى المسلك والحقيقة . . تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق ! وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم فى جدل لا تعقيد فيه كذلك ولا تركيب . ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلا جواب واحد يصعب المغالطة فيه ؛ ويهددهم فى الآخرة بمشهد رهيب ، وفى الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوى الشديد ، والسؤال الاستنكارى الأول (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟) يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التى عرضها فى الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد . . لا . لا يكون . فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم ، لا يكونون أبدا كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجاج يسمهم بهذا الوصف الذميم ! وما يجوز فى عقل ولا فى عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون فى جزاء ولا مصير . ومن ثم يجىء السؤال الاستنكارى الآخر: مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ . . ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف تزنون القيم والأقدار حتى يستوى فى ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟! ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهكم بهم والسخرية منهم (أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟) فهو التهكم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لا يقبله عقل ولا عدل ؛ وهو الذى يقول لهم:إن المسلمين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم ، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف ! (أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟) فإن لا يكن ذلك فهو هذا . وهو أن تكون لهم مواثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم ما يحكمون ، وما يختارون وفق ما يشتهون ! وليس من هذا شىء . فلا عهود لهم عند الله ولا مواثيق . فعلام إذن يتكلمون ؟! وإلام إذن يستندون ؟! (سلهم أيهم بذلك زعيم ؟) سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون ، وأن لهم ميثاقا عليه سارى المفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون ؟! وهو تهكم ساخر عميق بليغ يذيب الوجوه من الحرج والتحدى السافر المكشوف !

(أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله . ويتجاهل أن هناك شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين . . ولكن متى يدعونهم ؟ (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) فيقفهم وجها لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين . وهذا اليوم حقيقة حاضرة فى علم الله لا تتقيد فى علمه بزمن . واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يجعل وقعها عميقا حيا حاضرا فى النفوس على طريقة القرآن الكريم . والكشف عن الساق كناية – فى تعبيرات اللغة العربية المأثورة – عن الشدة والكرب . فهو يوم القيامة الذى يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشتد الكرب والضيق . . ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم كما وصفهم فى موضع آخر يكونون (مهطعين مقنعى رؤوسهم) وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وعلى أية حال فهو تعبير يشى بالكرب والعجز والتحدى المخيف . ثم يكمل رسم هيئتهم (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) هؤلاء المتكبرون المتبجحون . والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة . وهى تذكر بالتهديد الذى جاء فى أول السورة (سنسمه على الخرطوم) فإيحاء الذلة والانكسار ظاهر عميق مقصود ! وبينما هم فى هذا الموقف المرهق الذليل ، يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار (وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) قادرون على السجود

. فكانوا يأبون ويستكبرون . . كانوا . فهم الآن فى ذلك المشهد المرهق الذليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ! وبينما هم فى هذا الكرب ، يجيئهم التهديد الرعيب الذى يهد القلوب (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) وهو تهديد مزلزل . . والجبار القهار القوى المتين يقول للرسول ﷺ خلى بينى وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرنى لحربه فأنا به كفيل ! ومن هو هذا الذى يكذب بهذا الحديث ؟ إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهباءة المنثورة . . بل هذا العدم الذى لا يعنى شيئا أمام جبروت الجبار القهار العظيم ! فيا محمد . خل بينى وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب معى لا معك ولا مع المؤمنين . الحرب معى . وهذا المخلوق عدوى ، وأنا سأتولى أمره فدعه لى ، وذرنى معه ، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا ! أى هول مزلزل للمكذبين ! وأى طمأنينة للنبى والمؤمنين . . المستضعفين . . ؟ ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف ! (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين) وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير . . ولكنه – سبحانه – يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذى يدعه لهم هو الفخ الذى يقعون فيه وهم غارون . وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للخزى والرهق والتعذيب . . وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلا ولا رحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته فى هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور ! إنه سبحانه يمهل ولا يهمل . ويملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التى قدرها بمشيئته . ويقول لرسوله ﷺ ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث ، وخل بينى وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأملى لهم ، وأجعل هذه النعمة فخهم ! فيطمئن رسوله ، ويحذر أعداءه . . ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب ! وفى ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدى والتعجيب من موقفهم الغريب (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟) فثقل الغرامة التى تطلبها منهم أجرا على الهداية هو الذى يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب ، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع ، على فداحة ما يؤدون ؟! (أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟) ومن ثم فهم على ثقة مما فى الغيب ، فلا يخيفهم ما ينتظرهم فيه ، فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه . فكتبوه ضامنا لما يشتهون ؟ ولا هذا ولا ذاك ؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟! وبذلك التعبير العجيب الموحى الرعيب (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين . بهذا وذلك يخلى الله النبى ﷺ والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهى معركته – سبحانه – وهى حربه التى يتولاها بذاته . والأمر كذلك فى حقيقته ، مهما بدا أن للنبى ﷺ وللمؤمنين دورا فى هذه الحرب أصيلا . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله فى حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لا يفعل . وهو فى الحالين فعال لما يريد . وهو فى الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التى يريد . وهذا النص نزل والنبى ﷺ فى مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شىء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفزع للمغترين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع فى المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر فى المعركة . وذلك ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن المعركة معركته هو سبحانه . وأن الحرب حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دورا فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسنا . وليكتب لهم بهذا البلاء أجرا . أما حقيقة الحرب فهو الذى يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذى يكتبها . . وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هى الأداة الوحيدة فى يده ! وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه ﷺ إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله فى الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ، فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم (فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت . إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) وصاحب الحوت هو يونس – عليه السلام – كما جاء فى سورة الصافات . وملخص تجربته التى يذكر الله بها محمدا ﷺ لتكون له زادا ورصيدا ، وهو خاتم النبيين ، الذى سبقته تجارب النبيين أجمعين فى حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير . فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد فى حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب .

وكل يوم يأتى بجديد . ملخص تلك التجربة أن يونس بن متى – سلام الله عليه – أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالموصل . فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تلكؤهم ، فتركهم مغاضبا قائلا فى نفسه:إن الله لن يضيق على بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلنى إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا فى وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق . فأقرعوا بين الركاب للتخفف من واحد منهم لتخف السفينة . . فكانت القرعة على يونس . فألقوه فى اليم . فابتلعه الحوت . عندئذ نادى يونس – وهو كظيم – فى هذا الكرب الشديد فى الظلمات فى بطن الحوت ، فى وسط اللجة ، نادى ربه (لا إله إلا أنت سبحانك ! إنى كنت من الظالمين) فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ . . لحما بلا جلدا . . ذاب جلده فى بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التى لا يقيدها قيد من مألوف البشر المحدود ! وهنا يقول:إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أى مذموم من ربه . . على فعلته . وقلة صبره . وتصرفه فى شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) هذه هى التجربة التى مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمدا ﷺ فى موقف العنت والتكذيب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هى الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد . وقتما يريد . وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه فى تحديد الموعد ، وفى مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب ! وفى الختام يرسم مشهدا للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ، فى غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب فى نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، ويصفها القرآن بما لا يزيد عليه (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون: إنه لمجنون) فهذه النظرات تكاد تؤثر فى أقدام الرسول ﷺ فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق وشر وحسد ونقمة وضغن ، وحمى وسم . . مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشتم البذىء ، والافتراء الذميم (ويقولون: إنه لمجنون) وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة فى مكة . فهو لا يكون إلا فى حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفى نظراتهم كل هذا الحقد الذميم المحموم ! يعقب عليه بالقول الفصل الذى ينهى كل قول (وما هو إلا ذكر للعالمين) والذكر لا يقوله مجنون ، ولا يحمله مجنون . . وصدق الله وكذب المفترون . .

سورة الحاقة

مكية ، و آياتها ٥٢

هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهى منذ افتتاحها إلى ختامها تقرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آنا وبالجلال آنا ، وبالعذاب آنا ، وبالحركة القوية فى كل آن ! والسورة بجملتها تلقى فى الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد . . أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل . جد فى الدنيا وجد فى الآخرة ، وجد فى ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرا ولا قليلا . وأى تلفت عنه من أى أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم . ولو كان الذى يتلفت عنه هو الرسول ﷺ . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر . . إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين . يبرز هذا المعنى فى اسم القيامة المختار فى هذه السورة ، والذى سميت به السورة: "الحاقة " . . وهى بلفظها وجرسها ومعناها تلقى فى الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شىء برفع الثقل طويلا ، ثم استقراره استقرارا مكينا . رفعه فى مدة الحاء بالألف ، وجده فى تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التى تنطق هاء ساكنة . ويبرز فى مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوما بعد قوم ، وجماعة بعد جماعة ، مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة (كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم فى هذا الأمر العظيم الهائل ، الذى لا يحتمل هزلا ، ولا يحتمل لعبا ، ولا يحتمل تلفتا عنه من هنا أو هناك ! ويبرز فى مشهد القيامة المروع ، وفى نهاية الكون الرهيبة ، وفى جلال التجلى كذلك وهو أروع وأهول (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ،وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان فى تعميق ذلك المعنى فى الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيحاءاتها . هو وما بعده من مقالة الناجين والمعذبين: فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول:هاؤم اقرؤوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . . فقد نجا وما يكاد يصدق بالنجاة (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول:يا ليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه) بهذا التفجع الطويل ، الذى يطبع فى الحس وقع هذا المصير . ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم فى النطق العلوى بالقضاء الرهيب الرعيب ، فى اليوم الهائل ، وفى الموقف الجليل (خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض ، وتنقض فى جلال مذهل ، وفى هول مروع ، وفى جد ثقيل . ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعيبة (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون) ثم يبرز ذلك المعنى فى التلويح بقسم هائل ، وفى تقرير الله لحقيقة الدين الأخير (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) وأخيرا يبرز الجد فى الإيقاع الأخير . وفى التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب فى هذا الأمر أو يبدل . كائنا من كان ، ولو كان هو محمدا الرسول (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) فهو الأمر الذى لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين . وعندئذ تختم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير (وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين . . فسبح باسم ربك العظيم) وهو الختام الذى يقطع كل قول ، ويلقى بكلمة الفصل ، وينتهى إلى الفراغ من كل لغو ، والتسبيح باسم الله العظيم . . ذلك المعنى الذى تتمحض السورة لإلقائه فى الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعها ومشاهدها

وصورها وظلالها بإلقائه وتقريره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لا يملك منها فكاكا ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة ! فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط [المؤتفكات] حاضرة شاخصة ، والهول المروع يجتاح مشاهدها لا فكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوما في آيتين اثنتين سريعتين . . ومن ذا الذى يقرأ: (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟) ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرةالمحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين (كأنهم أعجاز نخل خاوية !) وهو مشهد حي ماثل للعين ، ماثل للقلب ، ماثل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف فى السورة . ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس ، وتقرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكآبة . ومن ذا الذى يسمع (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة !! ومن الذى يسمع (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها) ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة ؟! ثم من الذى لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع (والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) ومشهد الناجى الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة ، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه فى رنة الفرح والغبطة: هاؤم اقرؤوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ! ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تئن فى كلماته ونبراته وإيقاعاته (يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عنى سلطانيه). ومن ذا الذى لا يرتعش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب: خذوه ، فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . . . الخ. . وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل فى ذلك البائس الحسير ! وحاله هناك (فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون)وأخيرا فمن ذا الذى لا تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة ، وهو يتمثل فى الخيال صورة التهديد الشديد (ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين !) إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة ، وهى تلح عليه ، وتضغط ، وتتخلل الأعصاب والمشاعر فى تأثير حقيقى عنيف ! ويشارك إيقاع الفاصلة فى السورة ، برنته الخاصة وتنوع هذه الرنة ، وفق المشاهد والمواقف فى تحقيق ذلك التأثير الحى العميق . فمن المد والتشديد والسكت فى مطلع السورة: (الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟) إلى الرنة المدوية فى الياء والهاء الساكنة بعدها . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير فى الدنيا والآخرة ، ومشاهد الفرحة والحسرة فى موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مديدة (خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه) ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم ، وتقرير جدية الأمر ، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين) (وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم). . وهذا التغير فى حرف الفاصلة وفى نوع المد قبلها وفى الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو ، وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك فى إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس . فى السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير . إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهى بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل ، ومن كل تعليق !

(الْحَاقَّةُ{١} مَا الْحَاقَّةُ{٢} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ{٣} كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ{٤} فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ{٥} وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ{٦} سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ{٧} فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ{٨} وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ{٩} فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً{١٠} إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ{١١} لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ{١٢} فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ{١٣} وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً{١٤} فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{١٥} وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ{١٦} وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ{١٧} يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ{١٨} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ{١٩} إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ{٢٠} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{٢١} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{٢٢} قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ{٢٣} كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ{٢٤} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ{٢٥} وَلَمْ أَدْرِ مَا

حِسَابِيهْ{٢٦} يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ{٢٧} مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ{٢٨} هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ{٢٩} خُذُوهُ فَغُلُّوهُ{٣٠} ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ{٣١} ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ{٣٢} إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ{٣٣} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{٣٤} فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ{٣٥} وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ{٣٦} لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ{٣٧} فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ{٣٨} وَمَا لَا تُبْصِرُونَ{٣٩} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{٤٠} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{٤١} وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{٤٢} تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ{٤٣} وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{٤٤} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{٤٥} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{٤٦} فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{٤٧} وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{٤٨} وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ{٤٩} وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ{٥٠} وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ{٥١} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{٥٢}

(الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟) القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة . ومن ثم تبدأ السورة باسمها ، وتسمى به ، وهو إسم مختار بجرسه ومعناه كما أسلفنا . فالحاقة هى التى تحق فتقع . أو تحق فتنزل بحكمها على الناس . أو تحق فيكون فيها الحق . . وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هى بجرسها كما بينا من قبل تلقى إيقاعا معينا يساوق هذا المعنى الكامن فيها ، ويشارك فى إطلاق الجو المراد بها ؛ ويمهد لما حق على المكذبين بها . فى الدنيا وفى الآخرة جميعا . والألفاظ فى السورة بجرسها وبمعانيها وباجتماعها فى التركيب ، وبدلالة التركيب كله . . تشترك فى إطلاق هذا الجو وتصويره . فهو يبدأ فيلقيها كلمة مفردة ، لا خبر لها فى ظاهر اللفظ (الحاقة) ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم (ما الحاقة ؟) ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك (وما أدراك ما الحاقة ؟) ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال . ويدعك واقفا أمام هذا الأمر المستهول المستعظم ، الذى لا تدريه ، ولا يتأتى لك أن تدريه ! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك ! ويبدأ الحديث عن المكذبين به ، وما نالهم من الهول ، وما أخذوا به من القصم ، فذلك الأمر جد لا يحتمل التكذيب ، ولا يذهب ناجيا من يصر فيه على التكذيب (كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟) وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق إنها تحق . . فهى تقرع . . والقرع ضرب الشىء الصلب والنقر عليه بشىء مثله . والقارعة تقرع القلوب بالهول والرعب ، وتقرع الكون بالدمار والحطم . وها هى ذى بجرسها تقعقع وتقرقع ، وتقرع وتفزع . . وقد كذبت بها ثمود وعاد . فلننظر كيف كانت عاقبة التكذيب (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) يذكر وصف الصيحة دون لفظها (بالطاغية) لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة فى هذا المقطع منها . ويكتفى بهذه الآية الواحدة تطوى ثمود طيا ، وتغمرهم غمرا ، وتعصف بهم عصفا ، وتطغى عليهم فلا تبقى لهم ظلا ! وأما عاد فيفصل فى أمر نكبتها ويطيل ، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوما . على حين كانت وقعة ثمود خاطفة . . صيحة واحدة . طاغية (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية) والريح الصرصر: هى الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح . وزاد شدتها بوصفها (عاتية) لتناسب عتو عاد وجبروتها. هذه الريح الصرصر العاتية (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) والحسوم هى القاطعة المستمرة فى القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة هذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة (سبع ليال وثمانية أيام) ثم يعرض المشهد بعدها شاخصا (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) فترى . . فالمنظر معروض تراه ، والتعبير يلح به على الحس حتى يتملاه !(صرعى) مصروعين مجدلين متناثرين (كأنهم أعجاز نخل) بأصولها وجذوعها (خاوية) فارغة تآكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامدة ! إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة (فهل ترى لهم من باقية ؟) لا ! فليس لهم من باقية !!! ذلك شأن عاد وثمود . . وهو شأن غيرهما من المكذبين . وفى آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتكفات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) وفرعون كان فى مصر – وهو فرعون موسى – ومن قبله لا يذكر عنهم تفصيل . والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التى اتبعت الإفك أو التى انقلبت ، فاللفظ يعنى هذا وهذا . ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعا ، فيقول عنهم انهم جاءوا (بالخاطئة) أى بالفعلة الخاطئة . من الخطيئة (فعصوا رسول ربهم) وهم عصوا رسلا متعددين ؛ ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم فى صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد ، يمثل حقيقة واحدة – وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية – وفى إجمال يذكر مصيرهم فى تعبير يلقى الهول والحسم حسب جو السورة (فأخذهم أخذة رابية) والرابية العالية الغامرة الطامرة . لتناسب (الطاغية) التى أخذت ثمود (والعاتية) التى أخذت عادا ، وتناسب جو الهول والرعب فى السياق بدون تفصيل ولا تطويل ! ثم يرسم مشهد الطوفان

والسفينة الجارية ، مشيرا بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . وممتنا على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغى ، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية يتمشى كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة(لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية)تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة ، التى تكذب بعد كل ما سبق من النذر وكل ما سبق من المصائر ، وكل ما سبق من الآيات ، وكل ما سبق من العظات ، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين ! إن الهول فى هذه المصارع – على ضخامتها – محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعد هذا التمهيد يكمل العرض ، ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى (فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) ونحن نؤمن أن هناك نفخة فى الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث . ولا نزيد فى تفصيلها شيئا . لأنها غيب . ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة ؛ وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لا يزيد فى حكمة النص شيئا ، والجرى وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا اتباع الظن المنهى عنه أصلا (نفخة واحدة) فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوى عاليها بسافلها . . مشهد مروع حقا . هذه الأرض التى يجوس الإنسان خلالها آمنا مطمئنا ، وهى تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التى تهول الإنسان بروعتها واستقرارها . . هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة فى يد الوليد . . إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضالته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، فى ذلك اليوم العظيم . فإذا وقع هذا . إذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فهو حينئذ الأمر الذى تتحدث عنه السورة (فيومئذ وقعت الواقعة) والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . فهى الواقعة لأنها لا بد واقعة . كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحاء مقصود فى صدد الارتياب فيها والتكذيب ! ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسماء فى هذا اليوم الهائل ليست بناجية (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) ونحن لا ندرى على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ فى القرآن . ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التى تشير إلى الأحداث الكونية فى ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التى تمسك به فى هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس . . ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه ، وتسكن الضجة التى تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار . يسكن هذا كله ويظهر فى المشهد عرش الواحد القهار (والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية . . ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منها ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله . لا ندرى نحن من هم ولا ما هم . كما لا ندرى نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبيات التى لا علم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا . نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظل الجليل الذى تخلعه على الموقف . وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا . وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشرى بالجلال والرهبة والخشوع ، فى ذلك اليوم العظيم ، وفى ذلك الموقف الجليل (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) فالكل مكشوف . مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير . وتسقط جميع الأستار التى كانت تحجب الأسرار ، وتتعرى النفوس تعرى الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود . . ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصا على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أقسى الفضيحة على الملأ . وما أخزاها على عيون الجموع ! ألا إنه لأمر عصيب . أعصب من دك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع . . فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقا . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان . . . كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟! وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين ، كأنه حاضر تراه العيون (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول:هاؤم اقرأوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه . . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية ، وقد يكون تمثيلا لغويا جاريا على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال أو من وراء الظهر . . وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد ، وهو لا يستدعى جدلا يضيع فيه جلال الموقف ! ثم يعلن على رؤوس الأشهاد

ما أعد لهذا الناجى من النعيم ، الذى تبدو فيه هنا ألوان من النعيم الحسى ، تناسب حال المخاطبين إذ ذاك ، وهم حديثو عهد بجاهلية ، ولم يسر من آمن منهم شوطا طويلا فى الإيمان ، ينطبع به حسه ، ويعرف به من النعيم ما هو أرق وأعلى من كل متاع (فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) وهذا اللون من النعيم ، مع هذا اللون من التكريم فى الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) فوق أنه اللون الذى تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن فى أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمو المشاعر فترى فى القرب من الله ما هو أعجب من كل متاع . . فوق هذا فإنه يلبى حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان . والنعيم ألوان غير هذا وألوان (وأما من أوتى كتابه بشماله) وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف فى هذا المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكسير الكئيب . . (فيقول:يا ليتنى لم أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسابيه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عنى ماليه ! هلك عنى سلطانيه !) وهى وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لاتنتهى إلى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضى بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض فى إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيحاء النفسى الذى يريد أن يتركه فى النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول ، فى تنغيم وتفصيل . ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هى القاضية ، التى تنهى وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا . . ثم يتحسر أن لا شىء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه (ما أغنى عنى ماليه) (هلك عنى سلطانيه) فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقى أو دفع . . والرنة الحزينة الحسيرة المديدة فى طرف الفاصلة الساكنة وفى ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، فى تحزن وتحسر . . هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقا بليغا . ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوى الجازم ، بجلاله وهوله وروعته (خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) يا للهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال الماثل ! (خذوه) كلمة تصدر من العلى الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويبتدره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول ابن أبى حاتم بإسناده عن المنهال بن عمرو:"إذا قال الله تعالى:خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلقى سبعين ألفا فى النار" كلهم يبتدر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ! (فغلوه) فأى السبعين ألفا بلغه جعل الغل فى عنقه ! (ثم الجحيم صلوه) ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصليه (ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها .ولعل هذا الإيحاء هو المقصود ! فإذا انتهى الأمر ، نشرت أسبابه على الحشود(إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين) إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب . خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوى الحيوان بل لا يساوى الجماد . فكل شىء مؤمن ، يسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فمقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله (فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون) وهى تكملة الإعلان العلوى عن مصير ذلك الشقى . فلقد كان لا يؤمن بالله العظيم ، وكان لا يحض على طعام المسكين . فهو هنا مقطوع (فليس له اليوم ها هنا حميم). . وهو ممنوع (ولا طعام إلا من غسلين) والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصديد ! وهو يناسب قلبه النكد الخاوى من الرحمة بالعبيد ! طعام (لا يأكله إلا الخاطئون) المذنبون المتصفون بالخطيئة . . وهو منهم فى الصميم ! وينتهى هذا المشهد العنيف المثير . الذى لعله جاء فى هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد العنيفة كى تؤثر فيها وتهزها وتستحييها ، فى ظل هذه المشاهد العميقة الأثر فى المشاعر يجىء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذى جاءهم به الرسول الكريم ، فتلقوه بالشك والسخرية والتكذيب (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) إن الأمر لا يحتاج إلى قسم وهو واضح هذا الوضوح ، ثابت هذا الثبوت ، واقع هذا الوقوع . لا يحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن ، ولا افتراء مفتر ! لا . فما هو بحاجة إلى توكيد بيمين (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) بهذه الفخامة وبهذه الضخامة ، وبهذا التهويل بالغيب المكنون ، إلى جانب الحاضر المشهود . . والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافا قليلة محصورة ، تلبى حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها – كما شاء الله لهم – والأرض كلها ليست سوى هباءة لا تكاد ترى أو تحس فى ذلك الكون الكبير . والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته

وبإدراكه من هذا الملك العريض ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التى أودعها إياه خالق الوجود (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعى إلى أن هناك وراء مد البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسرارا أخرى لا يبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنسانى للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ما تراه عيناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنسانى المزود بقدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته فى هذا الكون (إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) ولقد كان مما تقول به المشركون على القرآن وعلى رسول الله ﷺ قولهم:إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين فى هذا بشبهة سطحية ، منشؤها أن هذا القول فائق فى طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر فى وهمهم له رئى من الجن يأتيه بالقول الفائق ، وأن الكاهن كذلك متصل بالجن . فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع ! وهى شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة ، وطبيعة الشعر أو الكهانة . فالشعر قد يكون موسيقى الإيقاع ، رائع الأخيلة ، جميل الصور والظلال ؛ ولكنه لا يختلط أبدا ولا يشتبه بهذا القرآن إن هنالك فارقا أساسيا فاصلا بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجا متكاملا للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ، ويصدر عن تصور للوجود الإلهى ثابت ، وللكون والحياة كذلك . والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة ، قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة فى حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ، والحب والكره ، والتأثرات المتغيرة على كل حال ! هذا إلى أن التصور الثابت الذى جاء به القرآن قد أنشأه القرآن من الأساس ، فى كلياته وجزئياته ، مع تعين مصدره الإلهى . فكل ما فى هذا التصور يوحى بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصورا كونيا كاملا كهذا التصور . . لم يسبق لهم هذا ولم يلحق . . وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللقوة المنشئة له المدبرة لنظامه . . هذا هو معروضا مسجلا فى الفلسفة وفى الشعر وفى غيرها من المذاهب الفكرية ؛ فإذا قرن إلى التصور القرآنى وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه متفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر . كذلك الأمر فى الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهنا أنشأ منهجا متكاملا ثابتا كالمنهج الذى جاء به القرآن . وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملغزة ! والذى يعين هذا المعنى هو كلمة رسول . أى مرسل به من عند ربه ، وليس شاعرا ولا كاهنا يقوله من عند نفسه . أو بمساعدة رئى أو شيطان . إنما هو رسول يقول ما يحمله عمن أرسله . ويقرر هذا تقريرا حاسما ما جاء بعده (تنزيل من رب العالمين) والتعقيب: (قليلا ما تؤمنون) (قليلا ما تذكرون) مدلولة نفى الإيمان ، ونفى التذكر ، وفق تعبيرات اللغة المألوفة . وفى الحديث فى وصف رسول الله ﷺ " إنه كان يقل اللغو " . أى لا يلغو أصلا . . فقد نفى عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر . وإلا فما يقول مؤمن عن الرسول:إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر:إنه كاهن . إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير ! وفى النهاية يجىء ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفترى على الله فى شأن العقيدة وهى الجد الذى لا هوادة فيه . يجىء لتقرير الإحتمال الواحد الذى لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول [ص] وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذا شديدا . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدا ﷺ صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التى لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذى وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق . هذه هى القضية من الناحية التقريرية . . ولكن المشهد المتحرك الذى ورد فيه هذا التقرير شىء آخر ، يلقى ظلالا بعيدة وراء المعنى التقريرى . ظلالا فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة . ووراءها إيحاءات وإيماءات وإيقاعات ! فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين . وهى حركة عنيفة هائلة مروعة حية فى الوقت ذاته . ووراءها الإيحاء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشرى أمامها وضعفه . . البشر أجمعين . . كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التى لا تحتمل تسامحا ولا مجاملة لأحد كائنا من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع ! وأخيرا تجىء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية (وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين) فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر . إن الحقيقة التى جاء بها كامنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتتذكرها . فأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تتفتح ولا تتذكر ، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئا . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) ولكن هذا لا يؤثر فى حقيقة هذا الأمر ، ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمركم أهون من أن يؤثر فى حقائق الأمور (

وإنه لحسرة على الكافرين) بما يرفع من شأن المؤمنين ، ويحط من قدر المكذبين وبما ينتهى إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذى يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة عليهم عند الله فى اليوم الآخر ، يعذبونهنا يجيء التلقين العلوى للرسول الكريم ، فى أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين (فسبح باسم ربك العظيم) والتسبيح بما فيه من تنزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية وخشوع . . . هو الشعور الذى يخالج القلب ، بعد هذا التقرير الأخير ، وبعد ذلك الاستعراض الطويل ، لقدرة الله العظيم ، وعظمة الرب الكريم . .

سورة المعارج

مكية ، و آياتها ٤٤

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطيء ، المديد ، العميق ، الدقيق ، لعقابيل الجاهلية فى النفس البشرية كما واجهها القرآن فى مكة ؛ وكما يمكن أن يواجهها فى أية جاهلية أخرى مع اختلافات فى السطوح لا فى الأعماق ! وفى الظواهر لا فى الحقائق ! أو هى جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التى خاضها فى داخل هذه النفس ، وفى خلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها . وهى أضخم وأطول من المعارك الحربية التى خاضها المسلمون – فيما بعد – كما أن هذه الرواسب وتلك العقابيل هى أكبر وأصعب من القوى التى كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتى ما تزال مرصودة لها فى الجاهليات القديمة والحديثة ! والحقيقة الأساسية التى تعالج السورة إقرارها هى حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ؛ وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين ، كما أوعدهم القرآن الكريم . وهى تلم – فى طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة – بحقيقة النفس البشرية فى الضراء والسراء . وهى حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها فى الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعده لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين . . وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس فى تقدير الله وتقدير البشر ، واختلاف الموازين . .وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة فى إقرار حقيقة الآخرة ، والحقائق الأخرى التى ألمت بها فى الطريق إليها . وحقيقة الآخرة هى ذاتها التى تصدت لها سورة الحاقة ، ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى ، وتعرض لها من زاوية جديدة ، وصور وظلال جديدة . . فالهول يتجلى فى ملامح النفوس وسماتها وخوالجها وخطواتها ، أكثر مما يتجلى فى مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفسيا ! وهو على كل حال ليس أبرز ما فى الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن فى النفس يتجلى مداه فى مدى ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة (يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه) وجهنم هنا "نفس" ذات مشاعر وذات وعى تشارك مشاركة الأحياء فى سمة الهول الحى: إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى . والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسى أكثر منه حسيا (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف فى سورة المعارج عنها فى سورة الحاقة ، باختلاف طابعى السورتين فى عمومه . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التى تعرضها السورتان فى هذه المشاهد . ومن ثم فقد تناولت سورة المعارج تصوير النفس البشرية فى الضراء والسراء ، فى حالتى الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقا مع طابعها "النفسى" الخاص:فجاء فى صفة الإنسان (إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون) واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة والمضمرة تمشيا مع طبيعة السورة وأسلوبها (إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون) ولقد كان الاتجاه الرئيسى فى سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم فى شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى فى السورة ، كحقيقة أخذ المكذبين أخذا صارما فى الأرض ؛ وأخذ كل من يبدل فى العقيدة بلا تسامح . . فأما الاتجاه الرئيسى فى سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هى الحقيقة الرئيسية فيها . ومن ثم كانت الحقائق الأخرى فى السورة كلها متصلة اتصالا مباشرا بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله فى أيامه وحساب البشر ، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر: تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . . . الخ وهو متعلق باليوم الآخر . ظاهرة أخرى فى هذا الإيقاع الموسيقى للسورة ، الناشئ من بنائها التعبيرى . . فقد كان التنوع

الإيقاعي في الحاقة ناشئا من تغير القافية في السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجو فيه . . فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقا ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيبا . ويكثر هذا التنوع في شطر السورة الأول بشكل ملحوظ . ففي هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية منوعة – مع اتحاد الإيقاع في نهاياتها – من حيث الطول ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالي (سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبرا جميلا) حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس (إنهم يرونه بعيدا . ونراه قريبا) حيث يتكرر الإيقاع بمد الألف مرتين (يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما) حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع في الداخل (يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى) حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس كالأول (نزاعة للشوى . . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا) حيث يتكرر إيقاع المد بالألف خمس مرات منهما اثنتان في النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى . ثم يستقيم الإيقاع في باقي السورة على الميم والنون وقبلهما واو أو ياء . . والتنويع الإيقاعي في مطلع السورة عميق وشديد التعقيد في الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما في هذا التنويع المعقد الراقي – موسيقيا – من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقي العربي . ولكن الأسلوب القرآني يطوعه ويمنحه اليسر الذي يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه ، وإن كان فنا إبداعيا عميقا جديدا على مألوفها الموسيقي .

والآن نستعرض السورة تفصيلا . . .

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ {١} لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ {٢} مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ {٣} تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ {٤} فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا {٥} إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا {٦} وَنَرَاهُ قَرِيبًا {٧} يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ {٨} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ {٩} وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا {١٠} يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ {١١} وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ {١٢} وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ {١٣} وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ {١٤} كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ {١٥} نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ {١٦} تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ {١٧} وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ {١٨} إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا {١٩} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا {٢٠} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا {٢١} إِلَّا الْمُصَلِّينَ {٢٢} الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ {٢٣} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ {٢٤} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {٢٥} وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ {٢٦} وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ {٢٧} إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ {٢٨} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {٢٩} إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ {٣٠} فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ {٣١} وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ {٣٢} وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ {٣٣} وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ {٣٤} أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ {٣٥} فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ {٣٦} عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ {٣٧} أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ {٣٨} كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ {٣٩} فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ {٤٠} عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ {٤١} فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ {٤٢} يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ {٤٣} خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) {٤٤}

(سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذي المعارج) كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركي العرب ؛ ولقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ؛ وينكرونها أشد الإنكار ، ويتحدون الرسول ﷺ في صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود ، أو أن يقول لهم :متى يكون . وفي رواية عن ابن عباس أن الذي سأل عن العذاب هو النضر بن الحارث . وفي رواية أخرى عنه:قال:ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم وعلى أية حال فالسورة تحكي أن هناك سائلا سأل وقوع العذاب واستعجله . وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلا ، لأنه كائن في تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحدا لا يمكنه دفعه ولا منعه . فالسؤال عنه واستعجاله – وهو واقع ليس له من دافع – يبدو تعاسة من السائل المستعجل ؛ فردا كان أو مجموعة ! وهذا العذاب للكافرين . إطلاقا . فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله (ذي المعارج). . وهو تعبير عن الرفعة والتعالي ، كما قال في السورة الأخرى (رفيع الدرجات ذو العرش) وبعد هذا الافتتاح الذي يقرر كلمة الفصل في موضوع العذاب ، ووقوعه ،

ومستحقيه ، ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، مما يجعل قضاءه أمرا علويا نافذا لا مرد له ولا دافع . . بعد هذا آخذ في وصف ذلك اليوم الذى سيقع فيه هذا العذاب ، والذى يستعجلون به وهو منهم قريب . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبرا جميلا ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة ، لأن السياق يكاد يعين هذا المعنى . وفى هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله . والروح : الأرجح أنه جبريل عليه السلام ، كما سمى بهذا الاسم فى مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لما له من شأن خاص . وعروج الملائكة والروح فى هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر ، إيحاء بأهميته فى هذا اليوم وخصوصيته ، وهم يعرجون فى شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندرى نحن – ولم نكلف أن ندرى – طبيعة هذه المهام ، ولا كيف يصعد الملائكة ، ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفصيلات فى شأن الغيب لا تزيد شيئا من حكمة النص ، وليس لنا إليها من سبيل ، وليس لنا عليها من دليل . فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذى ينشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم وأما (كان مقداره خمسين ألف سنة) فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو مألوف فى التعبير العربى . وقد تعنى حقيقة معينة ، ويكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة من سنى أهل الأرض فعلا وهو يوم واحد ! وتصور هذه الحقيقة قريب جدا الآن . فإن يومنا الأرضى هو مقياس مستمد من دورة الأرض حول نفسها فى أربع وعشرين ساعة . وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق ما يعادل يومنا هذا آلاف المرات . . ولا يعنى هذا أنه المقصود بالخمسين ألف سنة هنا . ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الذهن تصور اختلاف المقاييس بين يوم ويوم ! وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوى خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيدا ، وهو عند الله قريب . ومن ثم يدعو الله نبيه ﷺ إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب (فاصبر صبرا جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) والصبر الجميل هو الصبر المطمئن ، الذى لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك فى صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة ، الراضى بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء ، الموصول بالله المحتسب كل شىء عنده مما يقع به . والخطاب هنا للرسول ﷺ تثبيتا لقلبه على ما يلقى من عنت المناوأة والتكذيب . وتقريرا للحقيقة الأخرى:وهى أن تقدير الله للأمور غير تقدير البشر ؛ ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) ثم يرسم مشاهد اليوم الذى يقع فيه ذلك العذاب الواقع ، الذى يرونه بعيدا ويراه الله قريبا . يرسم مشاهده فى مجالى الكون وأغوار النفس . وهى مشاهد تشى بالهول المذهل المزلزل فى الكون وفى النفس سواء (يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن) والمهل هو ذوب المعادن الكدر كدردى الزيت . والعهن هو الصوف المنتفش . والقرآن يقرر فى مواضع مختلفة أن أحداثا كونية كبرى ستقع فى هذا اليوم ، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة . وهذه النصوص جديرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فمن المرجح عندهم أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية – وهى بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل – فلعلها فى يوم القيامة ستنطفئ كما قال (وإذا النجوم انكدرت) وستبرد حتى تصير معادن سائلة ! وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهى الطبيعة الغازية ! على أية حال هذا مجرد احتمال ينفع الباحثين فى هذه العلوم أن يتدبروه . أما نحن فنقف أمام هذا النص نتملى ذلك المشهد المرهوب ، الذى تكون فيه السماء كذوب المعادن الكدر ، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المنتفش . ونتملى ما وراء هذا المشهد من الهول المذهل الذى ينطبع فى النفوس ، فيعبر عنه القرآن أعمق تعبير(ولا يسأل حميم حميما . يبصرونهم . يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه) إن الناس فى هم شاغل ، لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة فى شعوره لغيره (ولا يسأل حميم حميما) فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لا تتعداه . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض (يبصرونهم) كأنما عمدا وقصدا ! ولكن لكل منهم همه ، ولكل ضمير منهم شغله . فلا يهجس فى خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ، ولا أن يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع . . فما بال(المجرم)؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليود لو يفتدى من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم . . ببنيه . وزوجه . وأخيه ، وعشيرته القريبة التى تؤويه وتحميه . بل إن لهفته على النجاة لتفقده الشعور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يفتدى بمن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . . وهى صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل والرغبة الجامحة فى الإفلات ! صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفزع ، ترتسم من خلال التعبير القرآنى الموحى . وبينما المجرم فى هذه الحال ، يتمنى ذلك المحال ، يسمع ما ييئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أو كل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملأ جميعا حقيقة الموقف وما يجرى فيه (كلا ! إنها

لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) إنه مشهد تطير له النفس شعاعا ، بعد ما أذهلها كرب الموقف وهوله (كلا !) فى ردع عن تلك الأمانى المستحيلة فى الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن فى الأرض جميعا (كلا ! إنها لظى) نار تتلظى وتتحرق (نزاعة للشوى) تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا وهى غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك فى الهول والعذاب عن إرادة وقصد: تدعوا من أدبر وتولى وجمع فأوعى . . تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولا عن الدعوة بجمع المال وحفظه فى الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدى بما فى الأرض كله منها ! والآن وقد انتهى من تصوير الهول فى مشاهد ذلك اليوم ، وفى صورة ذلك العذاب ؛ فإنه يتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية فى مواجهة الشر والخير ، فى حالتى إيمانها وخلوها من الإيمان . ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين (إن الإنسان خلق هلوعا:إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا) لكأنما كل كلمة لمسة من ريشة مبدعة تضع خطا فى ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان بسماته وملامحه الثابتة . هلوعا . . جزوعا عند مس الشر ، يتألم للذعته ، ويجزع لوقعه ، ويحسب أنه دائم لا كاشف له . ويظن اللحظة الحاضرة سرمدا مضروبا عليه ؛ ويحبس نفسه بأوهامه فى قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به . فلا يتصور أن هناك فرجا ؛ ولا يتوقع من الله تغييرا . ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع . ذلك أنه لا يأوى إلى ركن ركين يشد من عزمه ، ويعلق به رجاءه وأمله . . منوعا للخير إذا قدر عليه . يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ، ويحتجنه لشخصه ، ويصبح أسير ما ملك منه ، مستعبدا للحرص عليه ! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه . ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوى القلب من الشعور به . . فهو هلوع فى الحالتين . . هلوع من الشر . هلوع على الخير . . وهى صورة بائسة للإنسان ، حين يخلو قلبه من الإيمان . وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، يفصلها السياق هنا ويحددها (إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون)

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان ، هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد . ومظهر العبودية الخالصة التى يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية فى صورة معينة . وصفة الدوام التى يخصصها بها هنا (الذين هم على صلاتهم دائمون) تعطى صورة الاستقرار والاستطراد ، فهى صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهى صلة بالله مستمرة غير منقطعة . . وقد كان رسول الله ﷺ إذا عمل شيئا من العبادة أثبته – أى داوم عليه – وكان يقول:" وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قل " لملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله ، كما ينبغى من الاحترام لهذا الاتصال . فليس هو لعبة توصل أو تقطع ، حسب المزاج ! (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) وهى الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر . . وهى حق فى أموال المؤمنين . . أو لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون فى أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . وفى هذا تخلص من الشح واستعلاء على الحرص (والذين يصدقون بيوم الدين) وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسى . وهى فى الوقت ذاته ترسم خطا أساسيا فى ملامح النفس المؤمنة . فالتصديق بيوم الدين شطر الإيمان . وهو ذو أثر حاسم فى منهج الحياة شعورا وسلوكا . والميزان فى يد المصدق بيوم الدين غير الميزان فى يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون). وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين . درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير فى جناب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب فى أية لحظة ، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية (والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وهذه تعنى طهارة النفس والجماعة ، فالإسلام يريد مجتمعا طاهرا نظيفا ، وفى الوقت ذاته ناصعا صريحا . مجتمعا تؤدى فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد واضح الأهداف ، يرمى إلى النهوض بواجب إنسانى واجتماعى ، لا لمجرد إرضاء النزوة الحيوانية والشهوة الجنسية ! ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون)فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان – من الإماء حين يوجدن بسبب مشروع ، ويقف الإسلام بمبادئه صريحا نظيفا لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط

الجنسي القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديما وحديثا ! ولا يتدسس ويلتوى فيسميهن حرات وهن إماء فى الحقيقة ! (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وبذلك يغلق الباب فى وجه كل قذارة جنسية ، فى أية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين . فلا يرى فى الوظيفة الطبيعية قذارة فى ذاتها ؛ ولكن القذارة فى الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ورعاية الأمانات والعهود فى الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهى أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختيارا لا اضطرارا . . ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد فى الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم بخلقتهم على هذا العهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود فى معاملات الأرض وقد شدد الإسلام فى الأمانة والعهد وكرر وأكد ، ليقيم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة (والذين هم بشهاداتهم قائمون) وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقا كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التى تقام بقيام الشهادة . فلم يكن بد أن يشدد الله فى القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتمانها عند التقاضى ،ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هو ليربطها بطاعته وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة ، ختمها كذلك بالصلاة (والذين هم على صلاتهم يحافظون) وهى صفة غير صفة الدوام التى ذكرت فى صدر هذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة فى مواعيدها ، وفى فرائضها ، وفى سننها ، وفى هيئتها ، وفى الروح التى تؤدى بها . فلا يضيعونها إهمالا وكسلا . ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها . . وذكر الصلاة فى المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تختم سمات المؤمنين . وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر(أولئك فى جنات مكرمون) ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعيم الحسى ولون من النعيم الروحى . فهم فى جنات . وهم يلقون الكرامة فى هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع التكريم ، جزاء على هذا الخلق الكريم ، الذى يتميز به المؤمنون . ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد الدعوة فى مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذى يكون فيه الرسول ﷺ يتلو القرآن . ثم يتفرقون حواليه جماعات . ويستنكر إسراعهم هذا وتجمعهم فى غير ما رغبة فى الاهتداء بما يسمعون (فما للذين كفروا قبلك مهطعين ؟ عن اليمين وعن الشمال عزين ؟) المهطع هو الذى يسرع الخطى مادا عنقه كالمقود . وعزين جمع عزة كفئة وزنا ومعنى . . وفى التعبير تهكم خفى بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التى تتم بها . وتعجب منهم . وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لا يسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا ، ولكن فقط ليستطلعوا فى دهشة ثم يتفرقوا كى يتحلقوا حلقات يتناجون فى الكيد والرد على ما يسمعون ! ما لهم ؟(أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ؟) وهم على هذه الحال التى لا تؤدى إلى جنة نعيم ، إنما تؤدى إلى لظى مأوى المجرمين ! أعلهم يحسبون أنفسهم شيئا عظيما عند الله ؛ فهم يكفرون ويؤذون الرسول ، ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم فى ميزان الله شىء عظيم ؟! (كلا !) فى ردع وفى تحقير (إنا خلقناهم مما يعلمون)! وهم يعلمون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهين الذى يعرفون ! والتعبير القرآنى المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة فى الوقت ذاته ؛ فيمسح بها كبرياءهم مسحا ، وينكس بها خيلاءهم تنكيسا ، دون لفظة واحدة نابية ، أو تعبير واحد جارح . بينما هذه الإشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير ! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ؟ وهم مخلوقون مما يعلمون ! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه ، وخرق لسنته فى الجزاء العادل باللظى وبالنعيم . واستطرادا فى تهوين أمرهم ، وتصغير شأنهم ، وتنكيس كبريائهم ، يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وأنهم لا يعجزونه فيذهبون دون ما يستحقون من جزاء أليم (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) والأمر ليس فى حاجة إلى قسم . ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب ، يوحى بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعنى مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها فى هذا الكون الفسيح . كما أنها قد تعنى المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض . وهى تتوالى فى كل لحظة . ففى كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفى مغرب . وأيا كان مدلول المشارق والمغارب ، فهو يوحى إلى القلب بضخامة هذا الوجود ، وبعظمة الخالق لهذا الوجود . فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب ، على أنه – سبحانه – قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وأنهم لا يسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟! وعندما يبلغ السياق هذا المقطع ، بعد تصوير هول العذاب فى ذلك اليوم المشهود ؛ وكرامة النعيم للمؤمنين ، وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ليدعهم لذلك اليوم ولذلك العذاب ، ويرسم مشهدهم فيه ، وهو مشهد مكروب ذليل (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم

ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) وفى هذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهديد لهم ، ما يثير الخوف والترقب . وفى مشهدهم وهيئتهم وحركتهم فى ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف . كما أن فى التعبير من التهكم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكانتهم . فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه . . وفى هذا التهكم تناسق مع حالهم فى الدنيا . لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب فى الأعياد ويتجمعون حولها . فها هم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم ! ثم تتم سماتهم بقوله (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) فنلمح من خلال الكلمات سيماهم كاملة ، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة . صورة ذليلة عانية . . لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون (ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) فكانوا يستريبون فيه ويكذبون ويستعجلون ! بهذا يلتئم المطلع والختام ، وتتم هذه الحلقة من حلقات العلاج الطويل لقضية البعث والجزاء ، وتنتهى هذه الجولة من جولات المعركة الطويلة بين التصور الجاهلى والتصور الإسلامى للحياة .

سورة نوح

مكية ، و آياتها ٢٨

هذه السورة كلها تقص قصة نوح – عليه السلام – مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطا من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل . هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة ، الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة ، المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق ، المرقومة في كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون . وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني ، وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل تترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة المستكبرة عن الحق والهدى . ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم من جانب الرسل – صلوات الله عليهم – لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون ، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم ! هذه الصورة التي يعرضها نوح – عليه السلام – على ربه ، وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاما قضاها في هذا الجهد المضني ، والعناء المرهق ، مع قومه المعاندين ،. وهو يقول (رب . إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت:استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا . . !) ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصر (رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا . . .) وهي حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هي الرسالة ! هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله ﷺ وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان ، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول . يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل تترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدها نوح عليه السلام . وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة ، وعلى الأمة المسلمة بعامة ، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض ، وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة ، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك ، وفي وسط كل جاهلية تالية . . ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبى البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالقلة المؤمنة ، وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين . وتعرض على المشركين ليروا فيها مصير أسلافهم المكذبين ؛ ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولا رحيما بهم ، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل ؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعدما استنفد كل الوسائل ، وألهم الدعاء على القوم بما ألهم (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وبإرادة الله وقدره ، وأحداث الحقيقة الواقعة وفق قدر الله . ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

والآن نستعرض قصة نوح فى هذه السورة ، وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً) (٢٨)

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه:أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال:يا قوم:إنى لكم نذير مبين:أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون) تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه) فهذا هو المصدر الذى يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذى صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة . وهو الله الذى خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله ، يردونهم إليه . ونوح – عليه السلام – كان أول هؤلاء الرسل – بعد آدم عليه السلام . وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض ، وممارسته لهذه الحياة ؛ لعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد ، واتخذوا لهم أصناما آلهة . اتخذوها فى أول الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أو مشهودة . ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التى سيرد ذكرها فى السورة . فأرسل الله إليهم نوحا يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس – عليه السلام – سابقا لنوح . ولكن ما ورد فى هذه الكتب لا يدخل فى تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب . والذى يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء فى القرآن ، أن نوحا كان فى فجر البشرية ؛ وأن طول عمره الذى قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما فى دعوته لقومه ، ولا بد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة . . أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحى بأن البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت فى الأجيال التالية . وذلك قياسا على ما نراه من سنة الله فى الأحياء من طول العمر إذا قل العدد ، كأن ذلك للتعويض والتعادل . . والله أعلم بذلك . . إنما هي نظرة فى سنة الله وقياس ! تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده ، ثم تذكر فحوى رسالة نوح فى اختصار وهى الإنذار (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) والحالة التى كان قوم نوح قد انتهوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال – كما تبرز من خلال الحساب الذى قدمه نوح فى النهاية لربه – تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته ، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه ، الإنذار بعذاب أليم ، فى الدنيا أو فى الآخرة ، أو فيهما جميعا . ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ فى اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطماع فى المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ؛ وتأجيل الحساب إلى الأجل المضروب فى الآخرة للحساب ؛ وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التى يدعوهم إليها (قال:يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) يا قوم إنى لكم نذير مبين . . مفصح عن نذارته ، مبين عن حجته ، لا يتمتم ولا يجمجم ، ولا يتلعثم فى دعوته ، ولا يدع لبسا ولا غموضا فى حقيقة ما يدعو إليه ، وفى حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته . وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) عبادة لله وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذى يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك . وفى

هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفترق بعد ذلك فى التفصيل والتفريغ . وفى مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله ، وللوجود الإنسانى فى التفصيل والتفريع . وعبادة الله وحدة منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم فى الكون وفى حياة الناس . ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور ، فيقوم منهج للحياة خاص . منهج ربانى مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية ، وإلى القيم التى يقررها الله للأحياء والأشياء . وتقوى الله . هى الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك ، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء فى تنفيذه . كما أنها هى مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله ، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة . وطاعة الرسول . هى الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقى الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية ، وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة ! فهذه الخطوط العريضة التى دعا نوح إليها قومه فى فجر البشرية هى خلاصة دعوة الله فى كل جيل بعده ، وقد وعدهم عليها ما وعد الله به التائبين الثائبين (يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هى المغفرة والتخليص من الذنوب التى سلفت ؛ وتأخير الحساب إلى الأجل المضروب له فى علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ فى الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال ، ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضروب حتمى يجىء فى موعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا . . وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون) كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريرا لكل أجل يضربه الله ؛ ليقر فى قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم – لو أطاعوا وأنابوا – إلى يوم الحساب وراح نوح – عليه السلام – يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه ، بلا مصلحة له ، ولا منفعة ؛ ويحتمل فى سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء . ألف سنة إلا خمسين عاما . وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ؛ ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد فى نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذى كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ما صنع وما لاقى . وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب فى نهاية المطاف ، إلى الجهة الوحيدة التى يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان . إلى الله (قال:رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ؛)هذا ما صنع نوح وهذا ما قال ؛ عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير فى نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذى لا ينقطع (إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) ولا يمل ولا يفتر ولا ييئس أمام الإعراض والإصرار (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) فرارا من الداعى إلى الله . مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور . وهو لا يطلب أجرا على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال ! فإذا لم يستطيعوا الفرار ، لأن الداعى واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصروا على الضلال ، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى (وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا) وهى صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ؛ وإصرارهم هم على الضلال . وتبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز فى وضع الأصابع فى الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولى الكامل ، وهو يقول إنهم (جعلوا أصابعهم فى آذانهم) وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة ، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها فى عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها فى آذانهم ضمانا لعدم تسرب الصوت إليها بتاتا ! وهى صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار ! ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة . . اتبع نوح – عليه السلام – كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة (ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) وفى أثناء ذلك كله أطمعهم فى خير الدنيا والآخره . أطمعهم فى الغفران إذا استغفروا ربهم فهو – سبحانه – غفار للذنوب (فقلت:استغفروا ربكم إنه كان غفارا) وأطمعهم فى الرزق الوفير الميسور من أسبابه التى يعرفونها ويرجونها وهى المطر الغزير ، الذى تنبت به الزروع ، وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الاخر من الذرية التى يحبونها – وهى البنين – والأموال التى يطلبونها ويعزونها (يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفى القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء . ونمضى مع نوح فى جهاده النبيل الطويل . فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله فى أنفسهم وفى الكون من حولهم ، وهو يعجب من

إستهتارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الإستهتار (ما لكم لا ترجون لله وقارا ؟ وقد خلقكم أطوارا ؟) والأطوار التى يخاطب بها قوم نوح فى ذلك الزمان لا بد أن تكون أمرا يدركونه ، أو أن يكون أحد مدلولاتها مما يملك اولئك القوم فى ذلك الزمان أن يدركوه ، ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له فى نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة . والذى عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل . . وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التى تسقط قبل اكتمالها فى الأرحام يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار. كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد . . ولا نقيدهما . وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر فى أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطوارا ، ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون فى أنفسهم توقيرا للجليل الذى خلقهم . . وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق !كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ؟ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ؟) والسماوات السبع لا يمكن حصرها فى مدلول مما تقول به الفروض العلميه فى التعريف بالكون . فهى كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم – كما علمه الله – أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس ، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ما هو ؟ فلم يكن ذلك مطلوبا منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشىء فى هذا الشأن . . وهذا التوجيه يكفى لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة . . وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر فى نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث (والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر فى القرآن فى صور شتى . وهو يشير فى هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات فى مواضع متفرقة . وأخيرا وجه نوح قلوب قومه إلى نعمة الله عليهم فى تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم (والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا) وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة ، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهدة – حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروبا وفجاجا ، كما جعل فى سهولها من باب أولى . وفى سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ؛ ويبتغون من فضل الله ، ويتعايشون فى يسر وتبادل للمنافع والأرزاق . هكذا سلك نوح – أو حاول أن يسلك – إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل فى دأب طويل ، وفى صبر جميل ، وفى جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاما . ثم عاد إلى ربه الذى أرسله إليهم ، يقدم حسابه ، ويبث شكواه ، فى هذا البيان المفصل ، وفى هذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة ، وهى حلقة واحدة فى سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية ! فماذا كان بعد كل هذا البيان ؟ (قال نوح:رب إنهم عصونى ، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) رب إنهم عصونى ! بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه . وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء . . بعد هذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة ، التى تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان . ممن (لم يزده ماله وولده إلا خسارا) فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال (ومكروا مكرا كبارا) مكرا متناهيا فى الكبر . مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق فى وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التى تخبط فيها القوم . وكان من مكرهم تحريض الناس على الاستمساك بالأصنام التى يسمونها آلهة (وقالوا:لا تذرن آلهتكم) بهذه الإضافة (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة فى قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها فى قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز (ولا تذرن ودا ، ولا سواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسرا) وهى أكبر آلهتهم التى ظلت تعبد فى الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية . وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناما ، تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة فى كل جاهلية ؛ وتجمع حواليها الأتباع ، وتهيج فى قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كى توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذى يكفل لها الطاعة والانقياد (وقد أضلوا كثيرا) ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء !! للصد عن دعوة الله ، وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة ، بالمكر الكبار ، والكيد والإصرار ! هنا انبعث من قلب النبى الكريم نوح – عليه السلام – ذلك الدعاء على الظالمين الضالين المضلين ، الماكرين الكائدين: (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلا ، وعانى كثيرا ، وانتهى – بعد كل وسيلة – إلى اقتناع بأن لا

خير فى القلوب الظالمة الباغية العاتية ؛ وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة . وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح – عليه السلام – يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون فى الدنيا والآخرة جميعا ! فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذى لا تغيير فيه (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا نارا . والتعقيب بالفاء مقصود هنا ، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ؛ والفاصل الزمنى القصير كأنه غير موجود ، لأنه فى موازين الله لا يحسب شيئا . فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم فى الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة . وقد يكون هو عذاب القبر فى الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة ! وفى آيتين اثنتين قصيرتين ينتهى أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء . . ولا يفصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطوفان الذى أغرقهم . لأن الظل المراد إبقاؤه فى هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع ، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق فى حرف الفاء ! على طريقة القرآن فى إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن فى ظلال السياق لا نتعداها إلى تفصيل قصة الإغراق . . ولا الإحراق . . ! ثم يكمل دعاء نوح الأخير ؛ وابتهاله إلى ربه فى نهاية المطاف (وقال نوح:رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذى انتهى إليه القوم فى زمانه . وأحيانا لا يصلح أى علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين ، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيا ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهى الحقيقة التى عبر عنها نوح ، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازا كاملا لا يبقى منهم ديارا – أى صاحب ديار – فقال (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) ولفظة (عبادك) توحى بأنهم المؤمنون . فهى تجىء فى السياق القرآنى فى مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله فى عافية ! ثم إنهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيها الكفار ، وتوحى بالكفر من الناشئة الصغار ، بما يطبعهم به الوسط الذى ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور ، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التى صنعوها . وهى الحقيقة التى أشار إليها قول النبى الكريم نوح عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) فهم يطلقون فى جو الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعا ونظما وتقاليد ، ينشأ معها المواليد فجارا كفارا ، كما قال نوح . . من أجل هذا دعا نوح – عليه السلام – دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ؛ وجرف العواثير التى لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير . وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التى جعلها خاتمة دعائه وهو يقول (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) أى هلاكا ودمارا ، إلى جانب هذا كان الإبتهال الخاشع الودود (رب اغفر لى ولوالدى ، ولمن دخل بيتى مؤمنا ، وللمؤمنين والمؤمنات . . .) ودعاء نوح النبى لربه أن يغفر له . . هو الأدب النبوى الكريم فى حضرة الله العلى العظيم . . أدب العبد فى حضرة الرب . العبد الذى لا ينسى أنه بشر ، وأنه يخطئ ، وأنه يقصر ، مهما يطع ويعبد ، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله ، كما قال أخوه النبى الكريم محمد ﷺ وهذا هو الاستغفار الذى دعا قومه العصاة الخاطئين إليه ، فاستكبروا عليه . . وهو هو النبى يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب ! ودعاؤه لوالديه . . هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين – كما نفهم من هذا الدعاء – ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع فى شأن ولده الكافر الذى أغرق مع المغرقين [كما جاء فى سورة هود] ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمنا . . هو بر المؤمن بالمؤمن ؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه ، وتخصيص الذى يدخل بيته مؤمنا ، لأن هذه كانت علامة النجاة ، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه فى السفينة . ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات . . هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة فى كل زمان ومكان . وشعوره بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن . وهو السر العجيب فى هذه العقيدة التى تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق ، والشوق العميق ، على تباعد الزمان والمكان . السر الذى أودعه الله هذه العقيدة ، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة . . وفى مقابل هذا الحب للمؤمنين ، كان الكره للظالمين (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) وتختم السورة ، وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبى الكريم نوح عليه السلام . وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين . . وقد تركت هذه وتلك فى القلب حبا لهذا الروح الكريم وإعجابا بهذا الجهاد النبيل ، وزادا للسير فى هذا الطريق الصاعد ، أيا كانت المشاق والمتاعب . وأيا كانت التضحيات والآلام . فهو الطريق الوحيد الذى ينتهى بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها فى هذه الأرض . حين ينتهى بها إلى الله ، العلى الأعلى ، الجليل العظيم . .

سورة الجن

مكية ، و آياتها ٢٨

هذه السورة تبده الحس – قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها – بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها . . إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ، قوية التنغيم ، ظاهرة الرنين ؛ مع صبغة من الحزن فى إيقاعها ، ومسحة من الأسى فى تنغيمها ، وطائف من الشجى فى رنينها ، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها ، ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة فى الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ هذا الخطاب الذى يثير العطف على شخص الرسول فى قلب المستمع لهذه السورة ، عطفا مصحوبا بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء فى أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ (قل:إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا . . قل:إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا . . قل:إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ، إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا . . قل:إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا) وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد . وهى حقائق ذات ثقل ووزن فى الحس والتصور ؛ والاستجابة لها تغشى الحس بحاله من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنة الشجى المتمشية فى إيقاع السورة الموسيقى ! وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ ، توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المسحة الغالبة عليها . فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تبده الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجدها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات . إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون فى أمرها رجما لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحيانا أن محمدا ﷺ يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ! فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها ويجادلون فيها ؛ وبتكذيب دعواهم فى استمداد محمد من الجن شيئا . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد ﷺ فهالهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون فى روعة المأخوذ ، ووهلة المشدوه ، عن هذا الحادث العظيم ، الذى شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ! . . وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتما . ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفى نفوس الناس جميعا من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب فى موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال: أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه . ثم بات آمنا ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبؤون بما يتنبؤون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسبا ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة ! والاعتقاد فى الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشيا فى كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا !!! وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن فى القديم ، وما تزال . نجد فى الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلا ، يصفون أى حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة . وبين الإغراق فى الوهم ، والإغراق فى الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم ، فالجن لهم حقيقة موجودة فعلا وهم كما يصفون أنفسهم هنا (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون (وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) وهم قابلون للهداية من الضلال ، مستعدون لإدراك القرآن سماعا وفهما وتأثرا (قل:أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا:إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى

الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا) وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان و الكفر فيهم (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطبا) وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) وأنهم لا يعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسماء (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وأنهم لا صهر بينهم وبين الله – سبحانه وتعالى – ولا نسب (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا) وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم فى هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقا ، فلا أدرى علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة ففيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضآلة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشىء ؟ ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا فى هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفى وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغى تلقى نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فما يقوله هو كلمة الفصل فى مثل هذا الموضوع . والسورة التى بين أيدينا – بالإضافة إلى ما سبق – تساهم مساهمة كبيرة فى إنشاء التصور الإسلامى عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه الخلائق المنوعة . وفى مقالة الجن ما يشهد بوحدانية الله ، ونفى الصاحبة والولد ، وإثبات الجزاء فى الآخرة ؛ وأن أحدا من خلق الله لا يعجزه فى الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته ، فلا يلاقى جزاءه العادل . وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول ﷺ من الخطاب (قل:إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا) (قل:إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة . كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هى أسمى درجة يرتفع إليها البشر (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول ﷺ من خطاب (قل:إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) والغيب موكول لله وحده ؛ لا تعرفه الجن (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا). ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها (قل:إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . .) ثم إن هناك ارتباطا بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله فى العباد:(وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه . ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) وهذه الحقيقة تؤلف جانبا من التصور الإسلامى للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله . وهكذا تمتد إيحاءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة ، وهى سورة لا تتجاوز الثمانى والعشرين آية ، نزلت فى حادثة معينة ومناسبة خاصة . . فأما هذا الحادث الذى أشارت إليه السورة . حادث استماع نفر من الجن للقرآن . فتختلف بشأنه الروايات . وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول ﷺ من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللئيم العنيد الذى واجهه به كبراء ثقيف ، وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجيبا حقا من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم ، وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية ما فيه . . وأيا كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم فى دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين . فلنمض مع هذا كله كما يعرضه القرآن الكريم .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ

أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلَا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) (٢٨)

(قل:أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) والنفر ما بين الثلاثة والتسعة كالرهط . وقيل كانوا سبعة . وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبى ﷺ بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه . . كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخبارا عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول ﷺ ولكن الله أطلعه عليه . وقد تكون هذه هى المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبى ﷺ فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته ﷺ سورة الرحمن "أخرجه الترمذى بإسناده – عن جابر رضى الله عنه قال:"خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها ، فسكتوا . فقال:" لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردودا منكم . كنت كلما أتيت على قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) قالوا:لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد " فإن هذه الآيات – كالسورة – تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ، مفاجأه أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت فى كيانهم دفعة عنيفة من التأثر امتلأ بها كيانهم كله وفاض ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعا ، ولا تملك عليه صبرا ، قبل أن تفيضه على الآخرينفى هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانفعال ، وبالجد والاحتفال فى نفس الأوان ، وهى حالة من يفاجأ أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعا إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين فى حماسة واندفاع ، وفى جد كذلك واحتفال ! (إنا سمعنا قرآنا عجبا) فأول ما بدهم منه أنه (عجب) غير مألوف ، وأنه يثير الدهش فى القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ، ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق . . عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غلابة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب . . عجب ! فعلا . يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون ! (يهدى إلى الرشد) وهذه هى الصفة الثانية البارزة كذلك فى هذا القرآن ، التى أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها فى قلوبهم . . وكلمة الرشد فى ذاتها ذات دلاله واسعة المدى . فهو يهدى إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشد تلقى ظلا آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتى البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشئ حالة ذاتية فى النفس تهتدى بها إلى الخير والصواب (فامنا به) وهى الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته . . يعرضها الوحى على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفى الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن (ولن نشرك بربنا أحدا) فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة ، الإيمان الذى ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك (وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) والجد: هو الحظ والنصيب . وهو القدر والمقام . وهو العظمة والسلطان . . وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالى منها فى الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله – سبحانه – وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة – أى زوجة – وولدا بنين أو بنات ! وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسبيح لله وتنزيه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لو كان يشبه أن يكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، ممن زعموا أن لله ولدا سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير !(وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعدما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقا ولا صوابا ، وأن قائليه إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ، وهم يعللون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحدا يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن . فهم يستعظمون ويستهولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . وهذه الإنتفاضة من مس الحق ، جديرة بأن تنبه قلوبا كثيرة مخدوعة فى كبراء قريش ،

وزعمهم أن لله شركاء أو صاحبة وولدا . وأن تثير في هذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد ﷺ وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء في مقالات السفهاء من الكبراء (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفا في الجاهلية – وما يزال متعارفا إلى اليوم في بيئات كثيرة – من أن للجن سلطانا على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضر ، وأنهم محكمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات . مما كان يقتضي القوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش ، أن يستعيذوا بسيد الوادي من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين ! والشيطان مسلط على قلوب بني آدم – إلا من اعتصم بالله فهو في نجوة منه – وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه . فهو عدو له . إنما يرهقه ويؤذيه . والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله ، طمعا في نفع ، أو دفعا لضر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة . . . وهذا هو الرهق في أسوأ صوره . . الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة ! (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون:إنهم كانوا يظنون – كما أنكم تظنون – أن الله لن يبعث رسولا . ولكن ها هو ذا قد بعث رسولا ، بهذا القرآن الذي يهدي إلى الرشد . . أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب – كما ظننتم – فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ما وعدهم الرسول ﷺ من أمرها ، لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها . ويمضي الجن في حكاية ما لقوه وما عرفوه من شأن هذه الرسالة في جنبات الكون ، وفي أرجاء الوجود ، وفي أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل إدعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر(وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ؟) وهذه الوقائع التي حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحي بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة – ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى عليه السلام – كانوا يحاولون الإتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شؤون الخلائق في الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذا لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول . . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئا ، ولا ضرورة لتقصيها . إنما هي جملة هذه الحقيقة وفحواها . وهذا النفر من الجن يقول:إن استراق السمع لم يعد ممكنا ، وإنهم حين حاولوه الآن – وهو ما يعبرونعنه بلمس السماء – وجدوا الطريق إليه محروسا بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلنون أنهم لا يدرون شيئا عن الغيب المقدر للبشر (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض:قدر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال ، أم قدر لهم الرشد – وهو الهداية – وقد جعلوها مقابلة للشر . فهي الخير ، وعاقبتها هي الخير . بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؛ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال . ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم في ربهم وقد آمنوا به . وعن ظنهم بعاقبة من يهتدي ومن يضل ، و أن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان – إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله – وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين – على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهذا ناشئ عن مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة ! (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك) . ويصف حالهم بصفة عامة (كنا طرائق قددا) أي لكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعه عن طريقة الفريق الآخر . ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ، ولن نعجزه هربا) فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه – سبحانه – والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره . فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض ، ولا هم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب ، وضعف المخلوق أمام الخالق . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب . ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى ، وقد قرروه من قبل ، ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) كما ينبغي لكل من يسمع الهدى . وهم سمعوا القرآن . ولكنهم يسمونه هدى كما هي حقيقته ونتيجته . ثم يقررون ثقتهم في ربهم ، وهي ثقة المؤمن في مولاه (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) وهي ثقة المطمئن إلى عدل الله ، وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان وحقيقته . . فالله – سبحانه – عادل ، ولن

يبخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته . ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال ، والجزاء على الهدى والضلال(وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) والقاسطون: هم الجائرون المجانبون للعدل والصلاح . وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقا يقابل المسلمين . وفى هذا إيماءة لطيفة بليغة المدلول . فالمسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط: الجائر المفسد (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) والتعبير بلفظ (تحروا) يوحى بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة فى طلب الرشد والاهتداء – ضد الغى والضلال – ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياقا بغير إدراك . ومعناه أنهم وصلوا فعلا إلى الصواب حين اختاروا الإسلام . . وهو معنى دقيق وجميل (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطبا لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالا ، كما تتلظى النار بالحطب . . وما ينطبق على الجن مما بينوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحى بلسان نبيهم . . وإلى هنا كان الوحى يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ؛ ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لا بألفاظها: (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) يقول الله – سبحانه – إنه كان من مقالة الجن عنا: ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماءا موفورا نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء . . (لنفتنهم فيه) ونبتليهم أيشكرون أم يكفرون . وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم فى هذه النقطة ، يزيد مدلولها توكيدا بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه اللفتات كثير فى الأسلوب القرآنى ، لإحياء المعانى وتقويتها وزيادة الانتباه إليها . وهذه اللفتة تحتوى جملة حقائق ، تدخل فى تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى:هى الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء واغدوداقه . وما تزال الحياة تجرى على خطوات الماء فى كل بقعة . وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذى انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هى المصدر الوحيد للرزق والرخاء . ولكن الماء هو الماء فى أهميته العمرانية . .

والحقيقة الثانية التى تنبثق من نص هذه الآية:هى أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة . ونبلوكم بالشر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى . . فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتماسكون لها ، بحكم ما تثيره فى النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ؛ ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد فى الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسى ويلهى ، ويرخى الأعضاء وينيم عناصر المقاومة فى النفس .

والحقيقة الثالثة إن الإعراض عن ذكر الله ، الذى قد تنتهى إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للعذاب (يسلكه عذابا صعدا) توحى بالمشقة مذ كان الذى يصعد فى المرتفع يجد مشقة فى التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد . فجاء فى موضع: فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . وجاء فى موضع: سأرهقه صعودا . وهى حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !

والآية الثالثة فى السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) وهى فى الحالتين توحى بأن السجود – أو مواضع السجود وهى المساجد – لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار . وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ؛ وقد يكون بالإلتجاء إلى سواه ؛ وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله . وكذلك الآية التالية (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) أى متجمعين متكتلين عليه ، حين قام يصلى ويدعو ربه . والصلاة معناها فى الأصل الدعاء . وعندما تنتهى حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن ، وعن هذا الأمر ، الذى فاجأ نفوسهم ، وهز مشاعرهم وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ؛ وعلى ما أحدثه من آثار فى نسق الكون كله ؛ وعلى الجد الذى يتضمنه ، والنواميس التى تصاحبه . عندما

ينتهى هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ فى إيقاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليغ ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ ، والتجرد كذلك من كل دعوى فى الغيب أو فى حظوظ الناس ومقادرهم . . وذلك كله فى جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب ما فيه من جد ومن صرامة (قل:إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا) قل يا محمد للناس (إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا) وهذا الإعلان يجىء بعد إعلان الجن لقومهم (ولن نشرك بربنا أحدا) فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهى كلمة الإنس والجن ، يتعارفان عليها . فمن شذ عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين (قل:إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) يؤمر الرسول ﷺ أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفض يديه من كل ادعاء لشىء هو من خصائص الله الواحد الذى يعبده ولا يشرك به أحدا . فهو وحده الذى يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشد ، وهو الهداية ، كما جاء التعبير فى مقالة الجن من قبل (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) فيتطابق القولان فى اتجاههما وفى ألفاظهما تقريبا ، وهو تطابق مقصود فى القصة والتعقيب عليها ، كما يكثر هذا فى الأسلوب القرآنى . . وبهذا وذلك يتجرد الجن – وهو موضع الشبهة فى المقدرة على النفع والضر – ويتجرد النبى ﷺ وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيمانى على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح (قل:إنى لن يجيرنى من الله أحدا ولن أجد من دونه ملتحدا . إلا بلاغا من الله ورسالاته) وهذه هى القولة الرهيبة ، التى تملأ القلب بجدية هذا الأمر . . أمر الرسالة والدعوة . . والرسول ﷺيؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة . . يا للرهبة ! ويا للروعة ! ويا للجد ! (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا) فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصى . بعد التلويح بالجد الصارم فى التكليف بذلك البلاغ . وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون – إما فى الدنيا وإما فى الآخرة (من أضعف ناصرا وأقل عددا) وأى الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل ! ونعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون (وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا) فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجىء فى أوانه وموعده المطلوب ! ثم يؤمر الرسول ﷺ أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضا (قل:إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا)إن الدعوة ليست من أمره ، وليس له فيها شىء ، إلا أن يبلغها قياما بالتكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان – الذى لا يبلغه إلا أن يبلغ ويؤدى . وإن ما يوعدونه على العصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعدا . فما يدرى أقريب هو أم بعيد يجعل له الله أمدا ممتدا . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الأخرة . فكله غيب فى علم الله ؛ وليس للنبى من أمره شىء ، ولا حتى علم موعده متى يكون ! والله – سبحانه – هو المختص بالغيب دون العالمين (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) ويقف النبى ﷺ متجردا من كل صفة إلا صفة العبودية فهو عبد الله . وهذا وصفه فى أعلى درجاته ومقاماته . . ويتجرد التصور الإسلامى من كل شبهة ومن كل غبش . والنبى ﷺ يؤمر أن يبلغ فيبلغ:(قل:إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا). . هناك فقط استثناء واحد . . وهو ما يأذن به الله من الغيب ، فيطلع عليه رسله ، فى حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان ما يوحى به إليهم إلا غيبا من غيبه ، يكشفه لهم فى حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويرعاهم وهم يبلغونه ، ويراقبهم كذلك . . ويؤمر الرسول ﷺ أن يعلن هذا فى صورة جادة رهيبة (إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شىء عددا) فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحى: موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه فى اللوح المحفوظ . . إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان فى ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم . وفى الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ والرقابة . يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغه ، ومن وسوسة النفس وتمنيتها ، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يعترض البشر من النقص و الضعف والتعبير الرهيب (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدى هذا الأمر العظيم (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم). . والله يعلم . ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه فى عالم الواقع (وأحاط بما لديهم) فما من شىء فى نفوسهم وفى حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو فى قبضة العلم لا يند منه شىء (وأحصى كل شىء عددا) لا يقتصر على ما لدى الرسل ؛ بل يحيط بكل شىء إحصاء وعدا ، وهو أدق الإحاطة والعلم ! وتصور هذه الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل ما لديه . وكل ما حوله . وهو يتلقى التكليف جنديا لا يملك إلا أن يؤدى . ويمضى فى طريقه ليس متروكا لنفسه ، ولا متروكا لضعفه ، ولا متروكا لهواه ،

سورة المزمل

مكية ، و آياتها ٢٠

يروى فى سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة تدبر كيدها للنبى ﷺ وللدعوة التى جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاغتم له ؛ والتف بثيابه وتزمل ونام مهموما . فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا . . الخ) وتأخر شطر السورة الثانى من قوله تعالى (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل . . .) إلى آخر السورة . تأخر عاما كاملا . حين قام رسول الله ﷺ وطائفة من الذين معه ، حتى ورمت أقدامهم ، فنزل التخفيف فى الشطر الثانى بعد اثنى عشر شهرا .وشطر السورة الأول يمضى على إيقاع موسيقى واحد . ويكاد يكون على روى واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخى وقور جليل ؛ يتمشى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأهوال المتتابعة التى يعرضها السياق . . هول القول الثقيل ، وهول التهديد المروع (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) وهول الموقف الذى يتجلى فى مشاهد الكون وفى أغوار النفوس (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ، وكان وعده مفعولا) فأما الآية الأخيرة الطويلة التى تمثل شطر السورة الثانى ؛ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول ﷺ وطائفة من الذين معه . والله يعده ويعدهم بهذا القيام لما يعدهم له ! فنزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التى قدرها فى علمه عليهم . . أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهى طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار ، وهى الميم وقبلها مد الياء (غفور رحيم) والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوى الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذبين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! وتنتهى بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويح برحمة الله ومغفرته (إن الله غفور رحيم) وهى تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذى بذله ذلك الرهط المختار من الرجال ليرد البشرية الضالة إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد فى ضمائرها ؛ وهو متجرد من كل ما فى الحياة من عرض يغرى ، ولذاذة تلهى ، وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذه الفارغون !

والآن نستعرض السورة فى نصها القرآنى الجميل .

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (١٢) وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٢٠)

(يا أيها المزمل . . قم . .) إنها دعوة السماء ، وصوت الكبير المتعال . . قم . . قم للأمر العظيم الذى ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة . . قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد . وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه ﷺ من دفء الفراش ، فى البيت الهادئ والحضن الدافئ . لتدفع به فى الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب فى ضمائر الناس وفى واقع الحياة سواء .إن الذى يعيش لنفسه قد يعيش مستريحا ، ولكنه يعيش صغيرا ويموت صغيرا . فأما الكبير الذى يحمل هذا العبء الكبير . . فماله والنوم ؟ وماله والراحة ؟ وماله والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ؟! ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره ، فقال لخديجة – رضى الله عنها – وهى تدعوه أن يطمئن وينام:" مضى عهد النوم يا خديجة " ! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق ! (يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة . . قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل . . قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تغن ولا تطر ولا تخلع فى التنغيم .وقد صح عن وتر رسول الله ﷺ بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولكنه كان يقضى فى هذه الركعات ثلثى الليل إلا قليلا ، يرتل فيه القرآن ترتيلا (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف . والقرآن فى مبناه ليس ثقيلا فهو ميسر للذكر . ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلب: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه . وإن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها ؛ والإتصال بالله ، وتلقى فيضه ونوره ، والأنس بالوحدة معه والخلوة إليه ، وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو يتنزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود فى لحظة الترتيل بلا لفظ بشرى ولا عبارة ؛ واستقبال إشعاعاته وإيحاءاته وإيقاعاته فى الليل الساجى . . إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ والجهد المرير الذى ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة فى كل جيل ! وينير القلب فى الطريق الشاق الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه فى الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) (ناشئة الليل) هى ما ينشأ منه بعد العشاء ؛ والآية تقول: (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ) أى أجهد للبدن (وأقوم قيلا) أى أثبت فى الخير [كما قال مجاهد] فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأ وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثار للأنس به ، ومن ثمفإنها أقوم قيلا ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب فى القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا ، قد لا يجدها فى صلاة النهار وذكره . . والله الذى خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأى الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيؤا ، وأى الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه .والله – سبحانه – وهو يعد عبده ورسوله محمدا ﷺ ليتلقى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسيم ، اختار له قيام الليل ، لأن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا . ولأن له فى النهار مشاغله ونشاطه الذى يستغرق كثيرا من الطاقة والالتفات (إن لك فى النهار سبحا طويلا) فلينقض النهار فى هذا السبح والنشاط ، وليخلص لربه فى الليل ، يقوم له بالصلاة والذكر(واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) وذكر اسم الله ، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة المسبحة المئوية أو الألفية ! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلى عما عدا الله ، والاتجاه الكلى إليه بالعبادة والذكر ، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر .ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله ، ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله ، يتجه إليه من يريد الاتجاه (رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلا) فهو رب كل متجه . . رب المشرق والمغرب . . وهو الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو . فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة فى هذا الوجود ؛ والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود ، ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل . وأن يخلى بينه وبين المكذبين ! ويمهلهم قليلا . فإن لدى الله لهم عذابا وتنكيلا:وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة فى بدء البعثة ، فإن هذا الشوط الثانى منها يكون قد نزل متأخرا بعد الجهر بالدعوة ، وظهور المكذبين والمتطاولين ، وشدتهم على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين . فأما إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نالوعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر ، بعد التوجيه إلى القيام والذكر ، وهما كثيرا ما يقترنان فى صدد تزويد القلب بزاد هذه الدعوة فى طريقها الشاق الطويل ، سواء طريقها فى مسارب الضمير أو طريقها فى جهاد المناوئين ، وكلاهما شاق عسير . . نجد التوجيه إلى الصبر (واصبر على ما يقولون) مما يغيظ ويحنق (واهجرهم هجرا جميلا) لا عتاب معه ولا غضب ، ولا هجر فيه ولا مشادة . وكانت هذه هى خطة الدعوة فى مكة –

وبخاصة فى أوائلها . . كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير . والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب ، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ، مرة ومرة ومرة ؛ ولعباده المؤمنين برسله . وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده ، والصبر جنته وسلاحه ، والصبر ملجؤه وملاذه . فهى جهاد . . جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها . . وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتدبيرهم وكيدهم وأذاهم . ومع النفوس عامة وهى تتفصى من تكاليف هذه الدعوة ، وتتفلت ، وتتخفى فى أزياء كثيرة وهى تخالف عنها ولا تستقيم عليها . والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله ، والذكر وهو قرين الصبر فى كل موضع تقريبا !(اصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) وخل بينى وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل (وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا) كلمة يقولها الجبار القهار القوى المتين (ذرنى والمكذبين) والمكذبون بشر من البشر ، والذى يتهددهم هو الذى أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض "ب :كن" ولا تزيد !ذرنى والمكذبين . . فهى دعوتى . وما عليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرهم هجرا جميلا . وسأتولى أنا حربهم ، فاسترح أنت من التفكير فى شأن المكذبين !إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار ، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة (أولى النعمة) مهما يكن من جبروتهم فى الأرض على أمثالهم من المخاليق !(ومهلهم قليلا) ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلا . وإن هى إلا يوم أو بعض يوم فى حساب الله . وفى حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها فى يوم القيامة ساعة من نهار ! فهى قليل أيا كان الأمد ، ولو مضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذى يمهل قليلا ويأخذ تنكيلا (إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما) والأنكال – هى القيود – والجحيم والطعام ذو الغصة الذى يمزق الحلوق والعذاب الأليم . . كلها جزاء مناسب (لأولى النعمة)! الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا المنعم ، فاصبر يا محمد عليهم صبرا جميلا وخل بينى وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيودا تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحيما تجحمهم وتصليهم ، وطعاما تلازمه الغصة فى الحلق ، وعذابا أليما فى يوم مخيف . . .ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) فها هى ذى صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض فى أكبر مجاليها . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف ! ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع ، إلى المكذبين أولى النعمة ، يذكرهم فرعون الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) هكذا فى اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعا ، بعد مشهد الأرض والجبال وهى ترتجف وتنهار . فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعيب ؟ (فكيف تتقون – إن كفرتم – يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به ؟) وإن صورة الهول هنا لتنشق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صوره فى الطبيعة الصامتة ، وفى الإنسانية الحية . فى مشاهد ينقلها السياق القرآنى إلى حس المخاطبين كأنها واقعة . . ثم يؤكدها تأكيدا (كان وعده مفعولا) واقعا لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان !وأمام هذا الهول الذى يتمثل فى الكون كما يتمثل فى النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة . . طريق الله (إن هذه تذكره ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل المريب ، إلى هذا الهول العصيب !وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول ﷺ والقلة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين . إذ يحسون أن ربهم معهم ، يقتل أعدائهم وينكل بهم . وإن هى إلا مهلة قصيرة ، إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر ، حينما يجىء الأجل ويأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .إن الله لا يدع أولياءه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين ، والآن يجىء شطر السورة الثانى فى آية واحدة طويلة ، نزلت بعد مطلع السورة بعام على أرجح الأقوال ، إنها لمسة التخفيف الندية ، تمسح على التعب والنصب والمشقة . ودعوة التيسير الإلهى على النبى والمؤمنين . وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لنبيه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذى سيواجهه طوال ما بقى له من الحياة . هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه . وفى الحديث مودة وتطمين: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت فى ميزان الله . . إن ربك يعلم أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع ؛ وتركت دفء الفراش فى الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء المضاجع المغرى وسمعت نداء الله . . إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك (والله يقدر الليل والنهار) فيطيل من هذا ويقصر من ذاك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه . وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة . وهو لا يريد أن يعنتكم ولا أن يشق عليكم . إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا عن أنفسكم

، وخذوا الأمر هينا: فاقرؤوا ما تيسر من القرآن . . فى قيام الليل بلا مشقة ولا عنت . . وهناك – فى علم الله – أمور تنتظركم تستنفذ الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل (علم أن سيكون منكم مرضى)"يصعب عليهم هذا القيام" (وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله) فى طلب الرزق والكد فيه ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة . والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ! (وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) فقد علم الله أن سيأذن لكم فى الإنتصار من ظلمكم بالقتال ، ولإقامة راية للإسلام فى الأرض يخشاها البغاة ! فخففوا إذن على أنفسكم (فاقرأوا ما تيسر منه) بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد . . واستقيموا على فرائض الدين (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله يبقى لكم خيره (وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطئ مهما جد وتحرى الصواب (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) إنها لمسة الرحمة والود والتيسير والطمأنينة تجىء بعد عام من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين ، فجعل قيام الليل لهم تطوعا لا فريضة . أما رسول الله ﷺ فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجى ربه ، فى خلوة من الليل وهدأة ، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه . فقد كان قلبه ﷺ دائما مشغولا بذكر الله ، متبتلا لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شىء إلا من ربه . على ثقل ما يحمل على عاتقه ، وعلى مشقة ما يعانى من الأعباء الثقال . .

سورة المدثر

مكية ، و آياتها ٥٦

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة "المزمل" . فهناك روايات بأنها هى أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبى ﷺ غير أن النظر فى النص القرآنى ذاته يوحى بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى (ولربك فاصبر) ربما يكون قد نزل مبكرا فى أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول ﷺ للنهوض بالتبعة الكبرى ، ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهارا وكافة ، مما سيترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسى سابق . . ويكون ما تلا ذلك فى سورة المدثر ، وما تلا هذا فى سورة المزمل ، قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبى ﷺ بالاتهام الكاذب والكيد اللئيم ! وتضمنت السورة تهديدا ووعيدا للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء (فإذا نقر فى الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير . ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا) وتعين سورة المدثر أحد المكذبين بصفته ، وترسم مشهدا من مشاهد كيده – على نحو ما ورد فى سورة القلم ، وربما كان الشخص المعنى هنا وهناك واحدا ، قيل:إنه الوليد بن المغيرة – [كما سيأتى تفصيل الروايات عند مواجهة النص] وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له (إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل:كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال:إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) ثم تذكر مصيره (سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر عليها تسعة عشر) وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء فى أوساط المشركين وضعاف الإيمان ، تتحدث السورة عن حكمة الله فى ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله ، واختصاصه بهذا الغيب . وهى كوة تلقى ضوءا على جانب من التصور الإيمانى لحقيقة غيب الله المكنون (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون:ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر) ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إيحاء هذه وتلك فى معرض الإيقاظ والتحذير (كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيرا للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافا طويلا بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيد فى يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل فى أمرهم الذى لا تنفعهم فيه شفاعة شافع (كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم فى سقر ؟ قالوا:لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وفى ظل هذا المشهد المخزى ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكرا موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهدا ساخرا يثير الضحك والزراية من نفارهم الحيوانى الشموس (فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !) ويكشف عن حقيقة الغرور الذى يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) فهو الحسد للنبى ﷺ والرغبة فى أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى (كلا ! بل لا يخافون الآخرة) وفى الختام يجىء التقرير الجازم الذى لا مجاملة فيه:(كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره)ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره (وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة) وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسى الذى كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها فى قلوب قريش ؛ كما كافح العناد والكيد والإعراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب . . والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعا نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة . . وذلك باستثناء الشطر الثانى من سورة المزمل ، وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول ﷺ وطائفة من الذين معه كما تقدم . وهذه السورة

قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل والقوافى . يتئد إيقاعها أحيانا ، ويجرى لاهثا أحيانا ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر . . وتصوير مشهد سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . . ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! وهذا التنوع فى الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقا خاصا ؛ ولا سيما عند رد بعض القوافى ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة:المدثر . أنذر . فكبر . . وعودتها بعد فترة:قدر . بسر . استكبر . سقر . . . وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية فى الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله (فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة) ففى الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفى الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا . . . والآن نأخذ فى الاستعراض التفصيلى للسورة:

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ)(٥٦)

(يا أيها المدثر . قم فأنذر) إنه النداء العلوى الجليل ، للأمر العظيم الثقيل . . نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة ؛ وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان . . وهو واجب ثقيل شاق ، حين يناط بفرد من البشر – مهما يكن نبيا رسولا – فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والإلتواء و التقصى من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام فى هذا الوجود ! ، والإنذار هو أظهر ما فى الرسالة ، فهو تنبيه للخطر القريب الذى يترصد للغافلين السادرين فى الضلال وهم لا يشعرون . وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لا ينقصون فى ملكه شيئا حين يضلون ، ولا يزيدون فى ملكه شيئا حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم فى الآخرة ، ومن الشر الموبق فى الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله ! ثم يوجه الله رسوله فى خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره: يوجهه إلى تكبير ربه (وربك فكبر) ربك وحده . . فهو وحده الكبير ، الذى يستحق التكبير . وهو توجيه يقرر جانبا من التصور الإيمانى لمعنى الألوهية ، ومعنى التوحيد ويوجهه إلى التطهر (وثيابك فطهر) وطهارة الثياب كناية فى الاستعمال العربى عن طهارة القلب والخلق والعمل . . طهارة الذات التى تحتويها الثياب ، وكل ما يلم بها أو يمسها . . والطهارة هى الحالة المناسبة للتلقى من الملأ الأعلى . كما أنها أصق شىء بطبيعة هذه الرسالة . ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب (والرجز فاهجر) والرسول ﷺ كان هاجرا للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة . فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف ، وهذا الركام من المعتقدات الشائهة ، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك فى شىء من خوض الجاهلية . ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه (ولا تمنن تستكثر) وهو سيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به . وهذه الدعوة لا تستقيم فى نفس تحس بما

تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله ؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له ، ويوفقها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لا المن والاستكثار . ويوجهه أخيرا إلى الصبر . الصبر لربه (ولربك فاصبر) وهى الوصية التى تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت . والصبر هو هذا الزاد الأصيل فى هذه المعركة الشاقة . فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهى للنبى الكريم ، اتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين ، فى لمسة توقظ الحس لليوم العسير ، الذى ينذر بمقدمه النذير(فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير) والنقر فى الناقور ، هو ما يعبر عنه فى مواضع أخرى بالنفخ فى الصور . ولكن التعبير هنا أشد إيحاء بشدة الصوت ورنينه ؛ كأنه نقر يصوت ويدوى . والصوت الذى ينقر الآذان أشد وقعا من الصوت الذى تسمعه الآذان . . ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفى كل ظل لليسر فيه (على الكافرين غير يسير) فهو عسر كله . عسر لا يتخلله يسر . ولا يفصل أمر هذا العسر ، بل يدعه مجملا مجهلا يوحى بالاختناق والكرب والضيق . . فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر فى الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير ! وينتقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين ؛ يبدو أنه كان له دور رئيسى خاص فى التكذيب والتبييت للدعوة ؛ فيوجه إليه تهديدا ساحقا ماحقا ، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التى تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات (ذرنى ومن خلقت وحيدا) والخطاب للرسول ﷺ ومعناه خل بينى وبين هذا الذى خلقته وحيدا مجردا من كل شىء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد . خل بينى وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيده . فأنا سأتولى حربه . . وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفزع المزلزل ؛ وهو يتصور انطلاق القوة التى لا حد لها . . قوة الجبار القهار . . لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ! وهى الرعشة التى يطلقها النص القرآنى فى قلب القارئ والسامع الآمنين منها . فما بال الذى تتجه إليه وتواجهه !ويطيل النص فى وصف حال هذا المخلوق ، وما آتاه الله من نعمه وآلائه ، قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيدا مجردا من كل شىء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالا كثيرا ممدودا . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهودا ، فهو منهم فى أنس وعزوة . ومهد له الحياة تمهيدا ويسرها له تيسيرا (ذَرْنِي وَمَن خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً) (ثم يطمع أن أزيد) فهو لا يقنع بما أوتى ، ولا يشكر ويكتفى . . أم لعله يطمع فى أن ينزل عليه الوحى وأن يعطى كتابا كما سيجىء فى آخر السورة (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) فقد كان ممن يحسدون الرسول ﷺ على إعطائه النبوة . وهنا يردعه ردعا عنيفا عن هذا الطمع الذى لم يقدم حسنة ولا طاعة ولا شكرا لله يرجو بسببه المزيد(كلا !) وهى كلمة ردع وتبكيت (إنه كان لآياتنا عنيدا) فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان . ووقف فى وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصد عنها نفسه وغيره ، وأطلق حواليها الأضاليل . ويعقب على الردع بالوعيد الذى يبذل اليسر عسرا ، والتمهيد مشقة ! (سأرهقه صعودا) وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالتصعيد فى الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقا . ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته . . كل ذلك ليجد عيبا يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولا يقوله فيه (إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال:إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) لمحة لمحة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير ، كما لو كانت ريشة تصور ، لا كلمات تعبر ، بل كما لو كانت فيلما متحركا يلتقط المشهد لمحة لمحة !!! لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هى قضاء (فقتل !) واستنكار كله استهزاء (كيف قدر ؟) ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار . ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا فى جد مصطنع متكلف يوحى بالسخرية منه والاستهزاء . ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابسا ، ويقبض ملامح وجهه باسرا ، ليستجمع فكره فى هيئة مضحكة ! وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحزق كله ؟ لا يفتح عليه بشىء . . إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق . . فيقول (إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر)! إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآنى فى المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة فى اللوحة ؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار ! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وتثبت صورته الزرية فى صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال ! فإذا انتهى عرض هذه اللمحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك ، عقب عليها بالوعيد المفزع(سأصليه سقر) وزاد هذا الوعيد تهويلا بتجهيل سقر (وما أدراك ما سقر ؟) إنها شىء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجهيل بشىء من صفتها أشد هولا (لا تبقى ولا تذر) فهى تكنس كنسا ، وتبلع بلعا ، وتمحو محوا ، فلا يقف لها شىء ، ولا يبقى وراءها شىء ، ولا يفضل منها شىء ! ثم هى تتعرض للبشر وتلوح (

لواحة للبشر) كما قال فى سورة المعارج (تدعوا من أدبر وتولى). . فهى تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع فى النفوس ، بمنظرها المخيف ! ويقوم عليها حراس عدتهم (تسعة عشر) لا ندرى أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفو أنواع من الملائكة وصنوف . إنما هو خبر من الله سندرى شأنه فيما يجىء . . عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله فى الكشف عن هذا الجانب من الغيب ، وذكر هذا العدد ، وترد علم الغيب إلى الله ، وتقرر ما وراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهى الموقف إليها ، تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فهم من ذلك الخلق المغيب الذى لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله ؛ وقد قال لنا عنهم:إنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التى يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة ، كما يعلمها الله ، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتدبيره للأمور (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) فهم الذين يثير ذكر العدد فى قلوبهم رغبة الجدل ؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر الغيبى كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبرا فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقى هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخير فى ذكر هذا الطرف وحده ، بالقدر الذى ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يغايره . أما لماذا كانوا تسعة عشر [أى كان مدلول هذا العدد] فهو أمر يعلمه الله الذى ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شيء بقدر . وهذا العدد كغيره من الأعداد . والذى يبغى الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أى عدد آخر وعلى أى أمر آخر بنفس الاعتراض . . لماذا كانت السماوات سبعا ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب:لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد ! هذا هو فصل الخطاب فى مثل هذه الأمور (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) فهؤلاء وهؤلاء سيجدون فى عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئا عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيمانا . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقيا مباشرا ؛ وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنسا بالله (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون:ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟). . وهكذا تترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين فى القلوب المختلفة . . فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون ، والذين آمنوا يزيدون إيمانا ، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون فى حيرة يتساءلون (ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟) فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة فى تقدير كل خلق . ولا يطمئنون إلى صدق الخبر والخير الكامن فى إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات . فتتلقاها القلوب المختلفة تلقيا مختلفا . ويهتدى بها فريق وفق مشيئة الله ؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه فى النهاية إلى إرادة الله المطلقة التى ينتهى إليها كل شيء . (وما يعلم جنود ربك إلا هو) فهى غيب . حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها . . وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها ، وقوله هو الفصل فى شأنها . وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة ما لم يكشف الله عنه ، فليس إلى معرفة هذا من سبيل (وما هى إلا ذكرى للبشر) (وهى) إما أن تكون هى جنود ربك ، وإما أن تكون هى سقر ومن عليها . وهى من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ؛ لا لتكون موضوعا للجدل والمماحكة ! والقلوب المؤمنة هى التى تتعظ بالذكرى ، فأما القلوب الضالة فتتخذها مماحكة وجدلا ! ويعقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب ، ولمناهج التصور الهادية والمضللة . . يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك ، بظواهر الوجود المشهودة فى هذا العالم ، والتى يمر عليها البشر غافلين ، وهى تشى بتقدير الإرادة الخالقة وتدبيرها ، وتوحى بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصدا وغاية ، وحسابا وجزاء (كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر) ومشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر . . مشاهد موحية بذاتها ، تقول للقلب البشرى أشياء كثيرة ؛ وتهمس فى أعماقه بأسرار كثيرة ؛ وتستجيش فى أغواره مشاعر كثيرة . والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار فى القلوب التى يخاطبها ، على خبرة بمداخلها ودروبها ! والله الذى خلق القلب البشرى يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب فى بعض الأحايين ، وكأنها تخلقه من جديد . ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة ، ودلالاتها المثيرة . يقسم على أن (سقر) أو الجنود التى عليها ، أو الآخرة

وما فيها ، هى إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر (إنها لأحدى الكبر ، نذيرا للبشر) والقسم ذاته ، ومحتوياته ، والمقسم عليه بهذه الصورة . . كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ،وتتسق مع النقر فى الناقور ، وما يتركه من صدى فى الشعور . وفى ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها: (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة) فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها . فهى رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بين الله للنفوس طريقة لتسلك إليه على بصيرة ، وهو إعلان فى مواجهة المشاهد الكونية الموحية ، ومشاهد سقر التى لا تبقى ولا تذر . . له وقعه وله قيمته ! وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت ، المقيدة بما فعلت ، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال ، وإرسالهم من القيد ، وتخويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير: (إلا أصحاب اليمين ، فى جنات يتساءلون عن المجرمين:ما سلككم فى سقر ؟ قالوا:لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين) وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكول إلى فضل الله الذى يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك فى هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة . يلمس قلوب المجرمين المكذبين ، وهم يرون أنفسهم فى هذا الموقف المهين ، الذى يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم فى الدنيا ، ولا يبالونهم ، فى موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض فى الموقف (ما سلككم فى سقر ؟) ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون فى الأرض ، وهم يجدون أنفسهم اليوم فى هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين فى ذلك المقام المهين . . وقوة المشهد تلقى فى نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون . . وتطوى صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى ! والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التى انتهت بالمجرمين إلى سقر ، يعترفون بها هم بألسنتهم فى ذلة المستكين أمام المؤمنين: (قالوا:لم نك من المصلين) وهى كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة فى كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين (ولم نك نطعم المسكين) وهذه تلى عدم الإيمان ، بوصفها عبادة الله فى خلقه ، بعد عبادته – سبحانه – فى ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة فى مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التى كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير فى هذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم فى مواضع المفاخرة والاختيال ، مع تركه فى مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء (وكنا نخوض مع الخائضين) وهى تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال . (وكنا نكذب بيوم الدين) وهذه أس البلايا . فالذى يكذب بيوم الدين تختل فى يده جميع الموازين ، وتضطرب فى تقديره جميع القيم ، ويضيق فى حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود فى هذه الأرض ، والمجرمون يقولون:إننا ظللنا على هذه الأحوال ، لا نصلى ، ولا نطعم المسكين ، ونخوض مع الخائضين ، ونكذب بيوم الدين (حتى أتانا اليقين) الموت الذى يقطع كل شك وينهى كل ريب ، ويفصل فى الأمر بلا مرد . . ولا يترك مجالا لندم ولا توبة ولا عمل صالح . . بعد اليقين . . ويعقب السياق على الموقف السيء المهين ، بقطع كل أمل فى تعديل هذا المصير(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) فقد قضى الأمر ، وحق القول ، وتقرر المصير ، الذى يليق بالمجرمين المعترفين ! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلا . وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين ! وأمام هذا الموقف المهين الميئوس منه فى الآخرة ، يردهم إلى موقفهم فى الفرصة المتاحة لهم فى الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ؛ وهم يصدون عنها ويعرضون ، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب(فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ؟) ومشهد حمر الوحش وهى مستنفره تفر فى كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاه . . مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ! حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذى يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لا لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكرا يذكرهم بربهم وبمصيرهم ، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزرى المهين ، وذلك المصير العصيب الأليم ؟! إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله فى صلب الكون ، تتملاه النفوس ، فتخجل وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحى العنيف ! تلك هيئتهم الخارجية . (حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، وما يعتلج فيها من المشاعر(بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) فهو الحسد للنبى ﷺ أن يختاره الله ويوحى إليه ؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه المنزلة ،

وأن يؤتى صحفا تنشر على الناس وتعلن . . ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحى إلى محمد بن عبد الله ، ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحنق الذى يغلى فى الصدور ، والذى يكشف عنه القرآن ، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار ! ثم يستمر فى رسم صورة النفوس من داخلها ، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد ، ويذكر سببا آخر للإعراض والجحود . وهو يردع فى نفوسهم ذلك الطمع الذى لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقى وحى الله وفضله (كلا ! بل لا يخافون الآخرة) وعدم خوفهم من الآخرة هو الذى ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة . ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب ! ثم يردعهم مرة أخرى ، وهو يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير (كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره) إنه ، هذا القرآن الذى يعرضون عن سماعه ، وينفرون كالحمر ، وهم يضمرون فى أنفسهم الحسد لمحمد ، والاستهتار بالآخرة . . إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة ، أو من سقر ومهانة . وبعد أن يثبت مشيئتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها فى النهاية . وهى الحقيقة التى يحرص القرآن على تقريرها فى كل مناسبة لتصحيح التصور الإيمانى من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير ، وراء جميع الأحداث والأمور(وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة) فكل ما يقع فى هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الكبرى ، يمضى فى اتجاهها وفى داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته ، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله ، وهى التى أنشأته وأنشأت نواميسه وسننه ، فهو يمضى بكل ما فيه وكل من فيه فى إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد . والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . فإذا علم من العبد صدق النية وجهه إلى الطاعات . والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه . ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته فى النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة . والتقوى تستأهل المغفرة ، والله – سبحانه – أهل لهما جميعا . بهذه التسبيحة الخاشعة تختم السورة ، وفى النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم ، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر ، والتوجيه إلى التقوى ، والتفضل بالمغفرة .

سورة القيامة

مكية و آياتها ٢٠

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشرى من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد ، والإيقاعات واللمسات ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه . تحشدها بقوة ، فى أسلوب خاص ، يجعل لها طابعا قرآنيا مميزا ، سواء فى أسلوب الأداء التعبيرى ، أو أسلوب الأداء الموسيقى ، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعورى قوى ، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضا ! إنها تبدأ فى الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة ، وإيقاع عن النفس (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) ثم يستطرد الحديث فيها متعلقا بالنفس ومتعلقا بالقيامة ، من المطلع إلى الختام ، تزاوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهى . وكأن هذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أو كأنه اللازمة الإيقاعية التى ترتد إليها كل إيقاعات السورة ، بطريقة دقيقة جميلة . من تلك الحقائق الكبيرة التى تحشدها هذه السورة فى مواجهة القلب البشرى ، وتضرب بها عليه حصارا لا مهرب منه . حقيقة الموت القاسية الرهيبة التى تواجه كل حى ، فلا يملك لها ردا ، ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعا . وهى تتكرر فى كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفا واحدا . لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل . . مما يوحى بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئا . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا . . وهذا هو الإيقاع الذى تمس به السورة القلوب وهى تقول (كلا ! إذا بلغت التراقى ، وقيل:من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . . إلى ربك يومئذ المساق) ومن تلك الحقائق الكبيرة التى تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلالتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تدبيرا فى خلق هذا الإنسان وتقديرا . وهى حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها فى صنعة مبدعة ، لا يقدر عليها إلى الله ، ولا يدعيها أحد ممن يكذبون بالآخرة ويتمارون فيها . فهى قاطعة فى أن هناك إلها واحدا يدبر هذا الأمر ويقدره ؛ كما أنها بينة لا ترد على يسر النشأة الآخرة ، وإيحاء قوى بضرورة النشأة الأخرى ، تمشيا مع التقدير والتدبير الذى لا يترك هذا الإنسان سدى ، ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب . وهذا هو الإيقاع الذى تمس السورة به القلوب وهى تقول فى أولها (أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ؟) ثم تقول فى آخرها (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين:الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟) ومن المشاهد المؤثرة التى تحشدها السورة ، وتواجه بها القلب البشرى مواجهة قوية . مشهد يوم القيامة وما يجرى فيه من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة فى مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول فى صميم الكون ، وفى أغوار النفس وهى تروغ من هنا ومن هناك كالفأر فى المصيدة ! وذلك ردا على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة فى شك واستبعاد ليومها المغيب ، واستهانة بها ولجاج فى الفجور . فيجىء الرد فى إيقاعات سريعة ، ومشاهد سريعة ، وومضات سريعة (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل:أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ:أين المفر ؟ كلا ! لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره !) ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم فى ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعى الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ما أسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهو مشهد يعرض فيه قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يعرض ردا على حب الناس للعاجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفى الآخرة يكون هذا الذى يكون (كلا ! بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة !) وفى ثنايا السورة وحقائقها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوى توجيها خاصا للرسول ﷺ وتعليما له فى شأن تلقى هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة فى السورة ذاتها . إذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئا مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحى فقرة فقرة فى أثناء تلقيه ؛ وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاء هذا التعليم (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحى ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده . . كل أولئك موكول إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقى والبلاغ . فليطمئن بالا ،

وليتلق الوحى كاملا ، فيجده فى صدره منقوشا ثابتا . وهكذا كان . فأما هذا التعليم فقد ثبت فى موضعه حيث نزل . . أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت فى أى غرض كان ؟ ولأى أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت فى صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب . ودلالة إثبات هذه الآيات فى موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة فى شأن كل كلمات الله فى أى إتجاه . وفى شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التى أوحى بها إلى الرسول ﷺ لم يخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرج والوقار ! وهكذا يشعر القلب – وهو يواجه هذه السورة – أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته بعلم الله وتدبيره ، فى النشأة الأولى وفى النشأة الآخرة سواء ، بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى) وفى مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد الملفوف (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) فيكون له وقعه ومعناه ! وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره ولهوه . وتشعره بالجد الصارم الحازم فى هذا الشأن ، شأن القيامة ، وشأن النفس وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذى لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذى تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت فى سجل الكون الثابت ، وفى صلب هذا الكتاب الكريم . وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهى فى نسق السورة شىء آخر . إذ أن تتابعها فى السياق ، والمزاوجة بينها هنا وهناك ، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب الآخر بعد فترة . . كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآنى فى مخاطبة القلب البشرى ؛ مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى . .

فلنأخذ فى شرح السورة كما هى فى سياقها القرآنى الخاص:

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٥) أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) (٤٠)

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع فى الحس من القسم المباشر ؛ وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذى يتكرر فى مواضع مختلفة من القرآن . . ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة . وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير فى مواضعه فى السورة . فأما النفس اللوامة ففى التفسيرات المأثورة أقوال متنوعة عنها ونحن نختار فى معنى (النفس اللوامة) قول الحسن البصرى: " إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه:ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدما ما يعاتب نفسه " فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التى تحاسب نفسها ، وتتلفت حولها ، وتتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هى النفس الكريمة على الله ، حتى ليذكرها مع القيامة . ثم هى الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذى يريد أن يفجر ويمضى قدما فى الفجور ، والذى يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تحرج ولا مبالاة ! (لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة) على وقوع هذه القيامة ، ولكنه لما عدل عن القسم ، عدل عن ذكر المقسم به ، وجاء به فى صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث بعد التنبيه إليه بهذا المطلع الموقظ ، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه . وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هى صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة فى التراب ، المتفرقة فى الثرى ، لإعادة بعث الإنسان حيا ! ولعلها لا تزال كذلك فى بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسبان بعدم جمع العظام مؤكدا وقوعه (بلى ! قادرين على أن نسوى بنانه)

والبنان أطراف الأصابع ؛ والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه فى موضعه كما كان ! وهى كناية عن إعادة التكوين الإنسانى بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لا تضيع منه بنان ، ولا تختل عن مكانها ، بل تسوى تسوية ، لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو ، مهما صغر ودق ! ويكتفى هنا بهذا التقرير المؤكد ، وسيجىء فى نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية فى هذا الحسبان ، وتوقع عدم جمع العظام . إن هذا الإنسان يريد أن يفجر ، ويمضى قدما فى الفجور ، ولا يريد أن يصده شىء عن فجوره ، ولا أن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجىء يوم القيامة (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟) والسؤال بأيان – هذا اللفظ المديد الجرس – يوحى باستبعاده لهذا اليوم . . وذلك تمشيا مع رغبته فى أن يفجر ويمضى فى فجوره ، لا يصده شبح البعث وشبح الآخرة . . والآخرة لجام للنفس الراغبة فى الشر ، ومصد للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هذا المصد ، وإزاحة هذا اللجام ، لينطلق فى الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب . ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها ، سريعا خاطفا حاسما ، ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى فى إيقاع النظم ، وجرس الألفاظ . وكان مشهدا من مشاهد القيامة تشترك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية (فإذا برق البصر . وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟) فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا تقلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترن بالقمر بعد افتراق . ويختل نظامهما الفلكى المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكونى الدقيق . . وفى وسط هذا الذعر والانقلاب ، يتساءل الإنسان المرعوب: (أين المفر ؟) ويبدو فى سؤاله الارتياع والفزع ، وكأنما ينظر فى كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه ، مأخوذ عليه ! ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه ، والمستقر عنده ؛ ولا مستقر غيره (كلا ! لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر) وما كان يرغب فيه الإنسان من المضى فى الفجور بلا حساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوبا ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضرا (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيرا كان أم شرا . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثارا تضاعف لصاحبها فى ختام الحساب ! ومهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) ومما يلاحظ أن كل شىء سريع قصير، الفقر . والفواصل . والإيقاع الموسيقى . والمشاهد الخاطفة . وكذلك عملية الحساب:(ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)هكذا فى سرعة وإجمال . . ذلك أنه رد على استطالة الأمد والاستخفاف بيوم الحساب ! (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) وبالإضافة إلى ما قلناه فى مقدمة السورة عن هذه الآيات ، فإن الإيحاء الذى تتركه فى النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن:وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ؛ وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته . ليس للرسول ﷺ من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لهفة الرسول ﷺ وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ؛ وأخذه مأخذ الجد الخالص ، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعوه إلى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية وكلمة كلمة يستوثق منها أن شيئا لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيما بعد ! ثم يمضى سياق السورة فى عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيها من حب للدنيا وانشغال ، ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ؛ ويواجههم بموقفهم فى الآخرة بعد هذا وما ينتهى إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هذا الموقف فى مشهد حى قوى الإيحاء عميق الإيقاع(كلا . بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ؛ ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة) وأول ما يلحظ من ناحية التناسق فى السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلة فى هذا الموضع . ففضلا عن إيحاء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها – وهو الإيحاء المقصود – فإن هناك تناسقا بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق المعترض فى السياق ، وقول الله تعالى لرسوله ﷺ (لا تحرك به لسانك لتعجل به) فهذا التحريك وهذه العجلة هى أحد ظلال السمة البشرية فى الحياة الدنيا . . وهو تناسق فى الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآنى فى الطريق ! ثم نخلص إلى الموقف الذى يرسمه هذا النص القرآنى الفريد (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة) هذه الوجوه الناضرة . . نضرها أنها إلى ربها ناظرة . . إلى ربها . . ؟! فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أى مستوى من السعادة ؟ فأما كيف تنظر ؟ وبأى جارحة تنظر ؟ وبأى وسيلة تنظر ؟ . . فذلك حديث لا يخطر على قلب يمسه طائف من الفرح الذى يطلقه النص القرآنى ، فى القلب المؤمن ، والسعادة التى يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق ! (ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة) وهى الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارتكاسها وكثافتها وانطماسها . وهى التى

يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار . . الفاقرة . وهى من التوقع والتوجس فى كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص . وإذا كانت مشاهد القيامة . . إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، وقال الإنسان يومئذ أين المفر . ولا مفر . وإذا اختلفت المصائر والوجوه ، ذلك الإختلاف الشاسع البعيد ، فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة . . إذا كانت تلك المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها فى النفس ، من قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الأداء القرآنى الذى يشخصها ويحييها ، فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور ، لا تمر لحظة حتى يواجههم فى هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل ! إنه مشهد الموت . الموت الذى ينتهى إليه كل حى ، والذى لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حى . الموت الذى يفرق الأحبة ، ويمضى فى طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذى يصرع الجبابرة بنفس السهولة التى يصرع بها الأقزام ، ويقهر بها المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذى لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التى تجريه إنه مشهد الاحتضار ، يواجههم به النص القرآنى كأنه حاضر ، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة ! (كلا إذا بلغت التراقى) وحين تبلغ الروح التراقى يكون النزع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذى تزوغ منه الأبصار . . ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب (وقيل:من راق ؟) لعل رقية تفيد ! . . وتلوى المكروب من السكرات والنزع (والتفت الساق بالساق) وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذى يساق إليه كل حى فى نهاية المطاف (إلى ربك يومئذ المساق) إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة ، التى لا دافع لها ولا راد . . ثم تظهر النهاية التى لا مفر منها (إلى ربك يومئذ المساق)

ويسدل الستار على المشهد الفاجع ، وفى العين منه صورة ، وفى الحس منه أثر ، وعلى الجو كله وجوم صامتمرهوب . وفى مواجهة المشهد المكروب الملهوف الجاد الواقع يعرض مشهد اللاهين المكذبين ، الذين لا يستعدون بعمل ولا طاعة ، بل يقدمون المعصية والتولى ، فى عبث ولهو ، وفى اختيال بالمعصية والتولى (فلا صدق ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى)! وقد ورد أن هذه الآيات تعنى شخصا معينا بالذات ، قيل هو أبو جهل "عمرو بن هشام" وكان يجىء أحيانا إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه ، فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ؛ ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عن سبيل الله . . ثم يذهب مختالا بما يفعل ، فخورا بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئا يذكر . والتعبير القرآنى يتهكم به ، ويسخر منه ، ويثير السخرية كذلك ، وهو يصور حركة اختياله بأنه (يتمطى !) يمط (بمد) فى ظهره ويتعاجب تعاجبا ثقيلا كريها ! وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوة إلى الله ، يسمع ويعرض ، ويتفنن فى الصد عن سبيل الله ، والأذى للدعاة ، ويمكر مكر السيئ ، ويتولى وهو فخور بما أوقع من الشر والسوء ، وبما أفسد فى الأرض ، وبما صد عن سبيل الله ، وبما مكر لدينه وعقيدته وكاد ! وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوات يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه ؛ ويحسبها شيئا ؛ وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بعوضة ، وأحقر من ذبابة . . إنما هو الأجل الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر . والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد(أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) وهو تعبير اصطلاحى يتضمن التهديد والوعيد ، وقد أمسك رسول الله ﷺ بخناق أبى جهل مرة ، وهزه ، وهو يقول له (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) فقال عدو الله:أتوعدنى يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا . وإنى لأعز من مشى بين جبليها !! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد ﷺ وبرب محمد القوى القهار المتكبر . وفى النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية فى حياتهم ، لها دلالتها على تدبير الله وتقديره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التى ينكرونها أشد الإنكار . ولا مفر من مواجهتها ، ولا حيلة فى دفع دلالتها (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين:الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟) وهذا المقطع الأخير العميق الإيقاع ، يشتمل على لفتات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان المخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم فى ذلك الزمان . وأولى هذه اللفتات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير فى حياة الإنسان (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) فلقد كانت الحياة فى نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية . . أرحام تدفع وقبور تبلع . . وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان . . فأما أن يكون هناك ناموس ، وراءه هدف ،ووراء الهدف حكمة ؛ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجرى إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهى إلى حساب وجزاء ، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء

ينتهى إلى الحساب والجزاء . . أما هذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شيء بقدر ، وتنهى كل شيء إلى نهاية . . أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم ، في ذلك الزمان . وهذا هو التصور الكبير الذى نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التى عرفتها الفلسفة قديما وحديثا . وهذه اللمسة (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) هى إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشرى ، كي يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب ، التى تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة للوجود كله . وفى غير تعقيد ولا غموض يأتي بالدلائل الواقعة البسيطة التي تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى . . إنها دلائل نشأته الأولى (ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟) فما هذا الإنسان ؟ مم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟ ألم يك نطفة صغيرة من الماء ، من منى يمنى ويراق ؟ ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقة ذات وضع خاص في الرحم ، تعلق بجدرانه لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذى ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذى أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذى وجهها هذا الإتجاه ؟ ثم من ذا الذى خلقها بعد ذلك جنينا معتدلا منسق الأعضاء ؟ مؤلفا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو فى الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟ والرحلة المديدة التي قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوى – وهى أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته – والتغيرات التى تحدث فى كيانه فى الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث فى رحلته من مولده إلى مماته ! فمن ذا الذى قاد هذه الرحلة المديدة ، وهو خليقة صغيرة ضعيفة ، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟! ثم فى النهاية . من ذا الذى جعل من الخلية الواحدة . . الذكر والأنثى ؟ . . أى إرادة كانت لهذه الخلية فى أن تكون ذكرا ؟ وأى إرادة لتلك فى أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذى يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟! إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التي قادت النطفة المراقة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) وأمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضا على الحس البشرى ، يجىء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التي تعالجها السورة (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى ! بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى ! بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التى تفرض نفسها فرضا . وهكذا تنتهى السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم ، القوى العميق ، الذى يملأ الحس ويفيض ، بحقيقة الوجود الإنسانى وما وراءها من تدبير وتقدير . .

سورة الإنسان

مكية ، و آياتها ٣١

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية ، ولكنها مكية ؛ ومكيتها ظاهرة جدا ، فى موضوعها وفى سياقها ، وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكى . . تشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشي به توجيه الرسول ﷺ إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؛ مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها فى مكة ، مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول ﷺ على الحق الذى نزل عليه ، وعدم الميل إلى ما يدهنون به . . كما جاء فى سورة القلم ، وفى سورة المزمل ، وفى سورة المدثر ، مما هو قريب من التوجيه فى هذه السورة . . واحتمال أن هذه السورة مدنية – فى نظرنا – هو احتمال ضعيف جدا ، يمكن عدم اعتباره !والسورة فى مجموعها هتاف رخى ندى إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتقاء عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته فى الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . وهى تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشرى:أين كان قبل أن يكون ؟ من الذى أوجده ؟ ومن الذى جعله شيئا مذكورا فى هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟) تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذى يختاره (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية ، وما تثيره فى القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة فى الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار. وترغيبه في طريق الجنة ، بكل صور الترغيب ، وبكل هواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم: إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) وقبل أن تمضى في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار فى عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهانئ الرغيد (يوفون بالنذر ، ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام – على حبه – مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطرير ، الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغون وجه الله وحده ، لا يريدون شكورا من أحد ، إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير !تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعيم اللين الرغيد (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا)فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهانئ الودود اتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ لتثبيته على الدعوة – فى وجه الإعراض والكفر والتكذيب – وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذى لا يحسبون حسابه ؛ والذى يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذى خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ؛ لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضى مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم فى الختام بعاقبة هذا الابتلاء: إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما . .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً{١} إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً{٢} إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{٣} إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً{٤} إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً{٥} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً{٦} يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً{٧} وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{٨} إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً{٩} إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً{١٠} فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً{١١} وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً{١٢} مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً{١٣} وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً{١٤} وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا{١٥} قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً{١٦} وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً{١٧} عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً{١٨} وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً{١٩} وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً{٢٠} عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً{٢١} إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً{٢٢} إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً{٢٣} فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً{٢٤} وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{٢٥} وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً{٢٦} إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً{٢٧} نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً{٢٨} إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{٢٩} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{٣٠} يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً){٣١}

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله فى هذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتختم ببيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحى بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير ، لا ينبغي معه أن يمضى الإنسان فى استهتاره . غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليبتلى ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح فى الابتلاء (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا). هذا الاستفهام فى مطلع السورة إنما هو للتقرير ؛ ولكن وروده فى هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه:ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها فى نفسه شيئا من الشعور باليد التى دفعته إلى مسرح الحياة ، وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ؟إنها إيحاءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام فى هذا المقام . وهى إيحاءات رفيقة وعميقة تثير فى النفس تأملات شتى:

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان . . كيف تراه كان ؟ . . والإنسان مخلوق مغرور فى نفسه وفى قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شىء يسمى "الإنسان" . . حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التى انبثق فيها هذا الوجود الإنسانى . وتضرب فى تصورات شتى لهذه اللحظة التى لم يكن يعلمها إلا الله ؛ والتى أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة ، المقدر أمرها فى حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها فى خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهى تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ؛ وتعده لدوره ، وتعد له دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ؛ وتهيئ له الظروف التى تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ؛ وتتابعه بعد ذلك فى كل خطوة ، ومعها الخيط الذى تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإيحاءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص فى الضمير . . ينتهى منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، فى المنشأ وفى الرحلة وفى المصير . فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) والأمشاج: هى الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الوراثات الكامنة فى النطفة ، والتى يمثلها ما يسمونه علميا "الجينات" وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا خلقته يد القدرة هكذا

من نطفة أمشاج ، لا عبثا ولا جزافا ولا تسلية ، ولكنه خلق ليبتلى ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة فى كيان الوجود ، وأن تتبعه آثاره المقدرة . ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .ومن ثم جعله سميعا بصيرا . أى زوده بوسائل الإدراك ، ليستطيع التلقى والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار . ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدى إلى الله (إنا هديناه السبيل:إما شاكرا وإما كفورا) وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدى ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا ، فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار . . الشكر هو الخاطر الأول الذى يرد على القلب المؤمن فى هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور . . بهذه الصيغة الموغلة فى الدلالة على الكفران .ومن ثم يأخذ فى عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران . فأما ما ينتظر الكافرين ، فيجمله إجمالا ، لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر فى الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغرى بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه فى إجمال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا) سلاسل للأقدام ، وأغلالا للأيدى ، ونارا تتسعر يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين !ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار فى الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه فى كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا ، فى كثرة ووفرة . . وقد كان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حينا وبالزنجبيل حينا زيادة فى التلذذ بها ، فهاهم أولاء يعلمون أن فى الجنة شرابا طهورا ممزوجا بالكافور ، على وفر وسعة . فأما مستوى هذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا ، وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى ، ونحن لا نملك فى هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعا للذة المتاع هناك . فهى أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب . والتعبير يسميهم فى الآية الأولى (الأبرار) ويسميهم فى الآية الثانية (عباد الله) إيناسا وتكريما وإعلانا للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة ، فى معرض النعيم والتكريم .ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع ، وهى صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضعاف ، وإيثار على النفس ، وتحرج وخشية لله ، ورغبة فى رضاه ، وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد فى تصور الواجب الثقيل .(يوفون بالنذر) فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جدا خالصا لا يحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التفصى من أعبائه ، ولا التخلى عنه بعد اعتزامه . وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر . فهو أعم من المعنى العرفى المتبادر من كلمة (النذر) (ويخافون يوما كان شره مستطيرا) فهم يدركون صفة هذا اليوم ، الذى يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن ينالهم شىء من شره . وهذه سمة الأتقياء ، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف ، الخائفين من التقصير والقصور ، مهما قدموا من القرب والطاعات (ويطعمون الطعام – على حبه – مسكينا ويتيما وأسيرا) وهى تصور شعور البر والعطف والخير ممثلا فى إطعام الطعام ، مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها:إنها تحب الطعام الذى تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم . إلا أن تكون فى حاجة هى إلى هذا الطعام ، ولكنها تؤثر به المحاويج (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) فهى الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة ، تتجه إلى الله تطلب رضاه . ولا تبتغى بها جزاء من الخلق ولا شكرا ، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقى بها يوما عبوسا شديد العبوس ، تتوقعهوتخشاه ، وتتقيه بهذا الوقاء . وقد دلهم رسول الله ﷺ عليه وهو يقول:" اتق النار ولو بشق تمرة " وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة ، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف ، فلا تظل فى هذه الصورة البدائية المباشرة . ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا)يعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذى كانوا يخافونه ، ليطمئنهم فى الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسرورا ، لا يوما عبوسا قمطريرا . جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .ثم يمضى بعد ذلك فى وصف مناعم الجنة التى وجدوها (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه (متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) فهم فى جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ فى غير حر ، ندى فى غير برد . فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول:إنه عالم اخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها . . وكفى !(ودانية عليهم

ظلالها . وذللت قطوفها تذليلا) وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهى الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !فهذه هى الهيئة العامة لهذه الجنة التى جزى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة فى الدنيا . . ثم تأتى تفصيلات المناعم والخدمات (ويطاف عليهم بآنية من فضة ، وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا)فهم فى متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق . . يطاف عليهم بأشربة فى آنية من فضة ، وفى أكواب من فضة كذلك ، ولكنها شفة كالقوارير ، مما لم تعهده الأرض فى آنية الفضة . وهى بأحجام مقدرة تقديرا يحقق المتاع والجمال . ثم هى تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور .وزيادة فى المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الآوانى والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ؛ فهم مخلدون فى سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور (ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) ثم يجمل السياق خطوط المنظر ، ويلقى عليه نظرة كاملة تلخص وقعه فى القلب والنظر(وإذا رأيت – ثم – رأيت نعيما وملكا كبيرا) نعيما وملكا كبيرا . هو الذى يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء ، على وجه الإجمال والعموم ! ثم يخصص مظهرا من مظاهر النعيم والملك الكبير ؛ كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير(عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا) والسندس هو الحرير الرقيق ، والإستبرق هو الحرير السميك المبطن . . وهم فى هذه الزينة وهذا المتاع ، يتلقونه كله من(ربهم) فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم ثم يتلقون عليه الود والتكريم (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها . وهكذا ينتهى ذلك العرض المفصل والهتاف الموحى للقلوب ، الهتاف إلى ذلك النعيم الطيب والفرار من السلاسل والأغلال والسعير . وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !وبعد انتهاء هذا الهتاف إلى الجنة ونعيمها الهنىء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصرين على العناد والتكذيب ، الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيساومون عليها الرسول ﷺ لعله يكف عنها ، أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبى ﷺ وفتنة المؤمنين به وإيذائهم ، والصد عن سبيل الله ، والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . . بين هذا كله يجىء المقطع الأخير فى السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) وفى هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغى أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا ، وأن يتعمقوها تعمقا كاملا ، وأن ينظروا بتدبر فى مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .لقد كان رسول الله ﷺ يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه فى نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التى كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابسات التى تحيط بالعقيدة وبالموقف هى التى تقود إلى تلك المعارضة العنيدة ، التى شهدت بها الروايات التاريخية ، وحكاها القرآن فى مواضع منه شتى . . كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة فى البيئة ، وما يتلبسها كذلك من مصالح مادية . . هى العنصر الأول الذى يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان ، فى وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة . . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبى على العقيدة الجديدة ، وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ؛ ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا)

وهى اللفتة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة ، وينبوع حقيقتها . . إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذى نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر ، ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشىء آخر لا يفيض من هذا الينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه ، ولا يستمد منه ، ولا يستعار لهذه العقيده منه شىء ، ولا يخلط بها منه شىء . . ثم إن الله الذى نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعى إليها ، وهو كلفه ، وهو نزل القرآن عليه .ولكن الباطل يتبجح ، والشر ينتفش ، والأذى يصيب المؤمنين ، والفتنة ترصد لهم ؛ والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذى يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة ، وقسمة البلد بلدين ، والإلتقاء فى منتصف الطريق . . وهو عرض يصعب رده ورفضه فى مثل تلك الظروف العصيبة !

هنا تجيء اللفتة الثانية (فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثما أو كفورا) إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهل الباطل ، ويملى للشر ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص . . كل أولئك لحكمة يعلمها ، يجرى بها قدره ، وينفذ بها حكمه (فاصبر لحكم ربك) حتى يجيء موعده المرسوم . . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب ، والشر يتنفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذى نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء فى منتصف الطريق على حساب العقيدة: (ولا تطع منهم آثما أو كفورا). فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم فى منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك ما يظنونه يرضيك ويغريك ! اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة وقوى الإغراء ، وامتد الطريق . ولكن الصبر شاق ، ولا بد من الزاد والمدد المعين (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك فى الصباح والمساء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلا . . إنه الاتصال بالمصدر الذى نزل عليك القرآن ، وكلفك الدعوة ، هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد . . الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتسبيحا . . ليلا طويلا . . فالطريق طويل ، والعبء ثقيل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك ، حيث يلتقى العبد بربه فى خلوة وفى نجاء ، وفى تطلع وفى أنس ، تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ، وترى عظمة التكليف ، وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقى من أشواك الطريق !ثم يمضى السياق فى توكيد الافتراق بين منهج الرسول ﷺ ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تفاهة اهتماماتهم ، وصغر تصوراتهم . . يقول (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) إن هؤلاء ، القريبى المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدين الذين يستغرقون فى العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . ثقيلا بتبعاته . ثقيلا بنتائجه . ثقيلا بوزنه فى ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لا يطاعون فى شيء ولا يتبعون فى طريق ؛ ولا يلتقون مع المؤمنين فى هدف ولا غاية ، ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة ، من ثراء وسلطان ومتاع ، فإنما هى العاجلة ، وإنما هو المتاع القليل ، وإنما هم الصغار الزهيدون !ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، يعد الحساب العسير !فهذه الآية استطراد فى تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين معه ، فى مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل ... يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذى أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجرى بها قدره القديم (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا – وهم فى حالة الضعف والقلة – إلى أن واهب القوة هو الذى ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما تقرر فى نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هى التى تجرى وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) فهم لا يعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم . . فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته . ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم ، والقرآن يعرض عليهم ، وهذه السورة منه تذكرهم (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ويعقب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة ، ورد كل شيء إليها ، ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والاستسلام الأخير لحكمها ؛ وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها ، ومن حوله إلى حولها . . وهو الإسلام فى صميمه وحقيقته (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما)ذلك كى تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذى تجرى فيه فى مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ؛ والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة ، وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن . . . إلا أن هذا كله ينتهى إلى قدر الله ، الذى يلجأ إليه الملتجئ ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف فى قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدى ولا ذكر ، ولا توفيق إلى خير . ومن ثم فهو(يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما) فهى المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل فى رحمته من يشاء ، ممن يلتجئون إليه ، يطلبون عونه على الطاعة ، وتوفيقه إلى الهدى (والظالمين أعد لهم عذابا أليما) وقد أملى لهم وأمهلهم لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم !

سورة المرسلات

مكية ، و آياتها ٥٠

هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة من نار . وهى تقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة ! وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار (ويل يومئذ للمكذبين)! ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات فى السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطى السورة سمة خاصة ، وطعما مميزا . . حادا . . وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافى . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحيانا إلى بعض القوافى مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافى بلذعها الخاص ، وعنفها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع اخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة . ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة (والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا) وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام . وللقرآن فى هذا الباب طريقة خاصة فى اختيار إطار للمشاهد فى بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها . . وهذا نموذج منها ، وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أو رحلة فى عالم ، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات . أعرض بكثير جدا من مساحة العبارات والكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى ! والجولة الأولى تقع فى مشاهد يوم الفصل . وهى تصور الانقلابات الكونية الهائلة فى السماء والأرض ، وهى الموعد الذى تنتهى إليه الرسل بحسابها مع البشر (فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة الثانية مع مصارع الغابرين ، وما تشير إليه من سنن الله فى المكذبين (ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحى به من تقدير وتدبير:(ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه فى قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة الرابعة فى الأرض التى تضم أبناءها إليها أحياء وأمواتا ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيى (ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ أحياء وأمواتا ، وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقونه يوم الفصل من عذاب وتأنيب (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل (هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة الثامنة مع المتقين ، وما أعد لهم من نعيم (إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التأنيب (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !) والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين فى موقف التكذيب (وإذا قيل لهم:اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !) والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والوخزات والإيقاعات (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) وهكذا يمضى القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية فى السورة فقد تكرر ورودها فى سور القرآن - والمكية منها بوجه خاص - ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة ، وفى أضواء متعددة ، وبطعوم ومذاقات متعددة ، وفق الحالات النفسية التى تواجهها ، ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التى يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو فى كل حالةجديدة ، لأنها تستجيش فى النفس استجابات جديدة . وفى هذه السورة جدة فى مشاهد جهنم . وجدة فى مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة فى أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع !

والآن نستعرض السورة فى سياقها القرآنى بالتفصيل:

(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً{١} فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً{٢} وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً{٣} فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً{٤} فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً{٥} عُذْراً أَوْ نُذْراً{٦} إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ{٧} فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ{٨} وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ{٩} وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ{١٠} وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ{١١} لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ{١٢} لِيَوْمِ الْفَصْلِ{١٣} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ{١٤} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{١٥} أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ{١٦} ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ{١٧} كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ{١٨} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{١٩} أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ{٢٠} فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{٢١} إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ{٢٢} فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ{٢٣} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٢٤} أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً{٢٥} أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً{٢٦} وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً{٢٧} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٢٨} انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{٢٩} انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ{٣٠} لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ{٣١} إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ{٣٢} كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ{٣٣} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٣٤} هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ{٣٥} وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ{٣٦} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٣٧} هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ{٣٨} فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ{٣٩} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٤٠} إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ{٤١} وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ{٤٢} كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٤٣} إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{٤٤} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٤٥} كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{٤٦} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٤٧} وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{٤٨} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٤٩} فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ){٥٠}

(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا:عذرا أو نذرا . . إن ما توعدون لواقع) القضية قضية القيامة التى كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ؛ والتى أكدها لهم القرآن الكريم بشتى الموكدات فى مواضع منه شتى . وكانت عنايته بتقرير هذه القضية فى عقولهم ، ، وإقرار حقيقتها فى قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة فى نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم فى حياتهم جميعا . والله سبحانه يقسم فى مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحى ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة ، المؤثرة فى هذا الكون وفى حياة البشر . وقد اختلف السلف فى حقيقة مدلولها . فقال بعضهم:هى الرياح إطلاقا . وقال بعضهم هى الملائكة إطلاقا . وقال بعضهم:إن بعضها يعنى الرياح وبعضها يعنى الملائكة . . مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها . وهذا الغموض هو أنسب شىء للقسم بها على الأمر الغيبى المكنون فى علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة فى حياة البشر . (والمرسلات عرفا) عن أبى هريرة أنها الملائكة . وروى عن ابن مسعود . . المرسلات عرفا . قال:الريح . [والمعنى على هذا أنها المرسلة متوالية كعرف الفرس فى امتدادها وتتابعها] وكذا قال فى العاصفات عصفا والناشرات نشرا . وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح فى رواية . وعن ابن مسعود (فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا) يعنى الملائكة . وكذا قال:ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدى والثورى بلا خلاف . فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل . وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق وإنذار . ونحن نلمح أن التهويل بالتجهيل ملحوظ فى هذه الأمور المقسم بها كالشأن فى الذاريات ذروا . وفى النازعات غرقا . . وأن هذا الخلاف فى شأنها دليل على إبهامها . وأن هذا الإبهام عنصر أصيل فيها فى موضعها هذا . وأن الإيحاء المجمل فى التلويح بها هو أظهر شىء فى هذا المقام . وأنها هى بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها ، والظلال المباشرة التى تلقيها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما فى النفس هما أليق شىء بموضوع السورة واتجاهها . . وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذى يمسك بخناق أحد فيهزه هزا ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد (ويل يومئذ للمكذبين) بعد ذلك تجىء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المتقلبة فى يوم الفصل الذى هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة فى البشرية جميعا (فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت) يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء أى تشق ، وتنسف الجبال فهى هباء . . وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكونى فى سور شتى من القرآن . وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطا مصحوبا بقرقعة ودوى وانفجارات هائلة ، لا عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التى يستهولونها ويرعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق . . وما إليها . . فهذه أشبه شىء – حين تقاس بأهوال يوم الفصل – بلعب الأطفال التى يفرقعونها فى الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذى ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشرى

على الإطلاق ! وإلى جانب هذا الهول فى مشاهد الكون ، تعرض السورة أمرا عظيما آخر مؤجلا إلى هذا اليوم . . فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله فى الأرض طوال الأجيال . . فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامى عن ذلك الأمر العظيم الذى يرجح السماوات والأرض والجبال . للفصل فى جميع القضايا المعلقة فى الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التى تنتهى إليها الأجيال والقرون . . وفى التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحى بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك (وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟) وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله ، الذى يرجح هول النجوم المطموسة والسماء المشقوقة والجبال المنسوفة . ألقى بالإيقاع الرعيب ، والإنذار المخيف (ويل يومئذ للمكذبين !) وهذا الإنذار من العزيز الجبار ، فى مواجهة الهول السائد فى الكون ، والجلال الماثل فى مجلس الفصل بمحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير فى الموعد المضروب لهم . . هذا الإنذار فى هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب . ويعود بهم من هذه الجولة فى أهوال يوم الفصل ، إلى جولة فى مصارع الغابرين:الأولين والآخرين (ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين !) هكذا فى ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفى ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تتبدى المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقا بسنة الله فى الوجود (كذلك نفعل بالمجرمين)! فهى السنة الماضية التى لا تحيد . . وبينما المجرمون يتوقعون مصرعا كمصارع الأولين والآخرين ، يجيء الدعاء بالهلاك ، ويجيء الوعيد بالثبور (ويل يومئذ للمكذبين) ومن الجولة فى المصارع والأشلاء ، إلى جولة فى الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ، للصغير والكبير (ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه فى قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين) وهى رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يجملها هنا فى لمسات معدودة . ماء مهين . يودع فى قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح فى تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يجيء التعقيب الموحى بالحكمة العليا التى تتولى كل شيء بقدره فى إحكام مبارك جميل (فقدرنا فنعم القادرون) وأمام التقدير الذى لا يفلت منه شيء يجيء الوعيد المعهود (ويل يومئذ للمكذبين) ثم جولة فى هذه الأرض ، وتقدير الله فيها لحياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة (ألم نجعل الأرض كفاتا ؟ أحياء وأمواتا ؟ وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ؟ ويل يومئذ للمكذبين) ألم نجعل الأرض كفاتا تحتضن بنيها أحياء وأمواتا (وجعلنا فيها رواسى شامخات) ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب . أفيكون هذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون ؟ (ويل يومئذ للمكذبين !) وعندئذ - بعد عرض تلك المشاهد ، وامتلاء الحس بالتأثرات التى تسكبها فى المشاعر - ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذى كانوا به يكذبون ، فى تأنيب مرير وإيلام عسير (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعاب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب . إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين !) اذهبوا طلقاء بعد الارتهان والاحتباس فى يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه انطلاق خير منه الارتهان (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون) فها هو ذا أمامكم حاضر مشهود (انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب) إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته فى ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج (لا ظليل ولا يغنى من اللهب) إنه ظل خانق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتدادا للتهكم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم ! انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التى تنطلقون إليها . فلا حاجة إلى ذكر اسمها (إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر) فالشرر يتتابع فى حجم البيت من الحجر . [وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضرورى أن يكون فى ضخامة ما نعهد الآن من قصور] فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشرر فكيف بالنار التى ينطلق منها الشرر ؟! وفى اللحظة التى يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجيء التعقيب المعهود:(ويل يومئذ للمكذبين !). ثم يأخذ فى استكمال المشهد بعد عرض الهول المادى فى صورة جهنم ، بعرض الهول النفسى الذى يفرض الصمت والكظم (هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فالهول هنا يكمن فى الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، والخشوع المهيب ، الذى لا يتخلله كلام ولا اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار (ويل يومئذ للمكذبين)! وفى مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم . . واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك - على ما قال ابن عباس رضى الله عنهما - ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة ، لمناسبة فى الموقف وظل فى السياق (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون . ويل يومئذ للمكذبين !) هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه

، وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ! ولا تدبير ولا قدرة . إنما هو الصمت الكظيم ، على التأنيب الأليم . .(ويل يومئذ للمكذبين !) فإذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين ، اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين (إن المتقين فى ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين !) إن المتقين فى ظلال . . ظلال حقيقية فى هذه المرة ! لا ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب ! وفى عيون من ماء لا فى دخان خانق يبعث الظمأ الحرور (وفواكه مما يشتهون) وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسى التكريم العلوى على مرأى ومسمع من الجموع (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين) ويا لطف هذا التكريم من العلى العظيم (ويل يومئذ للمكذبين !) يقابل هذا النعيم والتكريم ! وهنا تعرض فى خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التى طويت فى السياق . فإذا نحن فى الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين ! (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين !) وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة فى فقرتين متواليتين ، وفى مشهدين معروضين كأنهما حاضران فى أوان ، وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجها للمتقين فى الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين فيالدنيا . وكأنما ليقال لهم:اشهدوا الفارق بين الموقفين . وكلوا وتمتعوا قليلا فى هذه الدار ، لتحرموا وتعذبوا طويلا فى تلك الدار (ويل يومئذ للمكذبين !) ثم يتحدث معجبا من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين !) مع أنهم يبصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) والذى لا يؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى ، وبهذه الهزات التى تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبدا . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقى المتعوس ! فسبحان الذى نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !

سورة النبأ

مكية ، و آياتها ٤٠

هذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته فى الكون والنفس ، والدنيا والآخرة ؛ واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثرا فى الحس والضمير . وهى تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة التى يختلفون عليها ، وهى أمر عظيم لا خفاء فيه ، ولا شبهة ؛ ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته (عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون !) ومن ثم يعدل السياق عن المعنى فى الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه ، ويلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم وحولهم ، فى ذوات أنفسهم وفى الكون حولهم من أمر عظيم ، يدل على ما وراءه ويوحى بما سيتلوه (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ؟) ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ، والذى هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ما هو ؟ وكيف يكون (إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا) ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه (إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ،وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) ومشهد النعيم كذلك وهو يتدفق تدفقا (إن للمتقين مفازا:حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا , وكأسا دهاقا ، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا) وتختم السورة بإيقاع جليل فى حقيقته وفى المشهد الذى يعرض فيه . وبإنذار وتذكير قبل أن يجىء اليوم الذى يكون فيه هذا المشهد الجليل (رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا . ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا . يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا) ذلك هو النبأ العظيم . الذى يتساءلون عنه . وذلك ما سيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم !

{عَمَّ يَتَسَاءلُونَ{١} عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ{٢} الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ{٣} كَلَّا سَيَعْلَمُونَ{٤} ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ{٥} أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً{٦} وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً{٧} وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً{٨} وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً{٩} وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً{١٠} وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً{١١} وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً{١٢} وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً{١٣} وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً{١٤} لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً{١٥} وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً{١٦} إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً{١٧} يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً{١٨} وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً{١٩} وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً{٢٠} إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً{٢١} لِّلْطَّاغِينَ مَآباً{٢٢} لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً{٢٣} لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{٢٤} إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{٢٥} جَزَاء وِفَاقاً{٢٦} إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً{٢٧} وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً{٢٨} وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً{٢٩} فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً{٣٠} إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً{٣١} حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{٣٢} وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً{٣٣} وَكَأْساً دِهَاقاً{٣٤} لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً{٣٥} جَزَاء مِن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً{٣٦} رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{٣٧} يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{٣٨} ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً{٣٩} إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً){٤٠}

(عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون . كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون) مطلع فيه استنكار لتساؤل المتسائلين ، وفيه عجب أن يكون هذا الأمر موضع تساؤل . وقد كانوا يتساءلون عن يوم البعث ونبأ القيامة . وكان هو الأمر الذى يجادلون فيه أشد الجدل ، ولا يكادون يتصورون وقوعه ، وهو أولى شىء بأن يكون ! (عم يتساءلون ؟) وعن أى شىء يتحدثون ؟ ثم يجيب . فلم يكن السؤال بقصد

معرفة الجواب منهم . إنما كان للتعجيب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم ، بكشف الأمر الذى يتساءلون عنه وبيان حقيقته وطبيعته (عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون) ولم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه إنما ذكره بوصفه . . النبأ العظيم . . استطرادا فى أسلوب التعجيب والتضخيم . . وكان الخلاف على اليوم بين الذين آمنوا به والذين كفروا بوقوعه . أما التساؤل فكان من هؤلاء وحدهم . ثم لا يجيب عن التساؤل ، ولا يدلى بحقيقة النبأ المسؤول عنه . فيتركه بوصفه . . العظيم . . وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف ، وهو أوقع من الجواب المباشر ، وأعمق فى التخويف (كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون !) ولفظ كلا ، يقال فى الردع والزجر فهو أنسب هنا للظل الذى يراد إلقاؤه . وتكراره وتكرار الجملة كلها فيه من التهديد ما فيه . ثم يبعد فى ظاهر الأمر عن موضوع ذلك النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون . ليلتقى به بعد قليل . يبعد فى جولة قريبة فى هذا الكون المنظور مع حشد من الكائنات والظواهر والحقائق والمشاهد ، تهز الكيان حين يتدبرها الجنان (ألم نجعل الأرض مهادا ؟ والجبال أوتادا ؟ وخلقناكم أزواجا ؟ وجعلنا نومكم سباتا ؟ وجعلنا الليل لباسا ؟ وجعلنا النهار معاشا ؟ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ؟ وجعلنا سراجا وهاجا ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ؟ لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا) وهذه الجولة التى تتنقل فى أرجاء هذا الكون الواسع العريض ، مع هذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد ، تذكر فى حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات ، مما يجعل إيقاعها فى الحس حادا ثقيلا نفاذا ، كأنه المطارق المتوالية , بلا فتور ولا انقطاع ! وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين - وهى فى اللغة تفيد التقرير - صيغة مقصودة هنا ، وكأنما هى يد قوية تهز الغافلين , وهى توجه أنظارهم وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التى تشى بما وراءها من التدبير والتقدير ، والقدرة على الإنشاء والإعادة ، والحكمة التى لا تدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولا جزاء . . ومن هنا تلتقى بالنبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون ! واللمسة الأولى فى هذه الجولة عن الأرض والجبال (ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ؟) والمهاد هو:الممهد للسير . . والمهاد اللين كالمهد . . وكلاهما متقارب . وهى حقيقة محسوسة للإنسان فى أى طور من أطوار حضارته ومعرفته . فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها فى صورتها الواقعية . وكون الجبال أوتادا ظاهرة تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائي ؛ وهذه وتلك ذات وقع فى الحس حين توجه إليها النفس . وجعل الأرض مهادا للحياة - وللحياة الإنسانية بوجه خاص - شاهد لا يمارى فى شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . وجعل الجبال أوتادا . . يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد ، فهى أشبه شيء بأوتاد الخيمة التى تشد إليها . أما حقيقتها فنتلقاها من القرآن ، وندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها . واللمسة الثانية فى ذوات النفوس ، فى نواحي وحقائق شتى (وخلقناكم أزواجا) وهى ظاهرة كذلك ملحوظة يدركها كل إنسان بيسر وبساطة . . فقد خلق الله الإنسان ذكرا وأنثى ، وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقائهما . وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة ، ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير . ومن ثم يخاطب بها القرآن الإنسان فى أية بيئة فيدركها ويتأثر بها حين يتوجه تأمله إليها ، ويحس ما فيها من قصد ومن تنسيق وتدبير (وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا) وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتا يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ; ويجعلهم فى حالة لا هى موت ولا هى حياة ، تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذى بذلته فى حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة . . وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لا يدرك الإنسان كنهها ، ولا نصيب لإرادته فيها ؛ وفى النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب . . إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف ، هدنة تلم بالفرد فيلقى سلاحه وجنته - طائعا أو غير طائع - ويستسلم لفترة من السلام الآمن ، واللمسة الثالثة فى خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء (وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا) والسبع الشداد التى بناها الله فوق أهل الأرض هى السماوات السبع ، وهى الطرائق السبع فى موضع آخر . . والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه الله . . فقد تكون سبع مجموعات من المجرات - وهى مجموعات من النجوم (وجعلنا سراجا وهاجا) وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التى تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء . والتى تؤثر كذلك فى تكوين السحائب بتبخير المياه من المحيط الواسع فى الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا وهى المعصرات (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) حين تعصر فتخر ويتساقط ما فيها من الماء . ومن يعصرها ؟ قد تكون هى الرياح . وقد يكون هو التفريغ الكهربائى فى طبقات الجو . ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التى تودع الكون هذه المؤثرات ! وفى السراج توقد وحرارة وضوء . . وهو ما يتوافر فى الشمس . فاختيار كلمة (سراج) دقيق كل الدقة ومختار . . ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع . ووراء هذا كله حساب وجزاء . ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل (إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا) إن الناس لم يخلقوا عبثا ، ولن يتركوا سدى . والذى قدر حياتهم ذلك التقدير الذى يشى به

المقطع الماضى فى السياق ، ونسق حياتهم مع الكون الذى يعيشون فيه ذلك التنسيق ,لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملا ! ويصلحون فى الأرض أو يفسدون ثم يذهبون فى التراب ضياعا ! ويهتدون فى الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيرا واحدا . ويعدلون فى الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعا ! إن هنالك يوما للحكم والفرقان والفصل فى كل ما كان . وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود (إن يوم الفصل كان ميقاتا) وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا) والصور: هوالبوق . ونحن لا ندرى عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك . فهى لا تزيدنا إيمانا ولا تأثرا بالحادث . وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد فى البحث وراء هذا الغيب المكنون ، وأعطانا منه القدر الذى ينفعنا فلا نزيد ! إنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمعة التى يأتى بها الناس أفواجا . . نتصور هذا المشهد والخلائق التى توارت شخوصها جيلا بعد جيل، وأخلت وجه الأرض لمن يأتى بعدها كى لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود (وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا) السماء المبنية المتينة . . فتحت فكانت أبوابا . . فهى منشقة . منفرجة . إنه الهول البادى فى انقلاب الكون المنظور ، كالهول البادى فى الحشر بعد النفخ فى الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير . . ثم يمضى السياق خطوة وراء النفخ والحشر ، فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة . بادئا بالأولين المكذبين المتسائلين عن النبأ العظيم (إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصادا للطاغين تنتظرهم وتترقبهم وينتهون إليها فإذا هى معدة لهم ، مهيأة لاستقبالهم . وكأنما كانوا فى رحلة فى الأرض ثم آبوا إلى مأواهم الأصيل ! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقابا بعد أحقاب (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) ثم يستثنى فإذا الاستثناء أمر وأدهى (إلا حميما وغساقا) إلا الماء الساخن يشوى الحلوق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذى يغسق من أجساد المحروقين ويسيل . فهذا هو الشراب (جزاء وفاقا) يوافق ما أسلفوا وما قدموا (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) ولا يتوقعون مآبا (وكذبوا بآياتنا كذابا) وجرس اللفظ فيه شدة توحى بشدة التكذيب وشدة الإصرار عليه . بينما كان الله يحصى عليهم كل شىء إحصاء دقيقا لا يفلت منه حرف (وكل شىء أحصيناه كتابا) هنا يجىء التأنيب الميئس من كل رجاء فى تغيير أو تخفيف (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) ثم يعرض المشهد المقابل:مشهد التقاة فى النعيم . بعد مشهد الطغاة فى الحميم (إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . . جزاء من ربك عطاء حسابا) فإذا كانت جهنم هناك مرصدا ومآبا للطاغين ، لا يفلتون منها ولا يتجاوزونها ، فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة ، تتمثل (حدائق وأعنابا) ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون (وكواعب) وهن الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهن (أترابا) متوافيات السن والجمال (وكأسا دهاقا) مترعة بالشراب . وهى مناعم ظاهرها حسى ، لتقريبها للتصور البشرى . أما حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها . . وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) فهى حياة مصونة من اللغو والتكذيب الذى يصاحبه الجدل ؛ فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب ; كما أنه لا مجال للغو الذى لا خير فيه . . وهى حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود (جزاء من ربك عطاء حسابا) ونلمح هنا ظاهرة الأناقة فى التعبير والموسيقى فى التقسيم بين (جزاء) و(عطاء) كما نلمحها فى الإيقاع المشدود فى الفواصل كلها على وجه التقريب . . وهى الظاهرة الواضحة فى الجزء كله إجمالا . وتكملة لمشاهد اليوم الذى الذى يتم فيه ذلك كله ، والذى يتساءل عنه المتسائلون ، ويختلف فيه المختلفون . يجىء المشهد الختامى فى السورة ، حيث يقف جبريل "عليه السلام "والملائكة صفا بين يدى الرحمن خاشعين . لا يتكلمون – إلا من أذن له الرحمن –فى الموقف المهيب الجليل (رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا . يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) ذلك الجزاء الذى فصله فى المقطع السابق:جزاء الطغاة وجزاء التقاة . هذا الجزاء (من ربك) (رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن) فهى المناسبة المهيأة لهذه اللمسة ولهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الربوبية الواحدة التى تشمل الإنسان . كما تشمل السماوات والأرض ، وتشمل الدنيا والآخرة ، وتجازى على الطغيان والتقوى ، وتنتهى إليها الآخرة والأولى ثم هو(الرحمن) ومن رحمته ذلك الجزاء لهؤلاء وهؤلاء . حتى عذاب الطغاة ينبثق من رحمة الرحمن . ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألا يتساوى مع الخير فى مصيره ! ومع الرحمة والجلال (لا يملكون منه خطابا) فى ذلك اليوم المهيب الرهيب:يوم يقف جبريل – عليه السلام – والملائكة الآخرون (صفا لا يتكلمون) إلا بإذن من الرحمن حيث يكون القول صوابا . فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه

صواب . وموقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وبحساب . . يغمر الجو بالروعة والرهبة والجلال والوقار . وفى ظل هذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار ، وهزة للنائمين السادرين فى الخمار (ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا . إنا أنذرناكم عذابا قريبا:يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر:يال ليتنى كنت ترابا) إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون فى ارتياب (ذلك اليوم الحق) فلا مجال للتساؤل والاختلاف . . والفرصة ما تزال سانحة ! (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) قبل أن تكون جهنم مرصادا ومآبا ! وهو الإنذار الذى يوقظ الناس (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) ليس بالبعيد ، فجهنم تنتظركم وتترصد لكم . على النحو الذى رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب ! وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . ويقول الكافر:يا ليتنى كنت ترابا) وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب ! وهو تعبير يلقى ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الإنسانى أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهمل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد . . وهو الموقف الذى يقابل تساؤل المتسائلين وشك المتشككين . فى ذلك النبأ العظيم !!!

سورة النازعات

مكية ، و آياتها ٤٦

هذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة ، بهولها وضخامتها ، وجديتها ، وأصالتها فى التقدير الإلهى لنشأة هذا العالم الإنسانى ، والتدبير العلوى لمراحل هذه النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفى جوفها ؛ ثم فى الدار الآخرة ، التى تمثل نهاية هذه النشأة وعقباها . وفى الطريق إلى إشعار القلب البشرى حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات منوعة على أوتار القلب ، ويلمسه لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى . وهى إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة . فتلك الحقيقة تمهد لها فى الحس وتهيئه لاستقبالها فى يقظة وفى حساسية . يمهد لها بمطلع غامض الكنه يثير بغموضه شيئا من الحدس والرهبة والتوجس . يسوقه فى إيقاع موسيقى راجف لاهث ، كأنما تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانبهار (والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا) وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجىء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظله من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه ؛ كأنما المطلع إطار له وغلاف يدل عليه (يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون:أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا:تلك إذا كرة خاسرة ! فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) ومن هنالك . . من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور . . يأخذ فى عرض مصرع من مصارع المكذبين العتاة فى حلقة من قصة موسى مع فرعون . فيهدأ الإيقاع الموسيقى ويسترخى شيئا ما ، ليناسب جو الحكاية والعرض (هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى:اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل:هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال:أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وبهذا يلتقى ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى . ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح ، ومشاهد الكون الهائلة ، الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصائره ، فى الدنيا والآخرة . فيعرضها فى تعبيرات قوية الأسر ، قوية الإيقاع ، تتسق مع مطلع السورة وإيقاعها العام (أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟ بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ؛ والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم) وهنا - بعد هذه التمهيدات المقربة وهذه اللمسات الموحية - يجىء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان فى الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخر فى مشاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكبرى (فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ! فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) وفى اللحظة التى يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث من مشاهد الطامة الكبرى ، والجحيم المبرزة لمن يرى ، وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا ، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . . فى هذه اللحظة يرتد السياق إلى

المكذبين بهذه الساعة , الذين يسألون الرسول ﷺ عن موعدها . يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها في الحس وضخامتها (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل ، تشارك في تشخيص الضخامة وتجسيم التهويل !

(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً{١} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{٢} وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{٣} فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{٤} فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{٥} يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ{٦} تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ{٧} قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ{٨} أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ{٩} يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ{١٠} أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً{١١} قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ{١٢} فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ{١٣} فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ{١٤} هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{١٥} إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{١٦} اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{١٧} فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{١٨} وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{١٩} فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{٢٠} فَكَذَّبَ وَعَصَى{٢١} ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{٢٢} فَحَشَرَ فَنَادَى{٢٣} فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{٢٤} فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{٢٥} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{٢٦} أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{٢٧} رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{٢٨} وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا{٢٩} وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{٣٠} أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{٣١} وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{٣٢} مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{٣٣} فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى{٣٤} يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى{٣٥} وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى{٣٦} فَأَمَّا مَن طَغَى{٣٧} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{٣٨} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{٣٩} وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{٤٠} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{٤١} يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{٤٢} فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{٤٣} إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{٤٤} إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{٤٥} كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا){٤٦}

(والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا). قيل في تفسير هذه الكلمات:إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعا شديدا . ناشطات منطلقات في حركاتها . سابحات في العوالم العليا سابقات للإيمان أو للطاعة لأمر ربها مدبرات ما يوكل من الأمور إليها . وقيل:إنها النجوم تنزع في مداراتها وتتحرك وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل . وتسبح سبحا في فضاء الله وهي معلقة به . وتسبق سبقا في جريانها ودورانها . وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها مما يؤثر في حياة الأرض ومن عليها . وقيل:النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هي النجوم . والمدبرات هي الملائكة . وقيل:النازعات والناشطات والسابحات هي النجوم . والسابقات والمدبرات هي الملائكة . . وأيا ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادها على هذا النحو , ينشئ أولا وقبل كل شيء هزة في الحس ، وتوجسا في الشعور ، وتوفزا وتوقعا لشيء يهول ويروع . ومن ثم فهي تشارك في المطلع مشاركة قوية في إعداد الحس لتلقي ما يروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى في النهاية ! وتمشيا مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة في تفصيل مدلولاتها ومناقشتها ; لنعيش في ظلال القرآن بموحياته وإيحاءاته على طبيعتها . فهزة القلب وإيقاظه هدف في ذاته ، يتحراه الخطاب القرآني بوسائل شتى . .هذا المطلع جاء في صيغة القسم ، على أمر تصوره الآيات التالية في السورة (يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون:أإنا لمردودون في الحافرة ؟ أإذا كنا عظاما نخرة ؟ قالوا:تلك إذن كرة خاسرة . . ! فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) والراجفة ورد أنها الأرض إستنادا إلى قوله تعالى في سورة أخرى: (يوم ترجف الأرض والجبال . .(والرادفة:ورد أنها السماء . أي أنها تردف الأرض وتتبعها في الانقلاب حيث تنشق وتتناثر كواكبها . . كذلك ورد أن الراجفة هي الصيحة الأولى ، التي ترجف لها الأرض والجبال والأحياء جميعا , ويصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . والرادفة هي النفخة الثانية التي يصحون عليها ويحشرون [كما جاء في سورة الزمر آية ٦٨] وسواء كانت هذه أم تلك . فقد أحس القلب البشري بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب ; واهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش . وتهيأ لإدراك ما يصيب القلوب يومئذ من الفزع الذي لا ثبات معه ولا قرار . وأدرك وأحس حقيقة قوله (قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة) فهي شديدة الاضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف والانكسار ، والرجفة ، والانهيار . وهذا هو الذي يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ؛ وهذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات غرقا والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، والسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا . وهو مشهد يتفق في ظله وإيقاعه مع ذلك المطلع . ثم يمضي السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم في ذهول (يقولون:أإنا لمردودون في الحافرة ؟ أإذا كنا عظاما نخرة ؟) فهم يتساءلون:أنحن مردودون إلى الحياة عائدون في طريقنا الأولى . . يقال:رجع في حافرته:أي في طريقه التي جاء منها . فهم في وهلتهم وذهولهم يسألون:إن كانوا راجعين في

طريقهم إلى حياتهم ؟ ويدهشون:كيف يكون هذا بعد إذ كانوا عظاما نخرة . منخوبة يصوت فيها الهواء ؟! ولعلهم يفيقون ، أو يبصرون ، فيعلمون أنها كرة إلى الحياة ، ولكنها الحياة الأخرى , فيشعرون بالخسارة والوبال فى هذه الرجعة ، فتند منهم تلك الكلمة (قالوا:تلك إذن كرة خاسرة !) كرة لم يحسبوا حسابها ، ولم يقدموا لها زادها ، وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص ! هنا - فى مواجهة هذا المشهد - يعقب السياق القرآنى بحقيقة ما هو كائن (فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة) والزجرة:هى الصيحة . ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقا لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعا . والساهرة هى الأرض البيضاء اللامعة . وهى أرض المحشر ، التى لا ندرى نحن أين تكون . والخبر عنها لا نعرفه إلا من الخبر الصادق نتلقاه ، فلا نزيد عليه شيئا غير موثوق به ولا مضمون ! وهذه الزجرة الواحدة يغلب - بالاستناد إلى النصوص الأخرى - أنها النفخة الثانية . نفخة البعث والحشر .. والقلوب الواجفة تأخذ صفتها هذه من سرعة النبض ، فالتناسق ملحوظ فى كل حركة وفى كل لمحة ، وفى كل ظل فى السياق ! ثم يهدأ الإيقاع شيئا ما ، فى الجولة القادمة ، ليناسب جو القصص ، وهو يعرض ما كان بين موسى وفرعون ، وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى (هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل:هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال:أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا وأكثرها تفصيلا فى القرآن . . وقد وردت من قبل فى سور كثيرة . وردت منها حلقات منوعة . ووردت فى أساليب شتى . كل منها تناسب سياق السورة التى وردت فيها ؛ وتشارك فى أداء الغرض البارز فى السياق . على طريقة القرآن فى إيراد القصص وسرده . وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودى موسى بالوادى المقدس ، إلى أخذ فرعون . . أخذه فى الدنيا ثم فى الآخرة . . فنلتقى بموضوع السورة الأصيل . وهو حقيقة الآخرة . وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا فى آيات معدودات قصار سريعة ، ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها . وتتضمن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة . . و تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ (هل أتاك حديث موسى ؟) وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقى القصة وتمليها . . ثم تأخذ فى عرض الحديث كما تسمى القصة . وهو إيحاء بواقعيتها فهى حديث جرى . فتبدأ بمشهد المناداة والمناجاة (إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) وطوى اسم الوادى على الأرجح . وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين فى شمال الحجاز . ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة . وهى لحظة كذلك عجيبة . ونداء الله بذاته - سبحانه - لعبد من عباده أمر هائل . أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر . وهى سر من أسرار الألوهية العظيمة ، كما هى سر من أسرار التكوين الإنسانى التى أودعها الله هذا الكائن ، وهيأه بها لتلقى ذلك النداء . وهذا أقصى ما نملك أن نقوله فى هذا المقام , الذى لا يملك الإدراك البشرى أن يحيط منه بشىء ؛ فيقف على إطاره ، حتى يكشف الله له عنه فيتذوقه بشعوره . ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهى لموسى , عقب ذكر النداء بالوادى المقدس طوى (اذهب إلى فرعون . إنه طغى . فقل:هل لك إلى أن تزكى ! وأهديك إلى ربك فتخشى ؟) (اذهب إلى فرعون . إنه طغى) والطغيان أمر لا ينبغى أن يكون ولا أن يبقى . إنه أمر كريه ، مفسد للأرض ، مخالف لما يحبه الله ، مؤد إلى ما يكره . . فمن أجل منعه ينتدب الله عبدا من عباده المختارين . ينتدبه بنفسه سبحانه . ليحاول وقف هذا الشر ، ومنع هذا الفساد ، ووقف هذا الطغيان . . إنه أمر كريه شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبدا من عباده ليذهب إلى الطاغية ، فيحاول رده عما هو فيه ، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى ! إذهب إلى فرعون . إنه طغى . . ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشده جاذبية للقلوب ، لعله ينتهى ، ويتقى غضب الله وأخذه (فقل:هل لك إلى أن تزكى ؟) هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان ودنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة (وأهديك إلى ربك فتخشى) هل لك أن أعرفك طريق ربك ؟ فإذا عرفته وقعت فى قلبك خشيته . فما يطغى الإنسان ويعصى إلا حين يذهب عن ربه بعيدا , وإلا حين يضل طريقه إليه فيقسو قلبه ويفسد ، فيكون منه الطغيان والتمرد ! ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة (فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى) لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه . بالأسلوب الذى لقنه ربه وعرفه . ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب فى إلانة القلب الطاغى الخاوى من معرفة ربه . فأراه موسى الآية الكبرى . آية العصا واليد البيضاء كما جاء فى المواضع الأخرى (فكذب وعصى) وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية فى اختصار وإجمال ! ثم يعرض مشهدا آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى ، ويسعى فى جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق . حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى (ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال:أنا ربكم الأعلى) ويسارع السياق هنا إلى عرض قولة الطاغية الكافرة ، مجملا مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها . فقد أدبر يسعى فى الكيد والمحاولة ، فحشر السحرة والجماهير ؛ ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة ، المليئة بالغرور والجهالة (أنا ربكم الأعلى) قالها الطاغية مخدوعا بغفلة

جماهيره ، وإذعانها وانقيادها . فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها . وما الطاغية إلا فرد لا يملك فى الحقيقة قوة ولا سلطانا . إنما هى الجماهير الغافلة الذلول ، تمطى له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر ! وتحنى له رؤوسها فيستعلى ! وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى ! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى . وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية – وهو فرد – لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين ، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها . وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئا ! وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة كريمة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة رشيدة أبدا . وما يمكن أن يطغى فرد فى أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرا ولا رشدا ! فأما فرعون فوجد فى قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان ، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة (أنا ربكم الأعلى) وما كان ليقولها أبدا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة ، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء . وإن يسلبه الذباب شيئا لا يستنقذ من الذباب شيئا ! وأمام هذا التطاول الوقح ، بعد الطغيان البشع ، تحركت القوة الكبر (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى . . لأنه أشد وأبقى . فهو النكال الحقيقى الذى يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده . . ولأنه الأنسب فى هذا السياق الذى يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسى . . ولأنه يتسق لفظيا مع الإيقاع الموسيقى فى القافية بعد اتساقه معنويا مع الموضوع الرئيسى ، ومع الحقيقة الأصيلة . ونكال الأولى كان عنيفا قاسيا . فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان ومجد موروث عريق ؛ فكيف بغيره من المكذبين ؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ؟ (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) فالذى يعرف ربه ويخشاه هو الذى يدرك ما فى حادث فرعون من العبرة لسواه . أما الذى لا يعرف قلبه التقوى فبينه وبين العبرة حاجز ، وبينه وبين العظة حجاب . حتى يصطدم بالعاقبة اصطداما . وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وكل ميسر لنهج ، وكل ميسر لعاقبة . والعبرة لمن يخشى . ومن هذه الجولة فى مصارع الطغاة المعتدين بقوتهم ، يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك . فيردهم إلى شيء من مظاهر القوة الكبرى ، فى هذا الكون الذى لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئا وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذى لا يقبل الجدل (أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟) السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذى يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم ، والذى خلقها أشد منها ؟ هذا جانب من إيحاء السؤال . وهناك جانب آخر . فما الذى تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهى أشد من خلقكم ؛ وبعثكم هو إعادة لخلقكم ، والذى بنى السماء وهى أشد ، قادر على إعادتكم وهى أيسر ! هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء (بناها) والبناء يوحى بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك . متماسكة . لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها . ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها ، ولا تتهاوى ولا تنهار . فهى بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء (رفع سمكها فسواها) وسمك كل شيء قامته وارتفاعه . والسماء مرفوعة فى تناسق وتماسك . وهذه هى التسوية (فسواها) والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق . والمعرفة بحقيقة القوانين التى تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثراتها ، توسع من معنى هذا التعبير ، وتزيد فى مساحة هذه الحقيقة الهائلة ، التى لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافا منها ، وقفوا تجاهها مبهورين ، تغمرهم الدهشة ، وتأخذهم الروعة ، ويعجزون عن تعليلها بغير افتراض قوة كبرى مدبرة مقدرة ، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقا ! (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) وفى التعبير شدة فى الجرس والمعنى ، يناسب الحديث عن الشدة والقوة . وأغطش ليلها أى أظلمه . وأخرج ضحاها . أى أضاءها . ولكن اختيار الألفاظ يتمشى فى تناسق مع السياق . . وتوالى حالتى الظلام والضياء ، فى الليل والضحى الذى هو أول النهار ، حقيقة يراها كل أحد ؛ ويتأثر بها كل قلب . وقد ينساها بطول الألفة والتكرار (والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها) ودحو الأرض تمهيدها وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات ، وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذى يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع ,أو ما ينزل من السماء فهو أصلا من مائها الذى تبخر ثم نزل فى صورة مطر . وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذى يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة وبالواسطة . والقرآن يعلن أن هذا كله كان (متاعا لكم ولأنعامكم) فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية . كما يشير إلى عظمة تقدير الله فى ملكه . فإن بناء السماء على هذا النحو ، ودحو الأرض على هذا النحو أيضا لم يكونا فلتة ولا مصادفة . إنما كان محسوبا فيهما حساب هذا الخلق الذى سيستخلف فى الأرض . والذى يقتضى وجوده ونموه ورقيه موافقات كثيرة جدا فى تصميم الكون . وفى تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفى تصميم الأرض بصفة أخص (فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى) إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط

بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهى إلى أجله . . فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء ، وطمت على كل شيء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين المقدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهى أكبر من هذا كله ، وهى تطم وتعم على هذا كله ! عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى . يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشاغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيده التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى ! (وبرزت الجحيم لمن يرى) فهى بارزة مكشوفة لكل ذى نظر . ويشدد التعبير فى اللفظ (برزت) تشديدا للمعنى والجرس ، ودفعا بالمشهد إلى كل عين ! عندئذ تختلف المصائر والعواقب ؛ وتتجلى غاية التدبير والتقدير فى النشأة الأولى (فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى) والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغاة ذوى السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة . فعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حسابا . واعتبار الآخرة هو الذى يقيم الموازين فى يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين فى يده ، واختلت كل القيم فى تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك فى حياته ، وعد طاغيا وباغيا ومتجاوزا للمدى . فأما هذا (فإن الجحيم هى المأوى) الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . يوم الطامة الكبرى ! (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى) والذى يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشرى قاده خوف هذا المقام الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل فى دائرة الطاعة . ونهى النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز فى دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوى لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية . وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . فالجهل سهل علاجه . ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التى تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها . والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى . ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآنى فى آية واحدة . فالذى يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخبير بدوائها وهو وحده الذى يعلم دروبها ومنحنياتها ، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد فى وأخيرا يجىء الإيقاع الأخير فى السورة هائلا عميقا مديدا (يسألونك عن الساعة:أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول ﷺ كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وما تنتهى إليه من حساب وجزاء . . متى أو إيان موعدها . . أو كما يحكى عنهم هنا (أيان مرساها ؟) والجواب (فيم أنت من ذكراها ؟) وهو جواب يوحى بعظمتها وضخامتها ، بحيث يبدو هذا السؤال تافها باهتا ، وتطفلا كذلك وتجاوزا . فها هو ذا يقال للرسول العظيم (فيم أنت من ذكراها ؟) إنها لأعظم من أن تسأل أو تسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهى من خاصة شأنه وليست من شأنك (إلى ربك منتهاها) فهو الذى ينتهى إليه أمرها ، وهو الذى يعلم موعدها ، وهو الذى يتولى كل شيء فيها (إنما أنت منذر من يخشاها) هذه وظيفتك ، وهذه حدودك . . أن تنذر بها من ينفعه الإنذار ، وهو الذى يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها ، ويتوقعها فى موعدها الموكول إلى صاحبها سبحانه وتعالى . ثم يصور هولها وضخامتها فى صنيعها بالمشاعر والتصورات ؛ وقياس الحياة الدنيا إليها فى إحساس الناس وتقديرهم (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) فهى من ضخامة الوقع فى النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا ، وأعمارها وأحداثها ، ومتاعها ، وأشياؤها ، فتبدو فى حس أصحابها كأنها بعض يوم . . عشية أو ضحاها !

وتنطوى هذه الحياة الدنيا التى يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون . والتى يؤثرونها ويدعون فى سبيلها نصيبهم فى الآخرة . والتى يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان . والتى يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها . . تنطوى هذه الحياة فى نفوس أصحابها أنفسهم ، فإذا هى عندهم عشية أو ضحاها . هذه هى: قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة تافهة . . أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى ! ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التى لا يرتكبها إنسان . يسمع ويرى !

سورة عبس

مكية ، و آياتها ٤٦

هذه السورة قوية المقاطع ، ضخمة الحقائق ، عميقة اللمسات ، فريدة الصور والظلال والإيحاءات , موحية الإيقاعات الشعورية والموسيقية على السواء .

يتولى المقطع الأول منها علاج حادث معين من حوادث السيرة:كان النبي ﷺ مشغولا بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير – وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم – يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، فكره رسول الله ﷺ هذا وعبس وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب الرسول ﷺ عتابا شديدا ؛ ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها (عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟! كلا ! إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة) ويعالج المقطع الثانى جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده ، وأصل نشأته ، وتيسير حياته ، وتولى ربه له في موته ونشره ؛ ثم تقصيره بعد ذلك في أمره (قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره , ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا ! لما يقض ما أمره) والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشرى إلى أمس الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه . وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له ، كتدبيرة وتقديره في نشأته (فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا ، متاعا لكم ولأنعامكم) فأما المقطع الأخير فيتولى عرض(الصاخة) يوم تجيء بهولها ، الذى يتجلى في لفظها ، كما تتجلى آثارها في القلب البشرى الذي يذهل عما عداها ؛ وفي الوجوه التى تحدث عما دهاها (فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة , ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) إن استعراض مقاطع السورة وآياتها – على هذا النحو السريع – يسكب في الحس إيقاعات شديدة التأثير . فهي من القوة والعمق بحيث تفعل فعلها في القلب بمجرد لمسها له بذاتها . وسنحاول أن نكشف عن جوانب من الآماد البعيدة التى تشير إليها بعض مقاطعها مما قد لا تدركه النظرة الأولى .

(عَبَسَ وَتَوَلَّى{١} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{٢} وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{٣} أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{٤} أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{٥} فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{٦} وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{٧} وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{٨} وَهُوَ يَخْشَى{٩} فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{١٠} كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{١١} فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{١٢} فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{١٣} مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{١٤} بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{١٥} كِرَامٍ بَرَرَةٍ{١٦} قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{١٧} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{١٨} مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{١٩} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{٢٠} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{٢١} ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ{٢٢} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{٢٣} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{٢٤} أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً{٢٥} ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{٢٦} فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{٢٧} وَعِنَباً وَقَضْباً{٢٨} وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{٢٩} وَحَدَائِقَ غُلْباً{٣٠} وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{٣١} مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{٣٢} فَإِذَا جَاءتِ الصَّآخَّةُ{٣٣} يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{٣٤} وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{٣٥} وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{٣٦} لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ{٣٧} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{٣٨} ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{٣٩} وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{٤٠} تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{٤١} أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{٤٢}

يجيء الإسلام ليقول (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فيضرب صفحا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس ، العنيفة الضغط على مشاعرهم ، الشديدة الجاذبية إلى الأرض . ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء ، المعترف بها وحدها في ميزان السماء ! ثم يجيء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة . وليقرر معها المبدأ الأساسى:وهو أن الميزان ميزان السماء ، والقيمة قيمة السماء . وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس ، وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات ، لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده ! ويجيء الرجل الأعمى الفقير . . ابن أم مكتوم . . إلى رسول الله ﷺ وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش . عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبي جهل عمرو بن هشام ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، ومعهم العباس بن عبد المطلب . . والرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ؛ ويرجو بإسلامهم خيرا للإسلام في عسرته وشدته التى كان فيها بمكة ; وهؤلاء النفر يقفون في طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم ؛ ويصدون الناس عنه ، ويكيدون له كيدا شديدا حتى ليجمدوه في مكة تجميدا ظاهرا . بينما يقف الآخرون خارج مكة , لا يقبلون على الدعوة التى يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها ، وأشدهم عصبية له , في بيئة جاهلية قبلية ، تجعل

لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار . يجيء هذا الرجل ، فيقول لرسول الله ﷺ يا رسول الله أقرئنى وعلمنى مما علمك الله . . ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول ﷺ بما هو فيه من الأمر . فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه . وتظهر الكراهية في وجهه – الذى لا يراه الرجل – فيعبس ويعرض . يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذى يعطله عن الأمر الخطير . الأمر الذى يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير ؛ والذى تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه , وإخلاصه لأمر دعوته ، وحبه لمصلحة الإسلام ، وحرصه على انتشاره ! وهنا تتدخل السماء (يقصد العناية الإلهية) تتدخل لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر ؛ ولتضع معالم الطريق كله , ولتقرر الميزان الذى توزن فيه القيم – بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات . بما في ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر . بل كما يراها سيد البشر ﷺ. وهنا يجيء العتاب من الله العلى الأعلى لنبيه الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، في أسلوب عنيف شديد . وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب – سبحانه – أن يواجه به نبيه وحبيبه . عطفا عليه ، ورحمة به ، وإكراما له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه ! ثم يستدير التعبير – بعد مواراة الفعل الذي نشأ عنه العتاب – يستدير إلى العتاب في صيغة الخطاب . فيبدأ هادئا شيئا ما (وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟) ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير – الذي جاءك راغبا فيما عندك من الخير – وأن يتيقظ قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . وما يدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله ، فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء ؟ الأمر الذى يتحقق كلما تفتح قلب للهدى وتمت حقيقة الإيمان فيه . وهو الأمر العظيم الثقيل في ميزان الله . ثم تعلو نبرة العتاب وتشتد لهجته ؛ وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب (أما من استغنى ، فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى ؟! وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟!) أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة . . أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره ، وتجهد لهدايته ، وتتعرض له وهو عنك معرض !(وما عليك ألا يزكى ؟) وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه ؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه . وأنت لا تنصر به . وأنت لا تقوم بأمره (وأما من جاءك يسعى) طائعا مختارا (وهو يخشى) ويتوقى (فأنت عنه تلهى !) ويسمى الإنشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقى تلهيا . وهو وصف شديد . . ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر (كلا !) لا يكن ذلك أبدا . وهو خطاب يسترعى النظر في هذا المقام . ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعتها ، واستغناءها عن كل أحد . وعن كل سند وعنايتها فقط بمن يريدها لذاتها ، كائنا ما كان وضعه ووزنه في موازين الدنيا(إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدى سفرة . كرام بررة) فهى كريمة في كل اعتبار . كريمة في صحفها ، المرفوعة المطهرة الموكل بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليبلغوها . وهم كذلك كرام بررة . . فهى كريمة طاهرة في كل ما يتعلق بها ، وما يمسها من قريب أو من بعيد . وهى عزيزة لا يتصدى بها للمعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ؛ فهى فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها . . هذا هو الميزان . ميزان الله . الميزان الذى توزن به القيم والإعتبارات ، ويقدر به الناس والأوضاع . . وهذه هي الكلمة . كلمة الله . الكلمة التى ينتهى إليها كل قول , وكل حكم ، وكل فصل . وأين هذا ؟ ومتى ؟ في مكة ، والدعوة مطاردة ، والمسلمون قلة . والتصدى للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ؛ والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصى . إنما هى الدعوة أولا وأخيرا . ولكن الدعوة إنما هى هذا الميزان ، وإنما هي هذه القيم , وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم في حياة البشر . فهى لا تعز ولا تقوى ولا تنصر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم . ولقد انفعلت نفس الرسول ﷺ لهذا التوجيه ، ولذلك العتاب . انفعلت بقوة وحرارة , واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلها ، وفي حياة الجماعة المسلمة . بوصفها هى حقيقة الإسلام الأولى . وكانت الحركة الأولى له ﷺ هى إعلان ما نزل له من التوجيه والعتاب في الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقا . أمر لا يقوى عليه إلا رسول ، من أى جانب نظرنا إليه في حينه . وبعد تقرير تلك الحقيقة الكبيرة في ثنايا التعقيب على ذلك الحادث ، في المقطع الأول من السورة ، يعجب السياق في المقطع الثانى من أمر هذا الإنسان ، الذى يعرض عن الهدى , ويستغنى عن الإيمان ، ويستعلى على الدعوة إلى ربه . . يعجب من أمره وكفره ، وهو لا يذكر مصدر وجوده ، وأصل نشأته ، ولا يرى عناية الله به وهيمنته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة ؛ ولا يؤدى ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه (قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شيء خلقه ! من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا ! لما يقض ما أمره) (قتل الإنسان !) فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه . . فهى صيغة تفظيع وتقبيح وتشنيع لأمره . وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته . ما أكفره ! . ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته . ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه

، ولتواضع فى دنياه ، ولذكر آخرته . . وإلا فعلام يتكبر ويستغنى ويعرض ؟ وما هو أصله وما هو مبدؤه ؟ (من أى شىء خلقه ؟) إنه أصل متواضع زهيد يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتدبيره (من نطفة خلقه فقدره) من هذا الشىء الذى لا قيمة له ؛ ومن هذا الأصل الذى لا قوام له . . ولكن خالقه هو الذى قدره . قدره (ثم السبيل يسره) فمهد له سبيل الحياة . أو مهد له سبيل الهداية . ويسره لسلوكه بما أودعه من خصائص واستعدادات . سواء لرحلة الحياة ، أو للإهتداء فيها . حتى إذا انتهت الرحلة ، صار إلى النهاية التى يصير إليها كل حى . بلا اختيار ولا فرار (ثم أماته فأقبره) فأمره فى نهايته كأمره فى بدايته ، فى يد الذى أخرجه إلى الحياة حين شاء ، وأنهى حياته حين شاء ، وجعل مثواه جوف الأرض ، كرامة له ورعاية ، ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر . وأودع فطرته الحرص على مواراة ميته وقبره . فكان هذا طرفا من تدبيره له وتقديره . حتى إذا حان الموعد الذى اقتضته مشيئته ، أعاده إلى الحياة لما يراد به من الأمر(ثم إذا شاء أنشره) فليس متروكا سدى ؛ ولا ذاهبا بلا حساب ولا جزاء . . فهل تراه تهيأ لهذا الأمر واستعد ؟ (كلا ! لما يقض ما أمره) الإنسان عامة ، بأفراده جملة ، وبأجياله كافة . . لما يقض ما أمره . . إلى آخر لحظة فى حياته . وهو الإيحاء الذى يلقيه التعبير بلما . كلا إنه لمقصر ، لم يؤد واجبه . لم يذكر أصله ونشأته حق الذكرى . . ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر . ولم يقض هذه الرحلة على الأرض فى الاستعداد ليوم الحساب والجزاء . . هو هكذا فى مجموعه . فوق أن الكثرة تعرض وتتولى ، وتستغنى وتتكبر على الهدى ! وينتقل السياق إلى لمسة أخرى فى مقطع جديد . . فتلك هى نشأة هذا الإنسان . . فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه فى هذه الرحلة ؟ وهى شىء واحد من أشياء يسرها له خالقه ؟ (فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم) هذه هى قصة طعامه . مفصلة مرحلة مرحلة . هذه هى فلينظر إليها ؛ فهل له من يد فيها ? هل له من تدبير لأمرها ؟ إن اليد التى أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته ، هى ذاتها اليد التى أخرجت طعامه وأبدعت قصته (فلينظر الإنسان إلى طعامه) ألصق شىء به ، وأقرب شىء إليه ، وألزم شىء له . . لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضرورى الحاضر المكرر . لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة ، فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب . وهى معجزة كمعجزة خلقه ونشأته . وكل خطوة من خطواتها بيد القدرة التى أبدعته: إنا صببنا الماء صبا . . وصب الماء فى صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان فى كل بيئة ، فى أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهى حقيقة يخاطب بها كل إنسان . فأما حين تقدم الإنسان فى المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهدا من هذا المطر الذى يتكرر اليوم ويراه كل أحد . وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التى يتبخر ماؤها ثم ينزل فى صورة مطر ، أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولا فى السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا ! ذلك كان أول قصة الطعام (أنا صببنا الماء صبا) ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء فى أى صورة من صوره ، وفى أى تاريخ لحدوثه ؛ ولا أنه صبه على الأرض صبا ، لتسير قصة الطعام فى هذا الطريق ! (ثم شققنا الأرض شقا) وهذه هى المرحلة التالية لصب الماء . وهى صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائى الذى يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته ، وتدبير غير تدبيره . ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها . أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق وينمو على وجهها ، ويمتد فى الهواء فوقها .

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصوير فى هذا النص . وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذى حدث ، وهو الذى تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة فى القصة هى النبات بكل صنوفه وأنواعه . التى يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين ، وأعمها فى طعام الناس والحيوان (فأنبتنا فيها حبا) وهو يشمل جميع الحبوب . ما يأكله الناس فى أية صورة من صوره ، وما يتغذى به الحيوان فى كل حالة من حالاته (وعنبا وقضبا) والعنب معروف . والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التى تقطع مرة بعد أخرى (وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا) والزيتون والنخل معروفان لكل عربى والحدائق جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها و(غلبا) جمع غلباء . أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار . والفاكهة من ثمار الحدائق و "الأب" أغلب الظن أنه الذى ترعاه الأنعام . وهو الذى سأل عنه عمر بن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوما !

هذه هى قصة الطعام . كلها من إبداع اليد التى ابدعت الإنسان . وليس فيها للإنسان يد يدعيها ، فى أية مرحلة من مراحلها . . حتى الحبوب والبذور التى قد يلقيها هو فى الأرض . . إنه لم يبدعها ، ولم يبتدعها . والمعجزة فى إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه . والتربة واحدة بين يديه ، ولكن البذور

والحبوب منوعة ، وكل منها يؤتى أكله فى القطع المتجاورات من الأرض . وكلها تسقى بماء واحد ، ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ؛ وتحفظ فى البذرة الصغيرة خصائص أمها التى ولدتها فتنقلها إلى بنتها التى تلدها . . كل أولئك فى خفية عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضى أمرها ، ولا يستشار فى شأن من شؤونها (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل أمرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . . وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة) فهذه هى خاتمة المتاع . وهذه هى التى تتفق مع التقدير الطويل ، والتدبير الشامل ,لكل خطوة وكل مرحلة فى نشأة الإنسان . وفى هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع . مع الذى جاء يسعى وهو يخشى . والذى استغنى وأعرض عن الهدى . ثم هذان هما فى ميزان الله" . والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صماخ الأذن ، وهو يشق الهواء شقا ، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا ! وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذى يليه:مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه) أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ؛ ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا ، وتقطع تلك الوشائج تقطيعا . والهول فى هذا المشهد هول نفسى بحت ، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها . ويستبد بها استبدادا . فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من الهم الخاص به ، الذى لا يدع له فضلة من وعى أو جهد (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفى طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخصر ولا أشمل من هذا التعبير ، لتصوير الهم الذى يشغل الحس والضمير (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه)! ذلك حال الخلق جميعا فى هول ذلك اليوم . . إذا جاءت الصاخة . . ثم يأخذ فى تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين ، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك (وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة) فهذه وجوه مستنيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة ، راجية فى ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . فهى تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هى قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل (ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة) فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض . وقد عرفت ما قدمت فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء (أولئك هم الكفرة الفجرة) الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته ، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرماته .

سورة التكوير

مكية ، و آياتها ٢٩

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج فى كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بنى الإنسان .

والثانية حقيقة الوحى ، وما يتعلق بها من صفة الملك الذى يحمله ، وصفة النبى الذى يتلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحى معه ، ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم ونزلت لهم الوحى .

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقالها . فتقلب كل شىء ، وتنثر كل شىء ؛ وتهيج الساكن وتروع الآمن ؛ وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود ; وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا ، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه , وتتشبث به ، فإذا هى فى عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا فى حمى الواحد القهار ، الذى له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان . ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله ، وتأوى إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار . . وفى السورة – مع هذا – ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة ، سواء فى هذا الكون الرائع الذى نراه ، أو فى ذلك اليوم الآخر الذى ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقى هذه وتلك فى حيز السورة الضيق ، فتضغط على الحس وتنفذ إليه فى قوة

وإيحاء . ولولا أن فى التعبير ألفاظا وعبارات لم تعد مألوفة ولا واضحة للقارئ فى هذا الزمان , لآثرت ترك السورة تؤدى بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها ، مالا تؤديه أية ترجمة لها فى لغة البشر ؛ وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق . ولكن لا بد مما ليس منه بد . وقد بعدنا فى زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن !

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ{١} وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ{٢} وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ{٣} وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ{٤} وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ{٥} وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ{٦} وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ{٧} وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ{٨} بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ{٩} وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ{١٠} وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ{١١} وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ{١٢} وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ{١٣} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ{١٤} فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{١٥} الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{١٦} وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{١٧} وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{١٨} إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{١٩} ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{٢٠} مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{٢١} وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{٢٢} وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{٢٣} وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{٢٤} وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{٢٥} فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{٢٦} إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{٢٧} لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{٢٨} وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ){٢٩}

(إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت:بأى ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت . . علمت نفس ما أحضرت) هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذى يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر , وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويعلم كل مجهول ؛ وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد فى موقف الفصل والحساب . وكل شىء من حولها عاصف ؛ وكل شىء من حولها مقلوب ! إن تكوير الشمس قد يعنى برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتهبة التى تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها فى الفضاء . وانكدار النجوم قد يكون معناه انتشارها من هذا النظام الذى يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها . . والله أعلم ما هى النجوم التى يصيبها هذا الحادث . وهل هى طائفة من النجوم القريبة منا . وتسيير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها فى الهواء ، كما جاء فى سورة أخرى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا) فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بثباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها ، وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذى يصيب أما قوله سبحانه (وإذا العشار عطلت). . فالعشار هى النوق الحبالى فى شهرها العاشر . وهى أجود وأثمن ما يملكه العربى . وهى فى حالتها هذه تكون أغلى ما تكون عنده , لأنها مرجوة الولد واللبن ، قريبة النفع . ففى هذا اليوم الذى تقع فيه هذه الأهوال تهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة ، ولا يهتم بشأنها أحد . . والعربى المخاطب ابتداء بهذه الآية لا يهمل هذه العشار ولا ينفض يده منها إلا فى حالة يراها أشد ما يلم به ! (وإذا الوحوش حشرت) فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهى الشاردة فى الشعاب ؛ ونسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها ، ومضت هائمة على وجوهها ، لا تأوى إلى جحورها أو بيوتها كما هى عادتها , ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فكيف بالناس فى ذلك الهول العصيب ؟! وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتى يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها ، وإما بالزلازل والبراكين التى تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها فى بعض . وإما أن يكون معناه التهابها وانفجارها كما قال فى موضع آخر (وإذا البحار فجرت) فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسوجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع فى تفجير الذرة ، وهو أشد هولا . أو على أى نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيرانا هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات فى القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذى عرفته الدنيا ؛ فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشرى يعجز عن تصور هذا الهول ; وتصور جهنم الهائلة التى تنطلق من هذه البحار الواسعة ! (و إذا النفوس زوجت) وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها . ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة فى مجموعة ، كما قال فى موضع آخر (وكنتم أزواجا ثلاثة) أى صنوفا ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . أو فى غير ذلك من التشكيلات المتجانسة ! (وإذا الموءودة سئلت:بأى ذنب قتلت ؟) وقد كان من هوان النفس الإنسانية فى الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر . وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية ، التى جاء الإسلام ليرفع العرب من وهدتها ، ويرفع البشرية كلها . وكان الوأد يتم

في صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يفتنون فى هذا بشتى الطرق . فمنهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون فى السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها:طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها ! وقد حفر لها بئرا فى الصحراء , فيبلغ بها البئر ، فيقول لها:انظرى فيها . ثم يدفعها دفعا ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها وردمتها . وإن كان ابنا قامت به معها ! وبعضهم كان إذا نوى ألا يئد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعى ، فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها فى البادية ترعى له إبله ! فأما الذين لا يئدون البنات ولا يرسلونهن للرعى ، فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس . كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد فإن أعجبته تزوجها ، لاعبرة برغبتها هى ولا إرادتها ! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أو أن تفتدى نفسها منه بمال فى هذه الحالة أو تلك . . وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح غيره إلا من أراد . إلا أن تفتدى نفسها منه بما كان أعطاها . . وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها . . وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها ! أو يزوجها من ابنه الصغير طمعا فى مالها أو جمالها فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الوأد ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعا من موضوعات الحساب يوم القيامة . يذكره فى سياق هذا الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كونى من هذه الأحداث العظام . ويقول:إن الموءودة ستسأل عن وأدها . . فكيف بوائدها ؟! وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبدا ؛ لولا أن تتنزل بها شريعة الله ونهجه فى كرامة البشرية كلها ، وفى تكريم الإنسان:الذكر والأنثى ؛ وفى رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلى الأعلى . فمن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التى جاء بها الإسلام ، لا من أى عامل من عوامل البيئة (وإذا الصحف نشرت) صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوأة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكراها ، ويرجف ويذوب من كشفها ! ثم إذا هى جميعها فى ذلك اليوم منشورة مشهودة ! وهذا التكشف فى خفايا الصدور يقابله فى الكون مشهد مثله (وإذا السماء كشطت) وأول ما يتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس . وكشطها إزالتها . . فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشىء . ولكنا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأى سبب يغير هذه الأوضاع الكونية , التى توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفى . .

ثم تجىء الخطوة الأخيرة فى مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب (وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت) حيث تتوقد الجحيم وتتسعر ، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها . . أما أين هى ؟ وكيف تتسعر وتتوقد ؟ وبأى شىء تتوقد ؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى (وقودها الناس والحجارة) وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها ! عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها ، فى كيان الكون ، وفى أحوال الأحياء والأشياء . عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك فى حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم , وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب (علمت نفس ما أحضرت) كل نفس تعلم ، فى هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها . . تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها . . تعلم وهى لا تملك أن تغير شيئا مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه . . تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود فى حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شىء وتبدل كل شىء , ولم يبقى إلا وجه الله الكريم ، الذى لا يتحول ولا يتبدل . . فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده – سبحانه – عندما يتحول الكون كله ويتبدل ! وبهذا الإيقاع ينتهى المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذى يتم فيه هذا الانقلاب . ثم يجىء المقطع الثانى فى السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة ، تختار لها تعبيرات أنيقة . . القسم على طبيعة الوحى ، وصفة الرسول الذى يحمله ، والرسول الذى يتلقاه ، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس) والخنس الجوار الكنس . . هى الكواكب التى تخنس أى ترجع فى دورتها الفلكية وتجرى وتختفى . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهى تجرى وتختبئ فى كناسها وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب , وهناك إيحاء شعورى بالجمال فى حركتها . فى اختفائها وفى ظهورها . فى تواريها وفى سفورها . فى جريها وفى عودتها . يقابله إيحاء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه (والليل إذا عسعس). . أى إذا أظلم . ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين:عس . عس . وهو يوحى بجرسه بحياة فى هذا الليل ، وهو يعس فى الظلام بيده أو برجله لا يرى ! وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير رائع ومثله (والصبح إذا تنفس) بل هو أظهر حيوية ، وأشد

إيحاء . والصبح حي يتنفس . أنفاسه النور والحياة والحركة التى تدب فى كل حي . وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوى نظيرا لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التى يشعر بها القلب المتفتح . وكل متذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس , والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس) ثروة شعورية وتعبيرية . فوق ما يشير إليه من حقائق كونية . ثروة جميلة بديعة رشيقة ؛ تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر , وهى تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر (إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين) إن هذا القرآن ، وهذا الوصف لليوم الآخر . لقول رسول كريم . . وهو جبريل الذى حمل هذا القول وأبلغه . . فصار قوله باعتبار تبليغه . ويذكر صفة هذا الرسول ، الذى اختير لحمل هذا القول وإبلاغه (كريم) عند ربه . فربه هو الذى يقول (ذى قوة) مما يوحي بأن هذا القول يحتاج فى حمله إلى قوة (عند ذى العرش مكين) فى مقامه ومكانته . وعند من ؟ عند ذى العرش العلى الأعلى (مطاع ثم) هناك فى الملأ الأعلى (أمين) على ما يحمل وما يبلغ . وهذه الصفات فى مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه . كما توحى بعناية الله سبحانه بالإنسان ، حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه ، ويبلغ الوحى إلى النبى المختار منه . . وهى عناية تخجل هذا الكائن , الذى لا يساوى فى ملك الله شيئا ، لولا أن الله – سبحانه – يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة ! فهذه صفة الرسول الذى حمل القول وأداه ، فأما الرسول الذى حمله إليكم فهو (صاحبكم) عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا . فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون . وتذهبون فى أمره المذاهب ، وهو(صاحبكم) الذى لا تجهلون . وهو الأمين على الغيب الذى يحدثكم عنه عن يقين (وما صاحبكم بمجنون . ولقد راه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين) ولقد قالوا عن النبى الكريم الذى يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتثبته ، قالوا عنه:إنه مجنون . وإن شيطانا يتنزل عليه بما يقول . قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار . وقاله بعضهم عجبا ودهشة من هذا القول الذى لا يقوله البشر فيما يألفون ويعهدون . وتمشيا مع ظنهم أن لكل شاعر شيطانا يأتيه بالقول الفريد . وأن لكل كاهن شيطانا يأتيه بالغيب البعيد . وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق ، وهو أنه وحى وتنزيل من رب العالمين . فجاء القرآن يحدثهم فى هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع ، وحيوية مشاهده الجميلة . ليوحى إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة ، التى أنشأت ذلك الجمال . على غير مثال . وليحدثهم بصفة الرسول الذى حمله ، والرسول الذى بلغه . وهو صاحبهم الذى عرفوه . غير مجنون . والذى رأى الرسول الكريم – جبريل – حق الرؤية , بالأفق المبين الواضح الذى تتم فيه الرؤية عن يقين . وأنه ﷺ لمؤتمن على الغيب ، لا تظن به الظنون فى خبره الذى يرويه عنه ، فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين (وما هو بقول شيطان رجيم) فالشياطين لا توحي بهذا النهج القويم . ويسألهم مستنكرا (فأين تذهبون ؟) أين تذهبون فى حكمكم وقولكم ؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يواجهكم أينما ذهبتم ! (إن هو إلا ذكر للعالمين) ذكر يذكرهم بحقيقة وجودهم ، وحقيقة نشأتهم ، وحقيقة الكون من حولهم (للعالمين) فهو دعوة عالمية من أول مرحلة . والدعوة فى مكة محاصرة مطاردة . كما تشهد مثل هذه النصوص المكية . وأمام هذا البيان الموحي الدقيق يذكرهم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير (لمن شاء منكم أن يستقيم) أن يستقيم على هدى الله ، فى الطريق إليه ، بعد هذا البيان ، الذى يكشف كل شبهة , وينفى كل ريبة ، ويسقط كل عذر . ويوحى إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وذلك كى لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التى يرجع إليها كل أمر . فإعطاؤهم حرية الاختيار ، ويسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شيء كان أو يكون ! وهذه النصوص التى يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق ، يراد بها تصحيح التصور الإيمانى وشموله للحقيقة الكبيرة:حقيقة أن كل شيء فى هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتدبير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة المطلقة لما يؤمرون ، والقدرة الكاملة على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدرة على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان . ولا بد من إقرار هذه الحقيقة فى تصور المؤمنين ، ليدركوا ما هو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها فى كل ما يأخذون وما يدعون فى الطريق !

سورة الانفطار

مكية ، و آياتها ١٩

تتحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكونى الذى تتحدث عنه سورة التكوير . ولكنها تتخذ لها شخصية أخرى ، وسمتا خاصا بها ، وتتجه إلى مجالات خاصة بها تطوف بالقلب البشرى فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد . هادئ عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان فى طياته وعيد ! ومن ثم فإنها تختصر فى مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هى طابع السورة الغالب - كما هو الشأن فى سورة التكوير - لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ . . وكذلك إيقاع السورة الموسيقى . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق فى شخصية السورة والتوافق ! إنها تتحدث فى المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، فى ذلك اليوم الخطير . . وفى المقطع الثانى تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذى يتلقى من ربه فيوض النعمة فى ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ،ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ؟ فى أى صورة ما شاء ركبك) وفى المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهى التكذيب بالدين - أى بالحساب - وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب توكيدا ,ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم (كلا . بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين) فأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ,وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل (وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله) فالسورة فى مجموعها حلقة فى سلسلة الإيقاعات والطرقات التى يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ{١} وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ{٢} وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ{٣} وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ{٤} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ{٥} يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{٦} الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{٧} فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ{٨} كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{٩} وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{١٠} كِرَاماً كَاتِبِينَ{١١} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{١٢} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{١٤} يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{١٥} وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{١٦} وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{١٧} ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{١٨} يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ{١٩}

(إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت) يذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء . أى انشقاقها . فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب . أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التى تكون . وكل ما يستقر فى الحس هو مشهد التغير العنيف فى هيئة الكون المنظور ، وانتهاء نظامه هذا المعهود ، وانفراط عقده ، الذى يمسك به فى هذا النظام الدقيق . ويشارك فى تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتثار الكواكب . بعد تماسكها هذا الذى تجرى معه فى أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهى ممسكة فى داخل مداراتها لا تتعداها ،ولا تهيم على وجهها فى هذا الفضاء الذى لا يعلم أحد له نهاية . ولو انتثرت - كما سيقع لها يوم ينتهى أجلها - وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق - غير المنظور - الذى يشدها ويحفظها ، لذهبت فى الفضاء بددا ، كما تذهب الذرة التى تنفلت من عقالها ! وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليابسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه:الأكسوجين والهيدروجين ؛ فتتحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين - كما يقع فى تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم . . فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبرهذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة ! . . أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال . . إنما هو الهول الذى لم تعهده أعصاب البشر فى حال من الأحوال ! وبعثرة القبور . . إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة . وإما أن تكون حادثا بذاته يقع فى ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التى أعاد الله إنشاءها - كما أنشأها أول مرة - لتتلقى حسابها وجزاءها . . يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث (علمت نفس ما قدمت وأخرت) أى ما فعلته أولا وما فعلته أخيرا . أو ما فعلته فى الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها . أو ما استمتعت به فى الدنيا

وحدها ، وما ادخرته للآخرة بعدها . على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحبا لتلك الأهوال العظام . وواحدا منها مروعا لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها ! والتعبير القرآنى الفريد يقول (علمت نفس) وهو يفيد من جهة المعنى:كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع . . كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت . فلهذا العلم وقعه العنيف الذى يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة . والتعبير يلقى هذا الظل دون أن يذكره نصا . فإذا هو أرشق كذلك وأوقع ! وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر ، يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر ، فإذا هو غافل لاه سادر . . هنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضى , وفيها وعيد خفى ، وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه:نعمة خلقه فى هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه فى أى صورة تتجه إليها مشيئته . ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . . وهو لا يشكر ولا يقدر إن هذا الخطاب (يا أيها الإنسان) ينادى فى الإنسان أكرم ما فى كيانه ، وهو" إنسانيته" التى بها تميز عن سائر الأحياء ؛ وارتفع إلى أكرم مكان ؛ وتجلى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه . ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل (ما غرك بربك الكريم ؟) يا أيها الإنسان الذى تكرم عليك ربك ، راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . . يا أيها الإنسان ما الذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ؟ وهو ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ؛ ومن هذا الإغداق إنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغى وما لا ينبغى فى جانبه (الذى خلقك فسواك فعدلك ؟). . إنه خطاب يهز كل ذرة فى كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه ، وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل , ويذكره هذا الجميل ، بينما هو سادر فى التقصير ، سيء الأدب فى حق مولاه الذى خلقه فسواه فعدله . . إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة , أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم , الذى أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلا منه ورعاية ومنة . فقد كان قادرا أن يركبه فى أية صورة أخرى يشاؤها . فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله . وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء ! وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسانى العضوى ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل فى عرض عجائب هذا التكوين . ولكنا نكتفى بالإشارة إلى بعضها . . ثم يكشف عن علة الغرور والتقصير – وهى التكذيب – بيوم الحساب – ويقرر حقيقة الحساب , واختلاف الجزاء ، فى توكيد وتشديد (كلا ! بل تكذبون بالدين .) وكلا كلمة ردع وزجر عما هم فيه . وبل كلمة إضراب عما مضى من الحديث . ودخول فى لون من القول جديد . لون البيان والتقرير والتوكيد . وهو غير العتاب والتذكير والتصوير . . تكذبون بالحساب والمؤاخذة والجزاء . وهذه هى علة الغرور , وعلة التقصير . فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف ، فتطيع ربها وتعبده حبا فيه ، لا خوفا من عقابه , ولا طمعا فى ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع إليه ، لتلقى ربها الذى تحبه وتشتاق لقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يكذب الإنسان تكذيبا بهذا اليوم ، فلن يشتمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير . تكذبون بيوم الدين . . وأنتم صائرون إليه ، وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لا يضيع منه شيء ، ولا ينسى منه شيء (وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون) وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان – من الملائكة – التى ترافقه , وتراقبه , وتحصى عليه كل ما يصدر عنه . . ونحن لا ندرى كيف يقع هذا كله ، ولسنا بمكلفين أن نعرف كيفيته . فالله يعلم أننا لم نوهب الاستعداد لإدراكها . وأنه لا خير لنا فى إدراكها . لأنها غير داخلة فى وظيفتنا وفى غاية وجودنا . فلا ضرورة للخوض فيما وراء المدى الذى كشفه الله لنا من هذا الغيب . ويكفى أن يشعر القلب البشرى أنه غير متروك سدى . وأن عليه حفظة كراما كاتبين يعلمون ما يفعله ، ليرتعش ويستيقظ , ويتأدب ! وهذا هو المقصود ! ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة ، فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم (كراما) ليستجيش فى القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام . فإن الإنسان ليحتشم ويستحيى وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل فى لفظ أو حركة أو تصرف . . فكيف به حين يشعر ويتصور أنه فى كل لحظاته وفى كل حالاته فى حضرة حفظة من الملائكة (كرام) لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال ؟! ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب ، القائم على ما يكتبه الكرام الكاتبون (إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين فهو مصير مؤكد ، وعاقبة مقررة . أن ينتهى الأبرار إلى النعيم . وأن ينتهى الفجار إلى الجحيم . والبر هو الذى يأتى أعمال البر حتى تصبح له عادة وصفة ملازمة . وأعمال البر هى كل خير على الإطلاق . والصفة تتناسق فى ظلها مع الكرم والإنسانية . كما أن الصفة التى

تقابلها (الفجار) فيها سوء الأدب والتوقح فى مقارفة الإثم والمعصية . والجحيم هى كفء للفجور ! ثم يزيد حالهم فيها ظهورا (يصلونها يوم الدين) ويزيدها توكيدا وتقريرا (وما هم عنها بغائبين) لا فرارا ابتداء . ولا خلاصا بعد الوقوع فيها ولو إلى حين ! فيتم التقابل بين الأبرار والفجار . وبين النعيم والجحيم . مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم ! ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه . يعود إليه ليقرر حقيقته الذاتية فى تضخيم وتهويل بالتجهيل وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة فى عون أو تعاون . وليقرر تفرد الله بالأمر فى ذلك اليوم العصيب (وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟) والسؤال للتجهيل مألوف فى التعبير القرآنى . وهو يوقع فى الحس أن الأمر أعظم جدا وأهول جدا من أن يحيط به إدراك البشر المحدود . فهو فوق كل تصور وفوق كل توقع وفوق كل مألوف . وتكرار السؤال يزيد فى الاستهوال . ثم يجىء البيان بما يتناسق مع هذا التصوير (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) فهو العجز الشامل . وهو الشلل الكامل . وهو الانحسار والانكماش والانفصال بين النفوس المشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس ! (والأمر يومئذ لله) يتفرد به سبحانه . وهو المتفرد بالأمر فى الدنيا والآخرة . ولكن فى هذا اليوم – يوم الدين – تتجلى هذه الحقيقة التى قد يغفل عنها فى الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون ! ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل فى نهاية السورة ، مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج فى مطلعها . وينحصر الحس بين الهولين . . وكلاهما مذهل مهيب رعيب ! وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب !

سورة المطففين

مكية ، و آياتها ٣٦

هذه السورة تصور قطاعا من الواقع العملى الذى كانت الدعوة تواجهه فى مكة – إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب ، وهز المشاعر ، وتوجيهها إلى هذا الحدث الجديد فى حياة العرب وفى حياة الإنسانية ، وهو الرسالة السماوية للأرض ، وما تتضمنه من تصور جديد شامل محيط . هذا القطاع من الواقع العملى تصوره السورة فى أولها ، وهى تتهدد المطففين بالويل فى اليوم العظيم (يوم يقوم الناس لرب العالمين) كما تصوره فى ختامها وهى تصف سوء أدب الذين أجرموا مع الذين آمنوا ، وتغامزهم عليهم ، وضحكهم منهم ، وقولهم عنهم (إن هؤلاء لضالون !) وهذا إلى جانب ما تعرضه من حال الفجار وحال الأبرار ؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء فى ذلك اليوم العظيم . وهى تتألف من أربعة مقاطع . . يبدأ المقطع الأول منها بإعلان الحرب على المطففين (ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ؛ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين) ويتحدث المقطع الثانى عن الفجار فى شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودمغ بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الانطماس ، وتصوير لجزائهم يوم القيامة ، وعذابهم بالحجاب عن ربهم ، كما حجبت الآثام فى الأرض قلوبهم ، ثم بالجحيم مع الترذيل والتأنيب (كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ما سجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ! الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال:هذا الذى كنتم به تكذبون) والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم . والنعيم المقرر لهم . ونضرته التى تفيض على وجوههم . والرحيق الذى يشربون وهم على الأرائك ينظرون . . وهى صفحة ناعمة وضيئة (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون . إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك – وفى ذلك فليتنافس المتنافسون – ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون) والمقطع الأخير يصف ما كان الأبرار يلاقونه فى عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع فى مقابله ما آل إليه أمر الأبرار وأمر الفجار فى عالم الحقيقة الدائم الطويل (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا:إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) والسورة فى عمومها تمثل جانبا من بيئة الدعوة ، كما تمثل جانبا من أسلوب الدعوة فى مواجهة واقع البيئة ، وواقع النفس البشرية . . . وهذا ما سنحاول الكشف عنه فى عرضنا للسورة بالتفصيل . .

(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{١} الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{٢} وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{٣} أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ{٤} لِيَوْمٍ عَظِيمٍ{٥} يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{٦} كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفِجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{٧} وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{٨} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{٩} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{١٠} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{١١} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{١٢} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{١٣} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{١٤} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{١٥} ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{١٦} ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{١٧} كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{١٨} وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{١٩} كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{٢٠} يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{٢١} إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{٢٢} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{٢٣} تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{٢٤} يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{٢٥} خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{٢٦} وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{٢٧} عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{٢٨} إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ{٢٩} وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ{٣٠} وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ{٣١} وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ{٣٢} وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ{٣٣} فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{٣٤} عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{٣٥} هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ){٣٦}

تبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين (ويل للمطففين) والويل: هو الهلاك . وسواء كان المراد هو تقرير أن هذا أمر مقضى ، أو أن هذا دعاء . فهو فى الحالين واحد فالدعاء من الله قرار . . وتفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين . فهم (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة . ويعطونها للناس ناقصة إذا كانوا بائعين . ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين ، الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب على ما يكسبون فى الحياة الدنيا ؛ وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدى الله فى يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟) والتصدى لشأن المطففين بهذا الأسلوب فى سورة مكية أمر يلفت النظر . فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية:كتقرير وحدانية الله ، وانطلاق مشيئته , وهيمنته على الكون والناس . وكحقيقة الوحى والنبوة . وكحقيقة الآخرة والحساب والجزاء . مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية فى عمومها ، وربطها بأصول العقيدة . أما التصدى لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق – كمسألة التطفيف فى الكيل والميزان – والمعاملات بصفة عامة ، فأمر جاء متأخرا فى السورة المدنية عند التصدى لتنظيم حياة المجتمع فى ظل الدولة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامى ، الشامل للحياة . ومن ثم فإن التصدى لهذا الأمر بذاته فى هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه . وهو يشى بعدة دلالات متنوعة ، تكمن وراء هذه الآيات القصار . .

إنه يدل أولا على أن الإسلام كان يواجه فى البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء ، الذين كانوا فى الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة ، التى تكاد تكون احتكارا . فقد كانت هنالك أموالا ضخمة فى أيدى هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل فى رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام . كما افتتحوا أسواقا موسمية كسوق عكاظ فى موسم الحج ، يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار ! والنصوص القرآنية هنا تشى بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل ، ويعلن عليهم هذه الحرب ، كانوا طبقة الكبراء ذوى النفوذ ، الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون . فهم يكتالون (على الناس) لا من الناس . . فكأن لهم سلطانا على الناس بسبب من الأسباب ، يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسرا . وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقا . وإلا فليس فى هذا ما يستحق إعلان الحرب عليهم . إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم ، ويستوفون ما يريدون إجبارا . فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حق الناس ، دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفة ولا استيفاء حق . . ويستوى أن يكون هذا بسلطان الرياسة والجاه القبلى . أو بسلطان المال وحاجة الناس لما فى أيديهم منه ؛ واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هذا الجور منهم ؛ كما يقع حتى الآن فى الأسواق . . فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحقت هذه اللفتة المبكرة . ومن ثم ندرك طرفا من الأسباب الحقيقية التى جعلت كبراء قريش يقفون فى وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة . فهم كانوا يدركون – ولا ريب – أن هذا الأمر الجديد الذى جاءهم به محمد ﷺ ليس مجرد عقيدة تكمن فى الضمير ، ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة ، بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وصلاة يقيمونها لله بلا أصنام ولا أوثان . . كلا . لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعنى منهجا يحطم كل أساس الجاهلية التى تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم . وأن طبيعة هذا المنهج لا تقبل مثنوية ولا تلتئم مع عنصر أرضى غير منبثق من عنصرها السماوى ؛ وأنها تهدد كل المقومات الأرضية الهابطة التى تقوم عليها الجاهلية . . ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التى لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها . الحرب التى

تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها فى وجه الأوضاع الإسلامية . لا عن مجرد الاعتقاد والتصور المجردين . . والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامى على حياة البشر فى كل جيل وفى كل أرض يدركون هذه الحقيقة . يدركونها جيدا . ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة ، ومصالحهم المغتصبة , وكيانهم الزائف . . وسلوكهم المنحرف . . هذه كلها هى التى يهددها المنهج الإسلامى القويم الكريم ! والطغاة البغاة الظلمة المطففون – فى أية صورة من صور التطفيف فى المال أو فى سائر الحقوق والواجبات – هم الذين يشفقون أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف ! الذى لا يقبل المساومة ، ولا المداهنة ، ولا أنصاف الحلول ؟ (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟) وإن أمرهم لعجيب . فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه ، وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولى ولا نصير . . إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفى ليصدهم عن التطفيف ، وأكل أموال الناس بالباطل ، واستخدام السلطان فى ظلم الناس وبخسهم حقهم فى التعامل . . ولكنهم ماضون فى التطفيف كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ! وهو أمر عجيب ، وشأن غريب ! وقد سماهم المطففين فى المقطع الأول . فأما فى المقطع الثانى فيسميهم الفجار . إذ يدخلهم فى زمرة الفجار ، ويتحدث عن هؤلاء . يتحدث عن اعتبارهم عند الله ، وعن حالهم فى الحياة . وعما ينتظرهم يوم يبعثون ليوم عظيم إنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم . . فالقرآن يردعهم عن هذا ويزجرهم ، ويؤكد أن لهم كتابا تحصى فيه أعمالهم . . ويحدد موضعه زيادة فى التوكيد . ويوعدهم بالويل فى ذلك اليوم الذى يعرض فيه كتابهم المرقوم (كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ما سجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين)! والفجار هم المتجاوزون للحد فى المعصية والإثم . واللفظ يوحى بذاته بهذا المعنى . وكتابهم هو سجل أعمالهم . ولا ندرى نحن ماهيته ولم نكلف هذا . وهو غيب لا نعرف عنه إلا بمقدار ما يخبرنا عنه صاحبه ولا زيادة – فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن:إنه فى سجين . ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود فى التعبير القرآنى (وما أدراك ما سجين ؟) فيلقى ظلال التفخيم ويشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه ، وأضخم من أن يحيط به علمه . ولكنه بقوله (إن كتاب الفجار لفى سجين) يكون قد حدد له موضعا معينا , وإن يكن مجهولا للإنسان . وهذا التحديد يزيد من يقين المخاطب عن طريق الإيحاء بوجود هذا الكتاب . وهذا هو الإيحاء المقصود من وراء ذكر هذه الحقيقة بهذا القدر , دون زيادة . ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول إنه (كتاب مرقوم) أى مفروغ منه ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، حتى يعرض فى ذلك اليوم العظيم . فإذا كان ذلك كان (ويل يومئذ للمكذبين)! ويحدد موضوع التكذيب ، وحقيقة المكذبين (الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال:أساطير الأولين) فالاعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ; وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه (أساطير الأولين) لما يحويه من قصص الأولين المسوقة فيه للعبرة والعظة ، وبيان سنة الله التى لا تتخلف ، والتى تأخذ الناس فى ناموس مطرد لا يحيد . ويعقب على هذا التطاول والتكذيب بالزجر والردع (كلا !) ليس كما يقولون . ثم يكشف عن علة هذا التطاول وهذا التكذيب ؛ وهذه الغفلة عن الحق الواضح وهذا الانطماس فى قلوب المكذبين (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية . والقلب الذى يمرد على المعصية ينطمس ويظلم ؛ ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ، ويفقده الحساسية شيئا فشيئا حتى يتبلد ويموت . عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال:" إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه , فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت " . . وقال الترمذى حسن صحيح . ولفظ النسائى:" إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت فى قلبه نكتة سوداء . فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذى قال الله تعالى (كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) " وقال الحسن البصرى: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت . ذلك حال الفجار المكذبين . وهذه هى علة الفجور والتكذيب . . ثم يذكر شيئا عن مصيرهم فى ذلك اليوم العظيم . يناسب علة الفجور والتكذيب كلا ! إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون (ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال:هذا الذى كنتم به تكذبون) لقد حجبت قلوبهم المعاصى والآثام ، حجبتها عن الإحساس بربها فى الدنيا . وطمستها حتى أظلمت وعميت فى الحياة . . فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق فى الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم ، وأن يحال بينهم وبين هذه السعادة الكبرى ، التى لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها وبين ربها . وهذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان . ونهاية بائسة لإنسان يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه كإنسان كريم ؛ وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم (ثم إنهم لصالوا الجحيم) ومع الجحيم التأنيب وهو أمر من الجحيم (ثم يقال:هذا الذى كنتم به تكذبون) ثم يعرض الصفحة الأخرى . صفحة الأبرار . على العهد بطريقة القرآن فى عرض الصفحتين

متقابلتين في الغالب ، لتتم المقابلة بين حقيقتين وحالين ونهايتين(كلا ! إن كتاب الأبرار لفي عليين) وكلمة (كلا) تجيء فى صدر هذا المقطع زجرا عما ذكر قبله من التكذيب فى قوله (ثم يقال:هذا الذى كنتم به تكذبون) ويعقب عليه بقوله (كلا) ثم يبدأ الحديث عن الأبرار فى حزم وفى توكيد فإذا كان كتاب الفجار في (سجين) فإن كتاب الأبرار في (عليين) والأبرار هم الطائعون الفاعلون كل خير . وهم يقابلون الفجار العصاة المتجاوزين لكل حد . ولفظ (عليين) يوحي بالعلو والارتفاع مما قد يؤخذ منه أن (سجين) يفيد الانحطاط والسفول . ثم يعقب عليه بسؤال التجهيل والتهويل المعهود (وما أدراك ما عليون ؟) فهو أمر فوق العلم والإدراك ! ويعود من هذا الظل الموحى إلى تقرير حقيقة كتاب الأبرار فهو (كتاب مرقوم يشهده المقربون) وقد سبق ذكر معنى مرقوم . ويضاف إليه هنا أن الملائكة المقربين يشهدون هذا الكتاب ويرونه . وتقرير هذه الحقيقة هنا يلقى ظلا كريما طاهرا رفيعا على كتاب الأبرار . فهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة ، ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات . وهذا ظل كريم شفيف ، يذكر بقصد التكريم . ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم ، أصحاب هذا الكتاب الكريم . ويصف ما هم فيه من نعيم فى ذلك اليوم العظيم (إن الأبرار لفي نعيم) يقابل الجحيم الذى ينتهى إليه الفجار (على الأرائك ينظرون) أى إنهم فى موضع التكريم ، ينظرون حيث يشاءون ، لا يغضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة . . وهم على الأرائك وهى الأسرة فى الحجال . وأقرب ما يمثلها عندنا ما نسميه "الناموسية " أو الكلة ! وصورتها الدنيوية كانت أرقى وأرق مظاهر النعيم عند العربى ذى العيشة الخشنة ! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله . وهى على أية حال أعلى من كل ما يعهده الإنسان مما يستمده من تجاربه فى الأرض وتصوراته ! (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم)

وهم فى هذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام ، تفيض النضرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء (يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك) والرحيق هو الشراب الخالص المصفى ، الذى لا غش فيه ولا كدرة . ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك ، قد يفيد أنه معد فى أوانيه ، وأن هذه الأوانى مقفلة مختومة ، تفض عند الشراب , وهذا يلقى ظل الصيانة والعناية ! . كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية ! وهذه الصورة لا يدركها البشر إلا فى حدود ما يعهدون فى الأرض . فإذا كانوا هنالك كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود ! وقبل أن يتم وصف الشراب الذى يجيء فى الآيتين التاليتين (ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) أى أن هذا الرحيق المختوم يفض ختامه ثم يمزج بشيء من هذه العين المسماة (تسنيم) التي (يشرب بها المقربون) قبل أن يتم الوصف يلقى بهذا الإيقاع , وبهذا التوجيه (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) إن أولئك المطففين ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ولا يحسبون حساب اليوم الآخر ,ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية . . إن هؤلاء إنما يتنافسون فى مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق إليه ,وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب ما يرتكب فى سبيل متاع من متاع الأرض زائل . . وكأنما أطال السياق فى عرض صور النعيم الذى ينتظر الأبرار ، تمهيدا للحديث عما كانوا يلقون في الأرض من الفجار . من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء . . وقد أطال فى عرضه كذلك . ليختمه بالسخرية من الكفار ، وهم يشهدون نعيم الأبرار(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون. وإذا مروا بهم يتغامزون)والمشاهد التى يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا ، وسوء أدبهم معهم , وتطاولهم عليهم ، ووصفهم بأنهم ضالون . . مشاهد منتزعة من واقع البيئة فى مكة . ولكنها متكررة فى أجيال وفى مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار فى جميع البيئات والعصور إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم ، وسخرية منهم . إما لفقرهم ورثاثة حالهم . وإما لضعفهم عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء (وإذا مروا بهم يتغامزون) يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أو يشيره بيده ، أو يأتى بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهى حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب , والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار فى قلوب المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة , وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !(وإذا انقلبوا إلى أهلهم) بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم (انقلبوا فكهين) راضين عن أنفسهم ، مبتهجين بما فعلوا ، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير . فلم يتلوموا ولم يندموا ، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا . وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير !(وإذا رأوهم قالوا:إن هؤلاء لضالون)! وهذه أعجب . . فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال . وأن يزعموا حين يرون المؤمنين ، أن المؤمنين ضالون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف فى تشهير وتحقير ، والفجور لا يقف عند حد ، ولا يستحيى من قول ، ولا يتلوم من فعل . واتهام المؤمنين بأنهم

ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون ، إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تجاوز لجميع الحدود ! والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا ، ولا ليناقش طبيعة الفرية . فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم ، ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر:(وما أرسلوا عليهم حافظين . .(وما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وما أقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم ! فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير ! وينهي بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجرموا في الدنيا . . ما كان . . ويطوي هذا المشهد الذي انتهى . ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا في ذلك النعيم (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون) اليوم والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم , فيصلون الجحيم ، مع الترذيل والتأنيب حين يقال (هذا الذي كنتم به تكذبون) اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . في ذلك النعيم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسنيم فاليوم . الذين آمنوا من الكفار يضحكون . والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا (الثواب) المعروف من الكلمة . فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا . فهو ثوابهم إذن . ويا للسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام ! ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته – مشهد سخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا في الدنيا – كما أطال من قبل في عرض مشهد نعيم الأبرار وعرض مناظره ومناعمه . فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري ، كما أنه فن عال في العلاج الشعوري . فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لا يتركهم بلا عون ، من تثبيته وتسريته وتأسيته . وهذا التصوير المفصل لمواجعهم من أذى المشركين ، فيه بلسم لقلوبهم . فربهم هو الذي يصف هذه المواجع . فهو يراها ، وهو لا يهملها – وإن أمهل الكافرين حينا – وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجعهم المتفكهون . وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه في تنزيله . فهو إذن شيء في ميزانه . . . وهذا يكفي ! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة .

ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجع . قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة ، تحسه وتقدره ، وتستريح إليه وتستنيم !

سورة الانشقاق

مكية ، و أياتها ٢٥

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكوير ، ثم في سورة الانفطار . ومن قبل في سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض ، في طواعية وخشوع ويسر (إذا السماء انشقت , وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت) ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب "الإنسان" ، وإلقاء الخشوع في قلبه لربه . وتذكيره بأمره ؛ وبمصيره الذي هو صائر إليه عنده . حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقيه في حسه السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا . إنه كان في أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيرا) والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس "الإنسان" لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبها ومعاناتها (فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ؛ لتركبن طبقا عن طبق) ثم يجيء المقطع الأخير في السورة تعجيبا من حال الناس الذين لا يؤمنون ؛ وهذه هي حقيقة أمرهم ، كما عرضت في المقطعين السابقين . وتلك هي

نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء فى مطلع السورة (فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟) ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم (بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون) إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى فى مشاهد الانقلاب الكونية التى عرضتها سورة التكوير فى جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة خطوة . فى راحة ويسر ، وفى إيحاء هادئ عميق . والخطاب فيها:) يا أيها الإنسان)فيه تذكير واستجاشة للضمير . وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشرى فى مجالات كونية وإنسانية شتى ,متعاقبة تعاقبا مقصودا . . فمن مشهد الاستسلام الكونى . إلى لمسة لقلب" الإنسان" . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشرى أخرى . إلى التعجيب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون . . كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات فى سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر . . وهو ما لا يعهد إلا فى هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها فى الحيز الكبير ولا تؤدى بهذه القوة وبهذا التأثير . . ولكنه القرآن ميسر للذكر ؛ يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العليم الخبير !

(إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ{١} وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{٢} وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ{٣} وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ{٤} وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{٥} يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{٦} فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{٧} فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{٨} وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{٩} وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{١٠} فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{١١} وَيَصْلَى سَعِيراً{١٢} إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً{١٣} إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ{١٤} بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً{١٥} فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ{١٦} وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ{١٧} وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ{١٨} لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ{١٩} فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{٢٠} وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{٢١} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ{٢٢} وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{٢٣} فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{٢٤} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ){٢٥}

(إذا السماء انشقت) وانشقاق السماء سبق الحديث عنه فى سور سابقة . أما الجديد هنا فهو استسلام السماء لربها ؛ ووقوع الحق عليها ، وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها (وأذنت لربها وحقت) فإذن السماء لربها:استسلامها وطاعتها لأمره فى الانشقاق (وحقت) أى وقع عليها الحق . واعترفت بأنها محقوقة لربها . وهو مظهر من مظاهر الخضوع ، لأن هذا حق عليها مسلم به منها . والجديد هنا كذلك هو مد الأرض (وإذا الأرض مدت) وقد يعني هذا مط رقعتها وشكلها , مما ينشأ عن انقلاب النواميس التى كانت تحكمها وتحفظها فى هذا الشكل الذى انتهت إليه – والمقول إنه كروى أو بيضاوى – والتعبير يجعل وقوع هذا الأمر لها آتيا من فعل خارج عنها ، مما يفيده بناء الفعل للمجهول (مدت) (وألقت ما فيها وتخلت) وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقي ما فيها وتتخلى عنه . وما فيها كثير . منه تلك الخلائق التى لا تحصى ، والتى طوتها الأرض فى أجيالها التى لا يعلم إلا الله مداها . ومنه سائر ما يختبئ فى جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لا يعلمها إلا بارئها . وقد حملت حملها هذا أجيالا بعد أجيال ، وقرونا بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم:ألقت ما فيها وتخلت (وأذنت لربها وحقت) هي الأخرى كما أذنت السماء لربها وحقت . واستجابت لأمره مستسلمة مذعنة ، معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها . . وتبدو السماء والأرض – بهذه الآيات المصورة – ذواتي روح . وخليقتين من الأحياء . تستمعان للأمر ، وتلبيان للفور ، وتطيعان طاعة المعترف بالحق ، المستسلم لمقتضاه ، استسلاما لا التواء فيه ولا إكراه . ومع أن المشهد من مشاهد الانقلاب الكونى فى ذلك اليوم . فإن صورته هنا يظللها الخشوع والجلال والوقار والهدوء العميق الظلال . والذى يتبقى فى الحس منه هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع فى غير ما جلبة ولا معارضة ولا كلام ! وفى هذا الجو الخاشع الطائع يجيء النداء العلوى للإنسان ، وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلما لربه هذا الاستسلام (يا أيها الإنسان) الذى خلقه ربه بإحسان ؛ والذى ميزه بهذه "الإنسانية " التى تفرده فى هذا الكون بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه ، وأودعه القدرة على الإتصال به ، وتلقي قبس من نوره ,والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها أو الارتفاع إلى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة ! (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحا ، تحمل عبئك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك . . لتصل فى النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه المآب . بعد الكد والكدح والجهاد . . يا أيها الإنسان . . إنك كادح حتى فى متاعك . . فأنت لا تبلغه فى هذه الأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير

وكد مشاعر . يا أيها الإنسان . . إنك لا تجد الراحة فى الأرض أبدا . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام . . يا أيها الإنسان . . الذى امتاز بخصائص "الإنسان" . . ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذى خصك به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه . ولأن هذه اللمسة الكامنة فى هذا النداء ، فإنه يصل بها مصائر الكادحين عندما يصلون إلى نهاية الطريق (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً) والذى يؤتى كتابه بيمينه هو المرضى السعيد ، الذى آمن وأحسن ، فرضى الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حسابا يسيرا . فلا يناقش ولا يدقق معه فى الحساب . والذى يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول [ص] وفيها غناء . . عن عائشة – رضى الله عنها – قالت:قال رسول الله ﷺ " من نوقش الحساب عذب " قالت:قلت: أفليس قال الله تعالى: (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) . قال:" ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب " . فهذا هو الحساب اليسير الذى يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه . ثم ينجو (وينقلب إلى أهله مسرورا من الناجين الذين سبقوه إلى الجنة . وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنة . كل ومن أحب من أهله وصحبه . ويصور رجعة الناجى من الحساب إلى مجموعته المتآلفة بعد الموقف العصيب . رجعته متهللا فرحا مسرورا بالنجاة واللقاء فى الجنان ! وهو وضع يقابل وضع المعذب الهالك المأخوذ بعمله السيء ، الذى يؤتى كتابه وهو كاره(وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا . ويصلى سعيرا) والذى ألفناه فى تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال . فهذه صورة جديدة:صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر . وليس يمتنع أن يكون الذى يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره . فهى هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة ! ونحن لا ندرى حقيقة الكتاب ولا كيفية إيتائه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر . إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول ؛ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثانى . وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما . وما وراء ذلك من الأشكال إنما يحيى المشهد ويعمق أثره فى الحس ، والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون ! فهذا التعيس الذى قضى حياته فى الأرض كدحا ، وقطع طريقه إلى ربه كدحا – ولكن فى المعصية والإثم والضلال – يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف فى هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثبورا ، وينادى الهلاك لينقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به ، يكون فى الموقف الذى ليس بعده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . وهذا هو المعنى الذى أراده المتنبى وهو يقول:كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا فإنما هى التعاسة التى ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذى ليس بعده شقاء ! .). ويصلى سعيرا). . وهذا هو الذى يدعو الهلاك لينقذه منه . . وهيهات هيهات ! وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعا إلى ماضى هذا الشقى الذى انتهى به إلى هذا الشقاء (إنه كان فى أهله مسرورا) وذلك كان فى الدنيا . . نعم كان . . فنحن الآن – مع هذا القرآن – فى يوم الحساب والجزاء وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيدا فى الزمان والمكان ! ... إنه كان غافلا عما وراء اللحظة الحاضرة ؛ لاهيا عما ينتظره فى الدار الآخرة ، لا يحسب لها حسابا ولا يقدم لها زادا . .(إنه ظن أن لن يحور)إلى ربه ,ولن يرجع إلى بارئه ، ولو ظن الرجعة فى نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئا للحساب ! (بلى إن ربه كان به بصيرا) إنه ظن أن لن يحور . ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعا على أمره ، محيطا بحقيقته ، عالما بحركاته وخطواته ، عارفا أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه . . وكذلك كان , حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور فى علم الله . والذى لم يكن بد أن يكون ! وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله فى حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح – فى صورة من صور الكدح – تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو ينقلب إلى أهله مسرورا فى حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء . . ومن هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، يعود السياق بهم إلى لمحات من هذا الكون الذى يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشى به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذى يشملهم كذلك ، ويقدر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال(فلا أقسم بالشفق) وهذه اللمحات الكونية التى يلوح بالقسم بها ، لتوجيه القلب البشرى إليها ، وتلقى إيحاءاتها وإيقاعاتها . . لمحات ذات طابع خاص . طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب . وهى تتفق فى ظلالها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة . فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب . . وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة . ويحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجى عميق . كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف . ويلفه فى النهاية خشوع وخوف خفى وسكون ! (والليل وما وسق) هو الليل وما جمع وما حمل . . بهذا التعميم ، وبهذا التجهيل ,وبهذا التهويل . والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير . هذه اللمحات الكونية الجميلة الجليلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشرى ، الذى يغفل عن خطابها الكونى . ويلوح بالقسم بها ليبرزها للمشاعر والضمائر ، فى حيويتها ، وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالتها على اليد التى تمسك

بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله . . وأحوال الناس أيضا وهم غافلون (لتركبن طبقا عن طبق) أى لتعانون حالا بعد حال ، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال . ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها . والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف فى التعبير العربى ، كقولهم:"إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه" وفى ظل هذه اللمحات الأخيرة ، والمشاهد والجولات السابقة لها فى السورة ، يجىء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون . وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله فى أنفسهم وفى الوجود (فما لهم لا يؤمنون ؟ و إذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟) أجل ! فما لهم لا يؤمنون ؟ إن موحيات الإيمان فى لمحات الوجود ، وفى أحوال النفوس ، تواجه القلب البشرى حيثما توجه ؛ وتتكاثر عليه أينما كان . وهى من الكثرة والعمق والقوة والثقل فى ميزان الحقيقة بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلت منها . بينما هى تناجيه وتناغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها ! وهو يخاطبهم بلغة الفطرة , ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله فى الأنفس والآفاق . ويستجيش فى هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود . . وهو "السجود" . إن هذا الكون جميل . وموح . وفيه من اللمحات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش فى القلب البشرى أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع . إنه لأمر عجيب حقا . يضرب عنه السياق ليأخذ فى بيان حقيقة حال الكفار ، وما ينتظرهم من مآل (بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم) بل الذين كفروا يكذبون . يكذبون إطلاقا . فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل . والله أعلم بما يكنون فى صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب . ويترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم (فبشرهم بعذاب أليم) ويا لها من بشرى لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشير ! وفى الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذبون ، فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون . ويجىء هذا العرض فى السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون) وهو الذى يقال عنه فى اللغة إنه استثناء منقطع . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء فى تلك البشارة السوداء ثم استثنوا منها ! ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى ! والأجر غير الممنون . . هو الأجر الدائم غير المقطوع . . فى دار البقاء والخلود . . وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهى السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد فى مجالات الكون والضمير .

سورة البروج
مكية ، و آياتها ٢٢

هذه السورة القصيرة تعرض ، حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيمانى . . وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعانى والحقائق المباشرة التى تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية – وأحيانا كل كلمة فى الآية – أن تفتح كوة على عالم مترامى الأطراف من الحقيقة . والموضوع المباشر الذى تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود . و فحواه أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام – قيل إنهم من النصارى الموحدين – ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، وأرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقا فى الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فماتوا حرقا ، على مرأى من الجموع التى حشدها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة بهذه الطريقة البشعة ، ولكى يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) تبدأ السورة بقسم (والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود .) فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحداثه الضخام ، والحشود التى تشهده والأحداث المشهودة فيه . . تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة . ثم تعرض المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل . . مع التلميح إلى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت إلى الأوج الذى يشرف الإنسان فى أجياله جميعا . والتلميح إلى بشاعة الفعلة ، وما يكمن فيها من بغى وشر وتسفل ، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين (النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) بعد ذلك تجىء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة فى شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيمانى الأصيل إشارة إلى ملك الله فى السماوات

والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع فى السماوات والأرض الله (الذى له ملك السماوات والأرض . والله على كل شىء شهيد) وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذى ينتظر الطغاة الفجرة السفلة ؛ وإلى نعيم الجنة . . ذلك الفوز الكبير . . الذى ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة , وارتفعوا على فتنة النار والحريق (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات – ثم لم يتوبوا – فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير) وتلويح ببطش الله الشديد ، الذى يبدئ ويعيد (إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد) وهى حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التى أزهقت فى الحادث ، وتلقى وراء الحادث إشعاعات بعيدة . وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعنى أمرا (وهو الغفور الودود) الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شىء . والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح ! (ذو العرش المجيد . فعال لما يريد) وهى صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة , والإرادة المطلقة . . وكلها ذات اتصال بالحادث . . كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد . ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة ، وهم مدججون بالسلاح . (هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ؟) وهما مصرعان متنوعان فى طبيعتهما وآثارهما . ووراءهما – مع حادث الأخدود – إشعاعات كثيرة . وفى الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون (بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط) ويقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) مما يوحى بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير ، فى كل الأمور . هذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل:

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ{١} وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{٢} وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{٣} قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{٤} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{٥} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{٦} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{٧} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{٨} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{٩} إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{١٠} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ{١١} إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ{١٢} إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{١٣} وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{١٤} ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{١٥} فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{١٦} هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ{١٧} فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ{١٨} بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ{١٩} وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ{٢٠} بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{٢١} فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ){٢٢}

تبدأ السورة – قبل الإشارة إلى حادث الأخدود – بهذا القسم:بالسماء ذات البروج ، وهى إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمة أى قصورها المبنية . وإما أن تكون هى المنازل التى تتنقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها , وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء . والإشارة إليها يوحى بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه فى هذا الجو (واليوم الموعود) وهو يوم الفصل فى أحداث الدنيا ، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذى وعد الله بمجيئه ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ؛ وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذى تتطلع إليه الخلائق ، وتترقبه لترى كيف تصير الأمور (وشاهد ومشهود) فى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال ، وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين . . ويعلم كل شىء . ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون . وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هذا المجال ، تجىء الإشارة إلى الحادث فى لمسات قلائل ، وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النقمة على أصحاب الأخدود (قتل أصحاب الأخدود) وهى كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه . ثم يجىء تفسير الأخدود (النار ذات الوقود) والأخدود: هو الشق فى الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا ، فصارت النار بدلا فى التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها . قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب ، فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم ، ويزاولون تلك الجريمة (إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة , يشاهدون أطوار التعذيب ، وفعل النار فى الأجسام فى لذة وسعار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع ! وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السماوات والأرض . والله على كل شىء شهيد) فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز القادر على ما يريد ، الحميد المستحق للحمد فى كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له . وهو وحده الذى

له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به إرادته تعلق الحضور . ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود . . وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيدا . وكفى بالله شهيدا . وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، التى تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه فى حساب الله ما وراءه ، إن الذى حدث فى الأرض وفى الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه ، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عنه الله (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) ومضوا فى ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا (ثم لم يتوبوا). . (فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق). . وينص على)الحريق). وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق فى الأخدود . وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ؟ فى شدته أو فى مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى ، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنسانى الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم ! ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وهذه هى النجاة الحقيقية (ذلك الفوز الكبير) والفوز: هو النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجرى من تحتها الأنهار ؟ بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه . وهى الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ما وقع منه فى الأرض إلا طرفا من أطرافه ، لا يتم به تمامه . . وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون (إن بطش ربك لشديد) وإظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب ما مر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ويحسبه الناس فى الأرض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذى له ملك السماوات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة ، فى رقعة من الزمان محدودة . . ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب – وهو الرسول ﷺ والقائل وهو الله عز وجل . وهو يقول له (إن بطش ربك) ربك الذى تنتسب إلى ربوبيته ، وسندك الذى تركن إلى معونته . . ولهذه النسبة قيمتها فى هذا المجال الذى يبطش فيه الفجار بالمؤمنين ! (إنه هو يبدئ ويعيد) والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلى إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة . . إلا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار . ففى كل لحظة بدء وإنشاء ، وفى كل لحظة إعادة لما بلى ومات . والكون كله فى تجدد مستمر . . وفى بلى مستمر (وهو الغفور الودود) والمغفرة من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود (ذو العرش المجيد) العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز ، فى سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد (فعال لما يريد) هذه صفته الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل . . فعال لما يريد . . فهو مطلق الإرادة ، يختار ما يشاء ؛ ويفعل ما يريده ويختاره ، دائما أبدا ، فتلك صفته سبحانه (هل أتاك حديث الجنود:فرعون وثمود ؟) وهى إشارة إلى قصتين طويلتين ، ارتكانا إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين ، بعدما ورد ذكرهما كثيرا فى القرآن الكريم . ويسميهم الجنود . إشارة إلى قوتهم واستعدادهم . . هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟ وفى الختام يجىء إيقاعان قويان جازمان . فى كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير(بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط) فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمسون به ويصبحون .(والله من ورائهم محيط) وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة فى الطوفان العميم ! (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) والمجيد هو الرفيع الكريم العريق . . وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو فى لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذى يلقيه التعبير ، والإيحاء الذى يتركه فى القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت ، قوله هو المرجع الأخير ، فى كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول ، وقوله هو المرعى المحفوظ . . ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود ، وفى الحقيقة التى وراءه . . وهو القول الأخير . .

سورة الطارق

مكية ، و آياتها ١٧

جاء في مقدمة هذا الجزء أن سوره تمثل طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية , وصيحات بنوم غارقين في النوم . . . تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ، ونذير واحد . "اصحوا . تيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . وإن هنالك عذابا شديدا ونعيما كبيرا . . " وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص . ففى إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد , ونوع الإيقاع الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وإيحاء المعانى . ومن مشاهدها: الطارق . والثاقب . والدافق . والرجع . والصدع . ومن معانيها: الرقابة على كل نفس (إن كل نفس لما عليها حافظ) ونفى القوة والناصر (يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر) والجد الصارم (إنه لقول فصل وما هو بالهزل) والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته (إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا !)! وتكاد تتضمن تلك الموضوعات التي أشير إليها فى مقدمة الجزء:"إن هنالك إلها . وإن هنالك تدبيرا . وإن هنالك تقديرا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعة . وإن هنالك حسابا وجزاء . . . الخ" . وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية فى السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ يتضح من استعراض السورة فى سياقها القرآنى الجميل .
.

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ{١} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ{٢} النَّجْمُ الثَّاقِبُ{٣} إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{٤} فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{٥} خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ{٦} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{٧} إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ{٨} يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ{٩} فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ{١٠} وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ{١١} وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ{١٢} إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ{١٣} وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ{١٤} إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{١٥} وَأَكِيدُ كَيْداً{١٦} فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً){١٧}

(والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ) هذا القسم يتضمن مشهدا كونيا وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثنى بالاستفهام المعهود فى التعبير القرآنى (وما أدراك ما الطارق ؟) وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته (النجم الثاقب) الذى يثقب الظلام بشعاعه النافذ . وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التحديد . بل إن الإطلاق أولى . ليكون المعنى:والسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذى يستر الأشياء . ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدها الأخرى . . كما سيأتى . يقسم بالسماء ونجمها الثاقبأن كل نفس عليها من أمر الله رقيب (إن كل نفس لما عليها حافظ) وفى التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد . . ما من نفس إلا عليها حافظ . يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار . وهى التى يناط بها العمل والجزاء .ويخلص من هذه اللمسة التى تصل النفس بالكون ، إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير , التى أقسم عليها بالسماء والطارق . فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ؛ وتوحى بأن الإنسان ليس متروكا سدى ، ولا مهملا ضياعا (فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب) فلينظر الإنسان من أى شىء خلق وإلى أى شىء صار ، خلق من هذا الماء الذى يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهى عظام صدرها العلوية . . ولقد كان هذا سرا مكنونا فى علم الله لا يعلمه البشر . حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ؛ وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفى عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة . حيث يلتقيان فى قرار مكين فينشأ منهما الإنسان ! (إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر) إنه - الله الذى أنشأه ورعاه - إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى ، تشهد النشأة الأولى بقدرته ، كما تشهد بتقديره وتدبيره . فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثا إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزى جزاءها العادل (يوم تبلى السرائر) السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة . . يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر ; وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفعة

بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر (فما له من قوة ولا ناصر) . ما له من قوة فى ذاته , وما له من ناصر خارج ذاته . . والتكشف من كل ستر ، مع التجرد من كل قوة ، يضاعف شدة الموقف ؛ ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير . وهو ينتقل من الكون والنفس ، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة ، إلى نهاية المطاف هناك ، حيث يتكشف ستره ويكشف سره , ويتجرد من القوة والنصير . . ولعل طائفا من شك ، أو بقية من ريب ، تكون باقية فى النفس ، فى أن هذا لا بد كائن . . فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول هو القول الفصل ، ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون ، كما صنع فى مطلع السورة (والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل) والرجع هو المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة ، والصدع النبت يشق الأرض وينبثق . . وهما يمثلان مشهدا للحياة فى صورة من صورها . حياة النبات ونشأته الأولى:ماء يتدفق من السماء ، ونبت ينبثق من الأرض . . أشبه شىء بالماء الدافق من الصلب والترائب ؛ والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هى الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركة هى الحركة . . نظام ثابت ، وصنعة معلمة ، تدل على الصانع . الذى لا يشبهه أحد لا فى حقيقة الصنعة ولا فى شكلها الظاهر ! وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب . وهو يشق الحجب والستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر . . صنعة واحدة تشير إلى الصانع ! يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحدثين:السماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . . حيث يوقع مشهدهما وإيحاؤهما ، كما يوحى جرس التعبير ذاته ، بالشدة والنفاذ والجزم . . يقسم بأن هذا القول الذى يقرر الرجعة والابتلاء – أو بأن هذا القرآن عامة – هو القول الفصل الذى لا يتلبس به الهزل . القول الفصل الذى ينهى كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب . القول الذى ليس بعده قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ! وفى ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول ﷺ وهو ومن معه من القلة المؤمنة فى مكة بالتثبيت والتطمين , وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين . وأنه إلى حين . وأن المعركة بيده هو – سبحانه – وقيادته . فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون (إنهم يكيدون كيدا ، وأكيد كيدا ، فمهل الكافرين ، أمهلهم رويدا) إنهم – هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب – بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة ، ولا معرفة ولا هداية . والذين تولتهم يد القدرة فى رحلتهم الطويلة . والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر ، حيث لا قوة لهم ولا ناصر . . إنهم هؤلاء يكيدون كيدا . . وأنا – أنا المنشئ . . الهادى . الحافظ . الموجه . المعيد . المبتلى . القادر . القاهر . خالق السماء والطارق . وخالق الماء الدافق ، والإنسان الناطق ، وخالق السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع . . أنا الله . . أكيد كيدا . . فهذا كيد . وهذا كيد . وهذه هى المعركة . . ذات طرف واحد فى الحقيقة . . وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزء ! (فمهل الكافرين) (أمهلهم رويدا) لا تعجل . ولا تستبطئ نهاية المعركة . وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها . . فإنما هى الحكمة وراء الإمهال . الإمهال قليلا . . وهو قليل حتى لو استغرق عمر الحياة الدنيا . فما هو عمر الحياة الدنيا إلى جانب تلك الآباد المجهولة المدى ؟

سورة الأعلى

مكية ، و آياتها ١٩

فى رواية للإمام أحمد عن الإمام على – كرم الله وجهه – أن رسول الله ﷺ كان يحب هذه السورة (سبح اسم ربك الأعلى) وفى صحيح مسلم أنه كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى و(هل أتاك حديث الغاشية) وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما . . وحق لرسول الله ﷺ أن يحب هذه السورة وهى تحيل له الكون كله معبدا تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده ، ومعرضا يحفل بموحيات التسبيح والتحميد (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) وإيقاع السورة الرخى المديد يلقى ظلال التسبيح ذى الصدى البعيد . . وحق له ﷺ أن يحبها ، وهى تحمل له من البشريات أمرا عظيما . وربه يقول له ، وهو يكلفه التبليغ والتذكير (سنقرئك فلا تنسى – إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى – ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى) وفيها يتكفل له ربه بحفظ قلبه لهذا القرآن , ورفع هذه الكلفة عن عاتقه . ويعده أن ييسره لليسرى فى كل أموره وأمور هذه الدعوة . وهو أمر عظيم جدا . وحق له ﷺ أن يحبها ، وهى تتضمن الثابت من قواعد التصور الإيمانى:من توحيد الرب الخالق وإثبات الوحى الإلهى ، وتقرير الجزاء فى الآخرة . وهى مقومات العقيدة

الأولى . ثم تصل هذه العقيدة بأصولها البعيدة , وجذورها الضاربة في شعاب الزمان (إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) فوق ما تصوره من طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الرسول الذى يبلغها والأمة التى تحملها . . طبيعة اليسر والسماحة . وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ؛ ووراءها مجالات بعيدة المدى . .

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى {١} الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى {٢} وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى {٣} وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى {٤} فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى {٥} سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى {٦} إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى {٧} وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى {٨} فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى {٩} سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى {١٠} وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى {١١} الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى {١٢} ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى {١٣} قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى {١٤} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى {١٥} بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {١٦} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى {١٧} إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى {١٨} صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) {١٩}

(سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) إن هذا الإفتتاح ، بهذا المطلع الرخى المديد ، ليطلق فى الجو ابتداء أصداء التسبيح , إلى جانب معنى التسبيح . وإن هذه الصفات التى تلى الأمر بالتسبيح (الأعلى الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) لتحيل الوجود كله معبدا يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ؛ ومعرضا تتجلى فيه آثار الصانع المبدع (الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى) والتسبيح هو التمجيد والتنزيه واستحضار معانى الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور . وليست هى مجرد ترديد لفظ:سبحان الله ! و(سبح اسم ربك الأعلى) تطلق فى الوجدان معنى وحالة يصعب تحديدها باللفظ ، ولكنها تتذوق بالوجدان . وتوحى بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معانى الصفات . والصفة الأولى القريبة فى هذا النص هى صفة الرب . وصفة الأعلى . . والرب: هو المربى والراعى , وظلال هذه الصفة الحانية مما يتناسق مع جو السورة وبشرياتها وإيقاعاتها الرخية . . وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى الآفاق التى لا تتناهى ؛ وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى . . وتتناسق مع التمجيد والتنزيه ، وهو فى صميمه الشعور بصفة الأعلى . والخطاب هنا لرسول الله ﷺ ابتداء . وهذا الأمر صادر إليه من ربه . بهذه الصيغة (سبح اسم ربك الأعلى) وفيه من التلطف والإيناس ما يجل عن التعبير . وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الأمر ، ثم يعقب عليه بالاستجابة المباشرة ، قبل أن يمضى فى آيات السورة ، يقول:" سبحان ربى الأعلى " . . فهو خطاب ورده . وأمر وطاعته . وإيناس ومجاوبته . . إنه فى حضرة ربه ، يتلقى مباشرة ويستجيب . فى أنس وفى اتصال قريب . . وحينما نزلت هذه الآية قال:" اجعلوها فى سجودكم " . وحينما نزلت قبلها (فسبح باسم ربك العظيم) قال:" اجعلوها فى ركوعكم " . . فهذا التسبيح فى الركوع والسجود كلمة حية ألحقت بالصلاة وهى دافئة بالحياة . لتكون استجابة مباشرة لأمر مباشر . أو بتعبير أدق . . لإذن مباشر . . فإذن الله لعباده بأن يحمدوه ويسبحوه إحدى نعمه عليهم وأفضاله . إنه إذن بالاتصال به – سبحانه – فى صورة مقربة إلى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته . فى صفاته . فى الحدود التى يملكون أن يتطلعوا إليها . وكل إذن للعباد بالاتصال بالله فى أية صورة من صور الاتصال , هو مكرمة له وفضل على العباد (الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى) الذى خلق كل شىء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه . والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله , وألهمه غاية وجوده ؛ وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه أيضا (والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى) والمرعى هو كل نبات , والمرعى يخرج فى أول أمره خضرا ، ثم يذوى فإذا هو غثاء ، أميل إلى السواد فهو أحوى , وقد يصلح أن يكون طعاما وهو أخضر ، ويصلح أن يكون طعاما وهو غثاء أحوى . وما بينهما فهو فى كل حالة صالح لأمر من أمور هذه الحياة ، بتقدير الذى خلق فسوى وقدر فهدى . والإشارة إلى حياة النبات هنا توحى من طرف خفى ، بأن كل نبت إلى حصاد وأن كل حى إلى نهاية . بعدئذ يجىء بتلك البشرى العظيمة لرسول الله ﷺ وامته من ورائه (سنقرئك فلا تنسى – إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى – ونيسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى) وتبدأ البشرى برفع عناء الحفظ لهذا القرآن والكد فى إمساكه عن عاتق الرسول ﷺ (سنقرئك فلا تنسى) فعليه القراءة يتلقاها عن ربه ، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه , فلا ينسى ما يقرئه ربه (إلا ما شاء الله) فهو الاحتراس الذى يقرر طلاقة المشيئة الإلهية ، بعد الوعد الصادق بأنه لا ينسى . ليظل الأمر فى إطار المشيئة الكبرى ؛ ويظل التطلع دائما إلى هذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها . ويظل القلب معلقا بمشيئة الله حيا بهذا التعلق أبدا (إنه يعلم الجهر وما يخفى) وكأن هذا تعليل لما مر فى هذا المقطع من الإقرار والحفظ والاستثناء . . فكلها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ؛ ويطلع على الأمر من جوانبه جميعا

، فيقرر فيه ما تقتضيه حكمته المستندة إلى علمه بأطراف الأمر جميعا (ونيسرك لليسرى) بشرى لشخص الرسول ﷺ وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين ، وحقيقة هذه الدعوة ، ودورها في حياة البشر ، وموضعها في نظام الوجود . . وإن هاتين الكلمتين (ونيسرك لليسرى) لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هذه العقيدة ، وحقائق هذا الوجود أيضا . فهى تصل طبيعة هذا الرسول بطبيعة هذه العقيدة بطبيعة هذا الوجود . الوجود الخارج من يد القدرة فى يسر . السائر فى طريقه بيسر . المتجه إلى غايته بيسر . فهى انطلاقة من نور ؛ تشير إلى أبعاد وآماد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود . وهكذا كان رسول الله ﷺ فى كل أمره . . ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت عنه عائشة – رضى الله عنها – وكما قالت عنه: " كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى بيته ألين الناس ، بساما ضحاكا " وفى صحيح البخارى: " كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت " ! وفى هديه ﷺ فى اللباس والطعام والفراش وغيرها ما يعبر عن اختيار اليسر وقلة التكلف البتة . فهو الحس المرهف الذى يلمح الوعورة والشدة حتى فى الأسماء والملامح فينفر منها ، ويميل بها إلى اليسر والهوادة ! وسيرة رسول الله ﷺ كلها صفحات من السماحة واليسر والهوادة واللين والتوفيق إلى اليسر فى تناول الأمور جميعا (فذكر إن نفعت الذكرى)لقد أقرأه فلا ينسى (إلا ما شاء الله) ويسره لليسرى . لينهض بالأمانة الكبرى . . ليذكر . فلهذا أعد ، ولهذا بشر . فذكر حيثما وجدت فرصة للتذكير ، ومنفذا للقلوب ، ووسيلة للبلاغ . ذكر (إن نفعت الذكرى) والذكرى تنفع دائما ، ولن تعدم من ينتفع بها كثيرا كان أو قليلا . ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمع وينتفع ، مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب (سيذكر من يخشى) فذكر . . . وسينتفع بالذكرى (من يخشى) ذلك الذى يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى (ويتجنبها الأشقى) يتجنب الذكرى ، فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو إذن (الأشقى) الأشقى إطلاقا وإجمالا . الأشقى الذى تتمثل فيه غاية الشقوة ومنتهاها . الأشقى فى الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة ، التى لا تحس حقائق الوجود , ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذى يعيش قلقا متكالبا على ما فى الأرض كادحا لهذا الشأن الصغير ! والأشقى فى الآخرة بعذابها الذى لا يعرف له مدى: الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى (الذى يصلى النار الكبرى) والنار الكبرى هى نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها (ثم لا يموت فيها و لا يحى) حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ؛ ولا هو يحيا فى أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذى يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى الأمنية الكبرى ! وفى الصفحة المقابلة نجد النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) والتزكى: هو التطهر من كل رجس ودنس ، والله – سبحانه – يقرر أن هذا الذى تطهر وذكر اسم ربه ، فاستحضر فى قلبه جلاله (فصلى) إما بمعنى خشع وقنت . وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي , فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله فى القلب ، والشعور بمهابته فى الضمير . . هذا الذى تطهر وذكر وصلى (قد أفلح) يقينا . أفلح فى دنياه ، فعاش موصولا ، حي القلب ، شاعرا بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح في أخراه ، فنجا من النار الكبرى ، وفاز بالنعيم والرضى . . فأين عاقبة من عاقبة ؟ وأين مصير من مصير ؟ وفي ظل هذا المشهد . مشهد النار الكبرى للأشقى . والنجاة والفلاح لمن تزكى ، يعود بالمخاطبين إلى علة شقائهم ، ومنشأ غفلتهم ، وما يصرفهم عن التذكر والتطهر والنجاة والفلاح ، ويذهب بهم إلى النار الكبرى والشقوة العظمى (بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى ; لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها . وهم يريدون الدنيا ، ويؤثرونها .وتسميتها (الدنيا) لا تجيء مصادفة . فهى الواطية الهابطة – إلى جانب أنها الدانية:العاجلة (والآخرة خير وأبقى) خير فى نوعها ، وأبقى فى أمدها . وفى ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير . لا يقدم عليهما عاقل بصير . وفى الختام تجيء الإشارة إلى قدم هذه الدعوة ، وعراقة منبتها ، وامتداد جذورها فى شعاب الزمن ، وتوحد أصولها من وراء الزمان والمكان (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) هذا الذى ورد فى هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذى فى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى . ووحدة الحق ، ووحدة العقيدة ، هى الأمر الذى تقتضيه وحدة الجهة التى صدر عنها ، ووحدة المشيئة التى اقتضت بعثة الرسل إلى البشر . . إنه حق واحد ، يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة ، والأطوار المتعاقبة . ولكنها تلتقى عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد . . من ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى . .

سورة الغاشية

مكية ، و آياتها ٢٦

هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة . الباعثة إلى التأمل والتدبر ، وإلى الرجاء والتطلع ، وإلى المخافة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب ! وهى تطوف بالقلب البشرى فى مجالين هائلين:مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة . ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة فى خلائقه المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف . . كل ذلك فى أسلوب عميق الإيقاع ، هادئ ، ولكنه نافذ . رصين ولكنه رهيب ! (هل أتاك حديث الغاشية ؟) بهذا المقطع تبدأ السورة لترد القلوب إلى الله ، ولتذكرهم بآياته فى الوجود ، وحسابه فى الآخرة وجزائه الأكيد . وبهذا الإستفهام الموحى بالعظمة الدال على التقدير ؛ الذى يشير فى الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الإسم الجديد (الغاشية) أى الداهية التى تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها . وهو من الأسماء الجديدة الموحية التى وردت فى هذا الجزء . . الطامة . . الصاخة . . الغاشية . . القارعة . . مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة . وهذا الخطاب: هل أتاك . . ؟ كان رسول الله ﷺ يحس وقع توجيهه إلى شخصه ، حيثما سمع هذه السورة ، وكأنما يتلقاه أول أمر مباشرة من ربه ، لشدة حساسية قلبه بخطاب الله - سبحانه - واستحضاره لحقيقة الخطاب ، وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه ، والخطاب - مع ذلك - عام لكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويبشر ؛ ويستجيش به فى الضمائر الحساسية والخشية والتقوى والتوجس ؛ كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحيى هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل .

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ{١} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{٢} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{٣} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{٤} تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ{٥} لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ{٦} لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ{٧} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{٨} لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{٩} فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{١٠} لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً{١١} فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ{١٢} فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ{١٣} وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ{١٤} وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ{١٥} وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ{١٦} أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ{١٧} وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ{١٨} وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ{١٩} وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ{٢٠} فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ{٢١} لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ{٢٢} إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ{٢٣} فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ{٢٤} إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{٢٥} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم{٢٦}

(هل أتاك حديث الغاشية ؟) ثم يعرض شيئا من حديث الغاشية (وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغنى من جوع) إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعيم ؛ فهو أقرب إلى جو(الغاشية) وظلها . . فهناك:يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فزادت مضضا وإرهاقا وتعبا ، فهى:(عاملة ناصبة . .(عملت لغير الله ، ونصبت فى غير سبيله . عملت لنفسها وأولادها . وتعبت لدنياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته فى الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته فى الآخرة سوادا يؤدى إلى العذاب . وهى تواجه النهاية مواجهة الذليل المرهق المتعوس الخائب الرجاء ! ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم (تصلى نارا حامية) وتذوقها وتعانيها (تسقى من عين آنية) حارة بالغة الحرارة . (ليس لها طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع) والضريع قيل: هو شجر من نار فى جهنم . استنادا إلى ما ورد عن شجرة الزقوم التى تنبت فى أصل الجحيم . وقيل:نوع من الشوك اللاطئ بالأرض ، ترعاه الإبل وهو أخضر ، ويسمى "الشبرق" فإذا جنى صار اسمه "الضريع" ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام ! فهذا أو ذاك هو لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقى هذه الألوان التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ! وعلى الجانب الآخر (وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية) فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجد ، وتحمد ما عملت . فوجدت عقباه خيرا ، وتستمتع بهذا الشعور الروحى الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ، ثم يراها ممثلة فى رضى الله الكريم . وفى النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما فى الجنة من رخاء ومتاع ، ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة

لهؤلاء السعداء (في جنة عالية) عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو في الحس إيقاع خاص (لا تسمع فيها لاغية) ويطلق هذا التعبير جوا من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمر بين الأحباء والأوداء ، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية (فيها عين جارية). . والعين الجارية: هي الينبوع المتدفق . وهو يجمع إلى الرى الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجارى يجاوب الحس بالحيوية وبالروح التى تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفى ، الذى يتسرب إلى أعماق الحس (فيها سرر مرفوعة) والارتفاع يوحى بالنظافة كما يوحى بالطهارة (وأكواب موضوعة) مصفوفة مهيأة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد !(ونمارق مصفوفة) والنمارق هى الوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح !(وزرابى مبثوثة) والزرابى البسط ذات الخمل "السجاجيد" مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء ! وتنتهى هذه الجولة في العالم الآخر ، فيؤوب منها إلى هذا الوجود الظاهر . الحاضر . الموحى بقدرة القادر وتدبير المدبر ، وتميز الصنعة ، وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمرا بعد هذه الحياة ، وشأنا غير شأن الأرض . وخاتمة غير خاتمة الموت (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟) وتجمع هذه الأيات الأربعة القصار ، أطراف بيئة العربى المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال ، على مزية خاصة بالإبل فى خلقها بصفة عامة وفى قيمتها للعربى بصفة خاصة . والإبل حيوان العربى الأول . عليها يسافر ويحمل . ومنها يشرب ويأكل . ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل . فهي مورده الأول للحياة . ثم إن لها خصائص تفردها من بين الحيوان . فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتنقاد ، وهى على عظم نفعها وخدمتها قليلة التكاليف . مرعاها ميسر ، وكلفتها ضئيلة ، وهى أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال . ثم إن لهيئتها مزية في تناسق المشهد الطبيعى المعروض كما سيجيء . أفلا ينظرون إلى خلقتها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون:كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها , المحقق لغاية خلقها ، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ! إنهم لم يخلقوها . وهى لم تخلق نفسها ، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته ، التي تدل عليه , وتقطع بوجوده ؛ كما تشى بتدبيره وتقديره (وإلى السماء كيف رفعت ؟) وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر فى القرآن . وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء . حيث للسماء طعم ومذاق ، وإيقاع وإيحاء , كأنما ليست السماء إلا هناك فى الصحراء ! السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر . والسماء بغروبها البديع الفريد الموحى . والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر . والسماء بشروقها الجميل الحي السافر هذه السماء . فى الصحراء . . أفلا ينظرون إليها ؟ أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ؟ من ذا رفعها بلا عمد ؟ ونثر فيها النجوم بلا عدد ؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ؟ إنهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها . فلا بد لها من رافع ولا بد لها من مبدع . لا يحتاج الأمر إلى علم ولا إلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفى (وإلى الجبال كيف نصبت ؟) والجبال عند العربى – بصفة خاصة – ملجأ وملاذ , وأنيس وصاحب ، ومشهدها يوحي إلى النفس الإنسانية – بصفة عامة – جلالا واستهوالا . حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين ، ويخشع للجلال السامق الرزين . والنفس فى أحضان الجبل تتجه بطبيعتها إلى الله ؛ وتشعر أنها إليه أقرب ، وتبعد عن واغش الأرض وضجيجها وحقاراتها الصغيرة . ولم يكن عبثا ولا مصادفة أن يتحنث محمد ﷺ فى غار حراء فى جبل ثور . وأن يتجه إلى الجبل من يريدون النجوة بأرواحهم فترات من الزمان !والجبال هنا (كيف نصبت) لأن هذه اللمحة تتفق من الناحية التصويرية مع طبيعة المشهد كما سيجيء (وإلى الأرض كيف سطحت ؟) والأرض مسطوحة أمام النظر ، ممهدة للحياة والسير والعمل , والناس لم يسطحوها كذلك . فقد سطحت قبل أن يكونوا هم . . أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ما وراءها ، ويسألون:من سطحها ومهدها هكذا للحياة تمهيدا ؟ إن هذه المشاهد لتوحي إلى القلب شيئا . بمجرد النظر الواعى والتأمل الصاحى . وهذا القدر يكفى لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب . وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق . والآن بعد الجولة الأولى فى عالم الآخرة ، والجولة الثانية فى مشاهد الكون المعروضة , يلتفت إلى الرسول ﷺ يوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته ، ويلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة (فذكر إنما أنت مذكر) فذكر بها وذاك . ذكرهم بالآخرة وما فيها . وذكرهم بالكون وما فيه . إنما أنت مذكر . هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك فى هذه الدعوة ، ليس لك ولا عليك شيء وراءه . عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكلف إياه (لست عليهم بمسيطر) فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئا . حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمن ، لا يقدر عليها إنسان . وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هذه الدعوة شيء إلا التذكير والبلاغ يتكرر فى القرآن لأسباب شتى . ولكن إذا كان هذا هو حد الرسول ، فإن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد . ولا يذهب المكذبون ناجين ، ولا يتولون سالمين . إن هنالك الله وإليه تصير الأمور (إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر) وهم راجعون إلى الله وحده

قطعا ، وهو مجازيهم وحده حتما . وهذا هو الإيقاع الختامى فى السورة فى صيغة الجزم والتوكيد (إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم) بهذا يتحدد دور الرسول فى هذه الدعوة . ودور كل داعية إليها بعده . . إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله . ولا مفر لهم من العودة إليه ، ولا محيد لهم من حسابه وجزائه . غير أنه ينبغى أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء ، بلا تقصير فيها ولا اعتداء . .

سورة الفجر

مكية ، وآياتها ٣٠

هذه السورة فى عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء فى الهتاف بالقلب البشرى إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر . . ولكنها تتضمن ألوانا شتى من الجولات والإيقاعات والظلال . ألوانا متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحنا واحدا متعدد النغمات موحد الإيقاع ! فى بعض مشاهدها جمال هادئ رفيق ندى السمات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندى بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة فى ثنايا تلك المشاهد (والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر) وفى بعض مشاهدها شد وقصف . سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف (كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) وفى بعض مشاهدها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام (يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخى وإيقاع المصرع القوى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد) وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية . وهى ذات لون خاص فى السورة تعبيرا وإيقاعا (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن) ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التى تنبع منها هذه التصورات . وهى تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم (كلا . بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما) ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم فى مآلهم . فقد جاء بعده (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) فهو وسط فى شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير ! ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة فى مشاهد السورة . وإيقاعاتها فى تعبيرها وفى تنغيمها . . كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافى . بحسب تنوع المعانى والمشاهد . فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالى فى التعبير القرآنى. فوق ما فيها عموما من جمال ملحوظ مأنوس ! فأما أغراض السورة الموضوعية التى يحملها هذا التعبير المتناسق الجميل . فنعرضها فيما يلى بالتفصيل :

{ وَالْفَجْرِ{١} وَلَيَالٍ عَشْرٍ{٢} وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ{٣} وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ{٤} هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ{٥} أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ{٦} إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ{٧} الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ{٨} وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ{٩} وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ{١٠} الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ{١١} فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ{١٢} فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ{١٣} إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ{١٤} فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{١٥} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{١٦} كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ{١٧} وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{١٨} وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا{١٩} وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا{٢٠} كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا{٢١} وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا{٢٢} وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{٢٣} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{٢٤} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{٢٥} وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ{٢٦} يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{٢٧} ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{٢٨} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{٢٩} وَادْخُلِي جَنَّتِي{٣٠}

(والفجر) هذا القسم فى مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلائق . ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيقة (والفجر) ساعة تنفس الحياة فى يسر ، وفرح ، وابتسام ، وإيناس ودود ندى ، والوجود الغافى يستيقظ

رويدا رويدا ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهال ! (وليال عشر) أطلقها النص القرآنى ووردت فيها روايات شتى . . قيل هى العشر من ذى الحجة ، وقيل هى العشر من المحرم . وقيل هى العشر من رمضان . . وإطلاقها هكذا أوقع وأندى . فهى ليال عشر يعلمها الله . ولها عنده شأن . تلقى فى السياق ظل الليالى ذات الشخصية الخاصة . وكأنها خلائق حية معينة ذوات أرواح ، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآنى الرفاف ! (والشفع والوتر) يطلقان روح الصلاة والعبادة فى ذلك الجو المأنوس الحبيب . جو الفجر والليالى العشر ومن الصلاة الشفع والوتر وهذا المعنى هو أنسب المعانى فى هذا الجو . حيث تلتقى روح العبادة الخاشعة ، بروح الوجود الساجية ! وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالى المختارة ، وروح الفجر الوضيئة (والليل إذا يسر) والليل هنا مخلوق حي ، يسرى فى الكون ، وكأنه ساهر يجول فى الظلام ! أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ! يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالى العشر . والشفع والوتر ! إنه الجمال . . الجمال الحبيب الهامس اللطيف . الجمال الذى لا يدانيه جمال التصورات الشاعرية الطليقة . لأنه الجمال الإبداعى ، المعبر فى الوقت ذاته عن حقيقة . ومن ثم يعقب عليه فى النهاية (هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟) وهو سؤال للتقرير . إن فى ذلك قسما لذى لب وعقل . إن فى ذلك مقنعا لمن له إدراك وفكر . ولكن صيغة الاستفهام – مع إفادتها التقرير – أرق حاشية . فهى تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ! (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ؟) وصيغة الاستفهام فى مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات . والخطاب للنبى ﷺ ابتداء . ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر فى مصارع أولئك الأقوام وقد جمع الله فى هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم . . مصرع : " عاد إرم " وهى عاد الأولى . وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية . وكان مسكنهم بالأحقاف وهى كثبان الرمال . فى جنوبى الجزيرة بين حضرموت واليمن . وكانوا بدوا ذوى خيام تقوم على عماد . وقد وصفوا فى القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) فى ذلك الأوان (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) وكانت ثمود تسكن بالحجر فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام . وقد قطعت الصخر وشيدته قصورا ؛ كما نحتت فى الجبال ملاجئ ومغارات (وفرعون ذى الأوتاد) وهى على الأرجح الأهرامات التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان . وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار هؤلاء هم (الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد) وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات فى كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر البانى ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان فى الأرض بحال . . إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفىء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكانا فى الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون . . " أنا ربكم الأعلى " عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أى فساد . ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد الكظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التى لا تنمو فى غير جو الحرية . والنفس التى تستذل تأسن وتتعفن ، وتصبح مرتعا لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميدانا للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أى فساد . . ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلابد من تزييف للقيم ، وتزوير فى الموازين ، وتحريف للتصورات كى تقبل صورة البغى البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة . . وهو فساد أى فساد . فلما أكثروا فى الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد (فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد) فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحى بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن) فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال ، ومن بسط وقبض ، ومن توسعة وتقدير . . يبتليه بالنعمة والإكرام . بالمال أو المقام . فلا يدرك أنه الابتلاء ، تمهيدا للجزاء . إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلا على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره . فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ! ويقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة ! ويبتليه بالتضييق عليه فى الرزق ، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى فى ضيق الرزق مهانة عند الله ، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزقه (كلا . بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما) كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوى من الإيمان . ليس بسط الرزق دليلا على الكرامة عند

الله . وليس تضييق الرزق دليلا على المهانة والإهمال . إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال . فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذى فقد حاميه وكافله حين فقد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينكم على إطعام المسكين . الساكن الذى لا يتعرض للسؤال وهو محتاج ! وقد اعتبر عدم التحاض والتواصى على إطعام المسكين قبيحا مستنكرا . كما يوحى بضرورة التكافل فى الجماعة فى التوجيه إلى الواجب وإلى الخير العام . وهذه سمة الإسلام . وفى هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع ، وردع عنه ، يتمثل فى تكرار كلمة " كلا " كما يتمثل فى بناء التعبير وإيقاعه ، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه (وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما !) وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم فى الابتلاء بالمنع والعطاء ، يجىء التهديد الرعيب بيوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، فى إيقاع قوى شديد (كلا . إذا دكت الأرض دكا دكا . وجاء ربك والملك صفا صفا . وجىء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ؟ يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد) ودك الأرض ، وتحطيم معالمها وتسويتها ؛ وهو أحد الانقلابات الكونية التى تقع فى يوم القيامة . فأما مجىء ربك والملائكة صفا صفا ، فهو أمر غيبى لا ندرك طبيعته ونحن فى هذه الأرض . ولكنا نحس وراء التعبير بالجلال والهول . كذلك المجىء بجهنم . نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذبين منها وكفى . فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهى من غيب الله المكنون ليومه المعلوم (يومئذ يتذكر الإنسان) الإنسان الذى غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء . والذى أكل التراث أكلا لما ، وأحب المال حبا جما . والذى لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين . والذى طغى وأفسد وتولى . . يومئذ يتذكر . يتذكر الحق ويتعظ بما يرى . . ولكن لقد فات الأوان (وأنى له الذكرى ؟) ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدى هنا فى دار الجزاء أحدا ! وإن هى إلا الحسرة على فوات الفرصة فى دار العمل فى الحياة الدنيا ! وحين تتجلى له هذه الحقيقة : " يقول (يا ليتنى قدمت لحياتى) يا ليتنى قدمت شيئا لحياتى هنا . فهى الحياة الحقيقية التى تستحق اسم الحياة . وهى التى تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها . يا ليتنى . . أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهى أقسى ما يملكه الإنسان فى الآخرة ! ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد) إنه الله القهار الجبار . الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد . والذى يوثق وثاقه الفذ الذى لا يوثق مثله أحد . وذلك مقابل ما أسلف فى السورة من طغيان الطغاة ممثلين فى عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد فى الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال . فها هو ذا ربك - أيها النبى وأيها المؤمن - يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم . ولكن شتان بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق . وفى وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذى يتجاوز كل تصور تنادى " النفس " المؤمنة من الملأ الأعلى (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى) هكذا فى عطف وقرب (يا أيتها) وفى روحانية وتكريم (يا أيتها النفس) وفى ثناء وتطمين . (يا أيتها النفس المطمئنة) وفى وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء (ارجعى إلى ربك) ارجعى إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعى إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة (راضية مرضية) بهذه النداوة التى تفيض على الجو كله بالتعاطف والرضى (فادخلى فى عبادى) المقربين المختارين لينالوا هذه القربى (وادخلى جنتى) فى كنفى ورحمتى . ثم تمضى الآيات تباعا تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة ، والموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود والقربى والسكينة . ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلال هذه الآيات . وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية . . .

سورة البلد

مكية ، و آياتها ٢٠

تضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى ذات الإيحاءات الدافئة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع فى هذا الحيز الصغير فى غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد فى التوقيع على أوتار القلب البشرى بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة . تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة فى حياة الإنسان ثابتة

{ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{١} وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{٢} وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{٣} لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{٤} أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ{٥} يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا{٦} أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{٧} أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ

عَيْنَيْنِ {٨} ولِساناً وَشَفَتَيْنِ {٩} وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ {١٠} فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ {١١} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ {١٢} فَكُّ رَقَبَةٍ {١٣} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ {١٤} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ {١٥} أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ {١٦} ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ {١٧} أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ {١٨} وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ {١٩} عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ {٢٠}

(لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد . ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان فى كبد) والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس فى الأرض . ليكون مثابة لهم وأمنا . يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداواتهم ، ويلتقون فيه مسالمين ، حراما بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حى فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبى العرب والمسلمين أجمعين . ويكرم الله نبيه محمدا ﷺ فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفا ، وتزيده عظمة . وهى إيماءة ذات دلالة عميقة فى هذا المقام . والمشركون يستحلون حرمة البيت ، فيؤذون النبى ﷺ والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، يزيده كرما أن النبى ﷺ حل فيه مقيم . وحين يقسم الله – سبحانه – بالبلد والمقيم فيه ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمته ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، موقفا منكرا قبيحا من جميع الوجوه . ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار (ووالد وما ولد) إشارة خاصة إلى إبراهيم ، أو إلى إسماعيل – عليهما السلام – وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبى المقيم به ، وبانيه الأول وما ولد . . وإن كان هذا الاعتبار لا ينفى أن يكون المقصود هو:والد وما ولد إطلاقا . وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد .تمهيدا للحديث عن حقيقة الإنسان التى هى مادة السورة الأساسية . وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى هذا الموضع من تفسيره للسورة فى "جزء عم" لفتة لطيفة تتسق فى روحها مع روح هذه "الظلال" فنستعيرها منه هنا . . قال رحمه الله :

ــ ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود – وهو طور التوالد – وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود فى إبداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له ــ يقسم هذا القسم على حقيقة ثابتة فى حياة الكائن الإنسانى (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) فى مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح . . كما قال فى السورة الأخرى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) وعند بروز الأسنان كبد . وعند انتصاب القامة كبد . وعند الخطو الثابت كبد . وعند التعلم كبد . وعند التفكر كبد . وفى كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشى سواء ! ثم تفترق الطرق ، وتتنوع المشاق ؛ هذا يكدح بعضلاته . وهذا يكدح بفكره . وهذا يكدح بروحه . وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء . وهذا يكدح ليجعل الألف ألفين وعشرة آلاف . . . وهذا يكدح لملك أو جاه ، وهذا يكدح فى سبيل الله . وهذا يكدح لشهوة ونزوة . وهذا يكدح لعقيدة ودعوة . وهذا يكدح إلى النار . وهذا يكدح إلى الجنة . . والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحا إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء . وتكون الراحة الكبرى للسعداء . إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا . تختلف أشكاله وأسبابه . ولكنه هو الكبد فى النهاية . فأخسر الخاسرين هو من يعانى كبد الحياة الدنيا لينتهى إلى الكبد الأشق الأمر فى الأخرى . وأفلح الفالحين من يكدح فى الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهى عنه كبد الحياة ، وتنتهى به إلى الراحة الكبرى فى ظلال الله . وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى "الإنسان" وتصوراته التى تشى بها تصرفاته (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول:أهلكت مالا لبدا . أيحسب أن لم يره أحد ؟) إن هذا "الإنسان" المخلوق فى كبد ، الذى لا يخلص من عناء الكدح والكد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذى لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه . . فيطغى ويبطش ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى ودون أن يتحرج . . وهذه هى صفة الإنسان الذى يعرى قلبه من الإيمان . ثم إنه إذا دعى للخير والبذل [فى مثل المواضع التى ورد ذكرها فى السورة (يقول:أهلكت مالا لبدا) وأنفقت شيئا كثيرا فحسبى ماأنفقت وما بذلت !(أيحسب أن لم يره أحد)؟وينسى أن عين الله عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ما أنفق ، ولماذا أنفق ؟ ولكن هذا "الإنسان" كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه فى خفاء عن عين الله ! وأمام هذا الغرور الذى يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير ، يجابهه القرآن بفيض الآلاء عليه فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه ، وفى خصائص طبيعته واستعداداته تلك الآلاء التى لم يشكرها ولم يقم

بحقها عنده (ألم نجعل له عينين ؟ ولسانا وشفتين ؟ وهديناه النجدين ؟) إن الإنسان يغتر بقوته ، والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة . ويضن بالمال . والله هو المنعم عليه بهذا المال . ولا يهتدى ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه فى عالم المحسوسات:جعل له عينين على هذا القدر من الدقة فى تركيبهما وفى قدرتهما على الإبصار . وميزه بالنطق ، وأعطاه أداته المحكمة (ولسانا وشفتين) ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل (وهديناه النجدين) ليختار أيهما شاء ، ففى طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أى النجدين . والنجد الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقا لحكمة الله فى الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه , وتيسيره لوظيفته فى هذا الوجود . وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ؛ كما أنها تمثل قاعدة "النظرية النفسية الإسلامية هذه الآلاء التى أفاضها الله على جنس الإنسان فى خاصة نفسه ، وفى صميم تكوينه ، والتى من شأنها أن تعينه على الهدى:عيناه بما تريان فى صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموحيات الإيمان ؛ وهى معروضة فى صفحات الكون مبثوثة فى حناياه . ولسانه وشفتاه وهما أداة البيان والتعبير ؛ وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير . والكلمة أحيانا تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ؛ وأحيانا تهوى بصاحبها فى النار كما ترفعه أو تخفضه . فى هذه النار . هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا "الإنسان" إلى اقتحام العقبة التى تحول بينه وبين الجنة . هذه العقبة التى يبينها الله له فى هذه الآيات (فلا اقتحم العقبة . . وما أدراك ما العقبة ؟) هذه هى العقبة التى يقتحمها الإنسان – إلا من استعان بالإيمان – هذه هى العقبة التى تقف بينه وبين الجنة . لو تخطاها لوصل ! وتصويرها كذلك حافز قوى ، واستجاشة للقلب البشرى ، وتحريك له ليقتحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم (فلا اقتحم العقبة)! ففيه تحضيض ودفع وترغيب ! ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم (وما أدراك ما العقبة !) إنه ليس تضخيم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ، ليحفز به "الإنسان" إلى اقتحامها وتخطيها ؛ مهما تتطلب من جهد ومن كبد . فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتى ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعا وهو واقع واقع على كل حال ! وينتهى بالأمر الذى لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص ، والذى تواجهه النفوس جميعا ، وهى تتخطى العقبة إلى النجاة (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة فى عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهذا . . وأيا ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة) والمسغبة هى:المجاعة ، ويوم المجاعة الذى يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان . وقد كان اليتيم يجد فى البيئة الجاهلية الجاحدة المتكالبة الخسف والغبن . ولو كان ذا قربى . وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم . مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى . وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى فى السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج . وقد مر منها الكثير فى سورة النساء خاصة . . وفى سورة البقرة وغيرهما . وكذلك إطعام المسكين ذى المتربة – أى اللاصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله – فى يوم المسغبة يقدمه السياق القرآنى خطوة فى سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله فى عياله ، فى يوم الشدة والمجاعة والحاجة . وهاتان الخطوتان:فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إيحاءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمها فى الذكر . ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة) و (ثم) هنا ليست للتراخى الزمنى ، إنما هى للتراخى المعنوى باعتبار هذه الخطوة هى الأشمل والأوسع نطاقا والأعلى أفقا . وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان . فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام . وهو الذى يجعل للعمل الصالح وزنا فى ميزان الله . لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء محمدة من البيئة أو مصلحة . وكأنما قال:فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة . وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو . والصبر هو العنصر الضرورى للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة . والتواصى به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان . وكذلك التواصى بالمرحمة . فهو أمر زائد على المرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم فى صفوف الجماعة عن طريق التواصى به ، والتحاض عليه ، واتخاذه واجبا جماعيا فرديا فى الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع . فمعنى الجماعة قائم فى هذا التوجيه . وهو المعنى الذى يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله ﷺ لأهميته فى تحقيق حقيقة هذا الدين . فهو دين جماعة ، ومنهج أمة , مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردى فيه وضوحا كاملا . وأولئك الذين يقتحمون العقبة – كما وصفها القرآن وحددها (أولئك أصحاب الميمنة) وهم أصحاب اليمين كما جاء فى مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمين والحظ والسعادة . وكلا المعنيين

متصل فى المفهوم الإيمانى (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة) وهم أصحاب المشأمة . أى أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس . . وكلاهما كذلك قريب فى المفهوم الإيمانى . وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها ! (عليهم نار مؤصدة) أى مغلقة . إما على المعنى القريب . أى أبوابها مغلقة عليهم وهم فى العذاب محبوسون . وإما على لازم هذا المعنى القريب ؛ وهو أنهم لا يخرجون منها . فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزايلوها . . وهذان المعنيان متلازمان . . هذه هى الحقائق الأساسية فى حياة الكائن الإنسانى ، وفى التصور الإيمانى . تعرض فى هذا الحيز الصغير . بهذه القوة وبهذا الوضوح . . وهذه خاصية التعبير القرآنى الفريد. . .

سورة الشمس

مكية ، و آياتها ١٥

هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقى الواحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التى تبدأ بها السورة والتى تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التى تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان فى شأن نفسه ، وتبعته فى مصيرها . . هذه الحقيقة التى يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة . كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهى نموذج من الخيبة التى تصيب من لا يزكى نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها:كما جاء فى الفقرة الأولى فى السورة (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها)

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{١} وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{٢} وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{٣} وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{٤} وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا{٥} وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{٦} وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{٧} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{٨} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{٩} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{١٠} كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{١١} إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{١٢} فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{١٣} فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا{١٤} وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا){١٥}

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ؛ وأن يوجه إليها القلوب تتملاها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا بها من دلالة ، حتى استحقت أن يقسم بها الجليل العظيم .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقا بينها وبين القلب الإنسانى لغة سرية ! متعارف عليها فى صميم الفطرة وأغوار المشاعر . وبينها وبين الروح الإنسانى تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت ، ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب ، فى شتى المواضع . تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الحقائق والمشاهد ، وهنا نجد القسم الموحى بالشمس وضحاها . . بالشمس عامة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصة . وهى أروق ما تكون فى هذه الفترة وأحلى . فى الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش . وفى الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها . فالشمس فى الضحى فى أروق أوقاتها وأصفاها . وبالقمر إذا تلاها . . إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافى . . وبين القمر والقلب البشرى ود قديم موغل فى السرائر والأعماق ، غائر فى شعاب الضمير ، يترقرق ويستيقظ كلما التقى به القلب فى اية حال ، ويقسم بالنهار إذا جلاها مما يوحى بأن المقصود بالضحى هو الفترة الخاصة لا كل النهار . والضمير فى (جلاها) الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكورة فى السياق . ومثله (والليل إذا يغشاها) والتغشية هى مقابل التجلية . والليل غشاء يضم كل شىء ويخفيه . وهو مشهد له فى النفس وقع . وله فى حياة الإنسان أثر كالنهار سواء . ثم يقسم بالسماء وبنائها (والسماء وما بناها) (وما) هنا مصدرية . ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذى نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة فى أفلاكها ومداراتها . فأما حقيقة السماء فلا ندريها . وهذا الذى نراه فوقنا متماسكا لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه . أما كيف هو مبنى ، وما الذى يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح فى الفضاء الذى لا نعرف له أولا ولا آخرا . .

فذلك ما لا ندريه . وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل . ولا قرار لها ولا ثبات . كذلك يقسم بالأرض وطحاها (والأرض وما طحاها) والطحو كالدحو: هو البسط والتمهيد للحياة . وهى حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشرى وسائر الأجناس الحية . وهذه الخصائص والموافقات التى جعلتها يد الله فى هذه الأرض هى التى سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتدبيره . وطحو الأرض أو دحوها كما قال فى آية الأخرى. وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات . ويد الله وحدها هى التى تولت هذا الأمر . فحين يذكر هنا بطحو الأرض , فإنما يذكر بهذه اليد التى وراءه . ويلمس القلب البشرى هذه اللمسة للتدبر والذكرى . ثم تجىء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية فى سياق هذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره . وهى إحدى الآيات الكبرى فى هذا الوجود المترابط المتناسق (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة (وهديناه النجدين) وآية سورة الإنسان (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام . وهى مرتبطة ومكملة للآيات التى تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان . كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التى تقرر التبعة الفردية كقوله تعالى فى سورة المدثر (كل نفس بما كسبت رهينة) والآيات التى تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله تعالى فى سورة الرعد(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها . . إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعنى بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه [من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه] مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال . فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر . كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هذه القدرة كامنة فى كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها) ويعبر عنها بالهداية تارة (وهديناه النجدين) .فهى كامنة فى صميمه فى صورة استعداد . . والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك . ولكنها لا تخلقها خلقا . لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعا ، وكامنة إلهاما . وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة فى ذات الإنسان . هى التى تناط بها التبعة . فمن استخدم هذه القوة فى تزكية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها ، وتغليبه على استعداد الشر . . فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) وهناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو فى حقل الخير وفى حقل الشر سواء . فهى حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب . ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامى ، ولا للقوة الواعية المالكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التى تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ، ودلائل الهدى فى نفسه وفى الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق فى صورته الصحيحة . . وبذلك يتضح له الطريق وضوحا كاشفا لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذى تختاره وتسير فيه . وهذه فى جملتها هى مشيئة الله بالإنسان . وكل ما يتم فى دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام . بعد ذلك يعرض نموذجا من نماذج الخيبة التى ينتهى إليها من يدس نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها . ممثلا هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك (كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله:ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها . فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها . ولا يخاف عقباها) وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح – عليه السلام – فى مواضع شتى من القرآن . وسبق الحديث عنها فى كل موضع . وأقربها ما جاء فى هذا الجزء فى سورة "الفجر" فيرجع إلى تفصيلات القصة هناك . فأما فى هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب . وتمثل هذا الطغيان فى انبعاث أشقاها . وهو الذى عقر الناقة . وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما إرتكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذى جعل لها يوما ولهم يوم كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية – ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض فى تفصيلاته ، لأن الله لم يقل لنا عنه شيئا – فكذبوا النذير فعقروا الناقة . والذى عقرها هو هذا الأشقى . ولكنهم جميعا حملوا التبعة وعدوا أنهم عقروها ، لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية فى التكافل فى التبعة الإجتماعية فى الحياة الدنيا . لا يتعارض مع التبعة الفردية فى الجزاء الأخروى حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغى والشر . عندئذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) والدمدمة هى الغضب الشديد وما يتبعه من تنكيل . واللفظ ذاته (دمدم) يوحى بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم

مشهدا مروعا مخيفا ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها , وهو المشهد الذى يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد (ولا يخاف عقباها) سبحانه وتعالى ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخاف ؟ وأنى يخاف ؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمة المفهوم منه . فالذى لا يخاف عاقبة ما يفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان:إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله فى النفوس . وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة ، ومشاهده الثابتة ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله فى أخذ المكذبين والطغاة ، فى حدود التقدير الحكيم الذى يجعل لكل شىء أجلا ، ولكل حادث موعدا ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعا . .

سورة الليل

مكية ، و آياتها ٢١

فى إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر (إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وكانت العاقبة كذلك فى الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة (فانذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى) لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين ، وذات اتجاهين . . كذلك كان الإطار المختار لها فى مطلع السورة ذا لونين فى الكون وفى النفس سواء (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى) (وما خلق الذكر والأنثى) وهذا من بدائع التناسق فى التعبير القرآنى .

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى {١} وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى {٢} وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى {٣} إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى {٤} فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى {٥} وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى {٦} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى {٧} وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى {٨} وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى {٩} فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى {١٠} وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى {١١} إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى {١٢} وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى {١٣} فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى {١٤} لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى {١٥} الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى {١٦} وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى {١٧} الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى {١٨} وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى {١٩} إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى {٢٠} وَلَسَوْفَ يَرْضَى {٢١}

يقسم الله – سبحانه و تعالى – بهاتين الآيتين: الليل والنهار . مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد . (والليل إذا يغشى) (والنهار إذا تجلى) الليل حين يغشى البسيطة , ويغمرها ويخفيها . والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر فى تجليه كل شىء ويسفر. وهما آنان متقابلان فى دورة الفلك ، ومتقابلان فى الصورة ، ومتقابلان فى الخصائص , ومتقابلان فى الآثار . . كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين (وما خلق الذكر والأنثى) تكملة لظواهر التقابل فى جو السورة وحقائقها جميعا . والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشرى ؛ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما . والنفس تتأثر تأثرا تلقائيا بتقلب الليل والنهار . الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى ، وكذلك خلقة الذكر والأنثى . . إنها فى الأنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر فى رحم . وخلية تتحد ببويضة . ففيم هذا الاختلاف فى نهاية المطاف ؟ ما الذى يقول لهذه:كونى ذكرا . ويقول لهذه:كونى أنثى ؟ . . إن كشف هذه العوامل التى تجعل هذه النطفة تصبح ذكرا ، وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئا . . فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟ وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرا ، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذى يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟ مصادفة ؟ !إن للمصادفة كذلك قانونا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة . . فلا يبقى إلا أن هنالك مدبرا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة . فلا مجال للمصادفة ، ولا مكان للتلقائية فى نظام هذا الوجود أصلا . والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات . فهى مطردة فى سائر الأحياء ومنها النبات . قاعدة واحدة فى الخلق لا تختلف . لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق سبحانه الذى ليس كمثله شىء . يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة فى الكون وفى الناس ، على أن سعى الناس

مختلف وطرقهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ؛ فليس الخير كالشر ، وليس الهدى كالضلال ، وليس الصلاح كالفساد ، وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى . وأن لكل طريقا ، ولكل مصيرا ، ولكل جزاء وفاقا (إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى) إن سعيكم لشتى . مختلف في حقيقته . مختلف في بواعثه . مختلف فى اتجاهه . مختلف فى نتائجه . والناس فى هذه الأرض تختلف طبائعهم ، وتختلف مشاربهم ، وتختلف تصوراتهم , وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص . هذه حقيقة . ولكن هناك حقيقة أخرى . حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا . وتضم هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها فى حزمتين اثنتين . وفى صفين متقابلين . تحت رايتين عامتين (من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) و (من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعذابه . وصدق بهذه العقيدة التى إذا قيل)الحسنى)كانت اسما لها وعلما عليها . ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهداه . وكذب بهذه الحسنى . هذان هما الصفان اللذان يلتقى فيهما شتات النفوس ، وشتات السعى ، وشتات المناهج , وشتات الغايات . ولكل منهما فى هذه الحياة طريق . . ولكل منهما فى طريقه توفيق ! (فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى . . فسنيسره لليسرى) والذى يعطى ويتقى ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما فى وسعه ليزكى نفسه ويهديها . عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذى أوجبه – سبحانه – على نفسه بإرادته ومشيئته . والذى بدونه لا يكون شيء ، ولا يقدر الإنسان على شيء . ومن يسره الله لليسرى فقد وصل . . وصل في يسر وفى رفق وفى هوادة . . وصل وهو بعد فى هذه الأرض . وعاش فى يسر . يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله . اليسر فى خطوه . واليسر فى طريقه . واليسر فى تناوله للأمور كلها . والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها . وهى درجة تتضمن كل شيء فى طياتها . حيث تسلك صاحبها مع رسول الله ﷺ في وعد ربه له: ونيسرك لليسرى (وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . . فسنيسره للعسرى) والذى يبخل بنفسه وماله ، ويستغنى عن ربه وهداه ، ويكذب بدعوته ودينه . . يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد . ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء ، فييسره للعسرى ! ويوفقه إلى كل وعورة ! ويحرمه كل تيسير ! ويجعل فى كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا ، ينحرف به عن طريق الرشاد . ويصعد به فى طريق الشقاوة . وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح . وإنما هو يعثر فيتقى العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ، وتنأى به عن رضاه . . فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذى بخل به ، والذى استغنى به كذلك عن الله وهداه (وما يغنى عنه ماله إذا تردى) والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى ، وإن أفلح صاحبها فى هذه الأرض ونجا . . وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها لهى العسرى ! . هكذا ينتهى المقطع الأول فى السورة . وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية فى كل زمان ومكان . وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان . وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! فييسر الله له طريقه:إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى . فأما المقطع الثانى فيتحدث عن مصير كل فريق . ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى , ومن يسره للعسرى . وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم . فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم نارا تلظى (إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى) لقد كتب الله على نفسه – فضلا منه بعباده ورحمة – أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم . وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات ، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد (إن علينا للهدى) واللمسة الثانية هى التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التى تحيط بالناس ، فلا يجدون من دونها موئلا (وإن لنا للآخرة والأولى) فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدا ؟ ! وتفريعا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى دارى الجزاء والعمل . تفريعا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم (فأنذرتكم نارا تلظى) وتتسعر . هذه النار المتسعرة (لا يصلاها إلا الأشقى) أشقى العباد جميعا . وهل بعد الصلى فى النار شقوة ؟ ثم يبين من هو الأشقى . إنه (الذى كذب وتولى) كذب بالدعوة وتولى عنها . تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتى إليه راغبا (وسيجنبها الأتقى) وهو الأسعد فى مقابل الأشقى . ثم يبين من هو الأتقى (الذى يؤتى ماله يتزكى) الذى ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لا ليرائى به ويستعلى . ينفقه تطوعا لا ردا لجميل أحد ، ولا طلبا لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصا . . ربه الأعلى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذى يؤتى ماله تطهرا ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذى يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب . ومفاجئ . وعلى غير المألوف (ولسوف يرضى) إنه الرضى

ينسكب فى قلب هذا الأتقى . إنه الرضى يغمر روحه . إنه الرضى يفيض على جوارحه . إنه الرضى يشيع فى كيانه . إنه الرضى يندى حياته . ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى ! (ولسوف يرضى) يرضى بدينه . ويرضى بربه . ويرضى بقدره . ويرضى بنصيبه . ويرضى بما يجد من سراء وضراء . ومن غنى وفقر . ومن يسر وعسر . ومن رخاء وشدة . يرضى فلا يقلق ولا يضيق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء ، ولا يستبعد الغاية . . إن هذا الرضى جزاء - جزاء أكبر من كل جزاء - إنه جزاء لا يمنحه إلا الله . وهو يسكبه فى القلوب التى تخلص له ، فلا ترى سواه أحدا .

سورة الضحى
مكية ، و آياتها ١١

هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان . ونسمة من رحمة ، وطائف من ود . ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة واليقين . إنها كلها خالصة للنبى ﷺ كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخاطر المقلق ، والقلب الموجوع . ورد فى روايات كثيرة أن الوحى فتر عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه جبريل - عليه السلام -فقال المشركون: ودع محمدا ربه ! فأنزل الله تعالى هذه السورة . . والوحى ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هى زاد الرسول ﷺ فى مشقة الطريق . وسقياه فى هجير الجحود . وروحه فى لأواء التكذيب . وكان ﷺ يحيا بها فى هذه الهاجرة المحرقة التى يعانيها فى النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها فى المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة ، وعلى الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين . فلما فتر الوحى انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه الينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب . وبقى للهاجرة وحده . بلا زاد . وبلا رى . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود . وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه . عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين (ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى) وما تركك ربك من قبل أبدا ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه (ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟) ألا تجد مصداق هذا فى حياتك ؟ ألا تحس مس هذا فى قلبك ؟ ألا ترى أثر هذا فى واقعك ؟ لا . لا . (ما ودعك ربك وما قلى) وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدا (وللآخرة خير لك من الأولى) وهناك ما هو أكثر وأوفى (ولسوف يعطيك ربك فترضى)! ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه . . الأنسام اللطيفة فى العبارة والإيقاع . . وفى الإطار الكونى الذى وضعت فيه هذه الحقيقة (ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟) ذلك الحنان . وتلك الرحمة . وذاك الرضى . وهذا الشجى: تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية فى التعبير . الموسيقى الرتيبة الحركات ، الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الإيقاع . . فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجى . أصفى آنين من آونة الليل والنهار . وأشف آنين تسرى فيهما التأملات . وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود . وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء . وصورهما فى اللفظ المناسب . فالليل هو (الليل إذا سجى) لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه . الليل الساجى الذى يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، والتأمل الوديع . كجو اليتم والعيلة . ثم ينكشف ويجلى مع الضحى الرائق الصافى . . فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار . ويتم التناسق والإتساق" . إن هذا الإبداع فى كمال الجمال ليدل على الصنعة . صنعة الله التى لا تماثلها صنعة ,ولا يتلبس بها تقليد !

(وَالضُّحَى {١} وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى {٢} مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى {٣} وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى {٤} وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى {٥} أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى {٦} وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى {٧} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى {٨} فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ {٩} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ {١٠} وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) {١١}

(والضحى . والليل إذا سجى) يقسم الله سبحانه – بهذين الآنين الرائقين الموحيين . فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس . ويوحى إلى القلب البشرى بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحى ، المتعاطف مع كل حى . فيعيش ذلك القلب فى أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد . . وفى هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنما يوحى الله لرسوله ﷺ منذ مطلع السورة ، أن ربه أفاض من حوله الأنس فى هذا الوجود ، وأنه من ثم غير مجفو فيه ولا فريد ! وبعد هذا الإيحاء الكونى يجىء التوكيد المباشر(ما ودعك ربك وما قلى) ما تركك ربك ولا جافاك – كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك وهو (ربك) وأنت عبده المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته , وهو راعيك وكافلك . وما غاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده فى الآخرة من الحسنى خيرا مما يعطيك منها فى الدنيا (وللآخرة خير لك من الأولى) فهو الخير أولا وأخيرا . وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق فى دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك , وظهور حقك . . وهى الأمور التى كانت تشغل باله ﷺ وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد . والشماتة (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ويمضى سياق السورة يذكر الرسول ﷺ ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق . ليستحضر فى خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهى . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع (ألم يجدك يتيما فآوى ؟ ووجدك ضالا فهدى ؟ ووجدك عائلا فأغنى ؟) انظر فى واقع حالك ، وماضى حياتك . . هل ودعك ربك وهل قلاك – حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ – ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟ لقد ولدت يتيما فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبى طالب وهو على غير دينك ! ولقد كنت فقيرا فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك [خديجة رضى الله عنها] عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء ! ثم لقد نشأت فى جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها . ولكنك لم تكن تجد لك طريقا واضحا مطمئنا . لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا . . ثم هداك الله بالأمر الذى أوحى به إليك ، وبالمنهج الذى يصلك به . والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هى المنة الكبرى ، التى لا تعدلها منة ; وهى الراحة والطمأنينة من القلق الذى لا يعدله قلق ؛ ومن التعب الذى لا يعدله تعب , ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله ﷺ يعانيه فى هذه الفترة ، من انقطاع الوحى وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحى فى التيه وهو لم يتركه من قبل فى الحيرة والتيه ! وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة . . يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفى أولها: الهداية إلى هذا الدين (فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث)

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهى عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة ، كانت – كما ذكرنا مرارا – من أهم إيحاءات الواقع فى البيئة الجاحدة المتكالبة ، التى لا ترعى حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل , والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله ، الذى يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفا يذودون به عن هذه الحقوق . وأما التحدث بنعمة الله – وبخاصة نعمة الهدى والإيمان – فهو صورة من صور الشكر للمنعم . يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملى للشكر ، والحديث الصامت النافع الكريم . .

سورة الشرح

مكية ، و آياتها ٨

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى . وكأنها تكملة لها . فيها ظل العطف الندى . وفيها روح المناجاة الحبيب . وفيها استحضار مظاهر العناية . واستعراض مواقع الرعاية . وفيها البشرى باليسر والفرج . وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق (ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك . الذى

أنقض ظهرك ؟ ورفعنا لك ذكرك ؟) وهى توحى بأن هناك ضائقة كانت فى روح الرسول ﷺ لأمر من أمور هذه الدعوة التى كلفها , ومن العقبات الوعرة فى طريقها ؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها . توحي بأن صدره ﷺ كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحا على كاهله . وأنه كان فى حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد . ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود !

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ{١} وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{٢} الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ{٣} وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ{٤} فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{٥} إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{٦} فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{٧} وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ){٨}

(ألم نشرح لك صدرك ؟) ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ . ونجعلها حبيبة لقلبك ، ونشرع لك طريقها ؟ وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة ! فتش فى صدرك - ألا تجد فيه الروح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستعد فى حسك مذاق هذا العطاء ، ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب ، واليسر مع كل عسر ، والرضى مع كل حرمان ؟(ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك) ووضعنا عنك عبئك الذى أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله . . وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان . وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب . وبالوحى الذى يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس فى يسر وهوادة ولين . ألا تجد ذلك فى العبء الذى أنقض ظهرك ؟ ألا تجد عبئك خفيفا بعد أن شرحنا لك صدرك ؟ (ورفعنا لك ذكرك) رفعناه فى الملأ الأعلى ، ورفعناه فى الأرض ، ورفعناه فى هذا الوجود جميعا . . رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله كلما تحركت به الشفاه لا إله إلا الله . محمد رسول الله" . . وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة . وهو المقام الذى تفرد به ﷺ دون سائر العالمين . . ورفعنا لك ذكرك فى اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه فى كل مكان تهتف بهذا الأسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم . ورفعنا لك ذكرك . وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهى الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد فى هذا الوجود . . فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذى يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ، ويسرى عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذى لا يفارقه (فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا) إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه . وقد لازمه معك فعلا . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، فخف حملك ، الذى أنقض ظهرك . وكان اليسر مصاحبا للعسر ، يرفع إصره ,ويضع ثقله . ثم يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الرى والزاد فى الطريق الشاق الطويل (فإذا فرغت فانصب) إن مع العسر يسرا . . فخذ فى أسباب اليسر والتيسير . فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ، ومع شواغل الحياة . . إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد . . العبادة والتجرد والتطلع والتوجه . (وإلى ربك فارغب) إلى ربك وحده خاليا من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم . . إنه لا بد من الزاد للطريق . وهنا الزاد . ولا بد من العدة للجهاد . وهنا العدة . . وهنا ستجد يسرا مع كل عسر ، وفرجا مع كل ضيق . . هذا هو الطريق ! وتنتهى هذه السورة وقد تركت فى النفس شعورين ممتزجين: الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم . والشعور بالعطف على شخصه ﷺ ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم فى هذه الآونة التى اقتضت ذلك الود الجميل . إنها الدعوة . هذه الأمانة الثقيلة وهذا العبء الذى ينقض الظهر . وهى مع هذا وهذا مشرق النور الإلهى ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود !

سورة التين

مكية ، و آياتها ٨

الحقيقة الرئيسية التى تعرضها هذه السورة هى حقيقة الفطرة القويمة التى فطر الله الإنسان عليها ، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان ، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها . وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان . ويقسم الله - سبحانه - على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ،

وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء – هو الإطار الذى تعرض فيه تلك الحقيقة . وقد رأينا فى السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التى تعرض فيه تناسقا دقيقا . وطور سينين هو الطور الذى نودى موسى – عليه السلام – من جانبه . والبلد الأمين هو مكة بيت الله الحرام . . وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة . . فأما التين والزيتون فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا .وقد كثرت الأقوال المأثورة فى التين والزيتون . . قيل:إن التين إشارة إلى طورتينا بجوار دمشق . وقيل:هو إشارة إلى شجرة التين التى راح آدم وزوجه يخصفان من ورقها على سوآتهما فى الجنة التى كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا . وقيل:هو منبت التين فى الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح – عليه السلام . وقيل فى الزيتون:إنه إشارة إلى طور زيتا فى بيت المقدس . وقيل:هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه . وقيل:هو إشارة إلى غصن الزيتون الذى عادت به الحمامة التى أطلقها نوح عليه السلام – من السفينة – لترتاد حالة الطوفان . فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض انكشفت وأنبتت !وقيل:بل التين والزيتون هما هذان الأكلان الذان نعرفهما بحقيقتهما . وليس هناك رمز لشىء وراءهما . أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض . ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشىء فى هذا الأمر . وكل ما نملك أن نقوله – اعتمادا على نظائر هذا الإطار فى السور القرآنية –:إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان . أو ذات علاقة بنشأة الإنسان فى أحسن تقويم [وربما كان ذلك فى الجنة التى بدأ فيها حياته] كى تلتئم هذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة فى السورة

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{١} وَطُورِ سِينِينَ{٢} وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{٣} لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{٤} ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{٥} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{٦} فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{٧} أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ){٨}

يقسم سبحانه تعالى ب: التين و هو الفاكهة المعروفة و الزيتون و هو الحب الذى يأكل بعد تحضيره و يستخرج منه الزيت و طور سينين هو الجبل حيث كلم الله نبيه موسى عليه السلام ، و البلد الأمين و هو مكة المكرمة بأنه عز وجل (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) فطرة واستعدادا (ثم رددناه أسفل سافلين) حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال فى دار الكمال (فلهم أجر غير ممنون) دائم غير مقطوع . فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها فى المنحدر ، حتى تستقر فى الدرك الأسفل . هناك فى جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحضون للسفول ! فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء . . إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح . . فهى واصلة فى النهاية إلى كمالها المقدر فى حياة النعيم . . وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية . . فهى واصلة فى النهاية إلى دركها المقدر فى حياة الجحيم . وفى ظل هذه الحقيقة ينادى "الإنسان" (فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟ وبعد إدراك قيمة الإيمان فى حياة البشرية ؟ وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟ (أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم فى أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو . . أليست حكمة الله بالغة فى هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟ والعدل واضح . والحكمة بارزة . . ومن ثم ورد فى الحديث المرفوع عن أبى هريرة:" فإذا قرأ أحدكم (والتين والزيتون) فأتى آخرها (أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين " .

سورة العلق

مكية ، و آياتها ١٩

مطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق . والروايات التى تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة . قال الإمام أحمد:حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر بن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل

فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك ، فقال:اقرأ . قال:ما أنا بقارئ ، قال:فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد . ثم أرسلنى فقال:اقرأ . فقلت:ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال:اقرأ . فقلت:ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم قال (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة , فقال " زملونى زملونى " فزملوه حتى ذهب عنه الروع ،فقال:يا خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر . وقال:" قد خشيت على نفسى " فقالت له: كلا . أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها . وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربى ، وكتب العبرانية من الإنجيل - ما شاء الله أن يكتب - وكان شيخا كبيرا قد عمى . فقالت خديجة: أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة:ابن أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى . فقال ورقة: هذا الناموس الذى أنزل على موسى . ليتنى فيها جذع ، ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ :" أو مخرجى هم ؟ " فقال ورقة:نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن أدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفى . . الخ" . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى . وقفت هنا أمام هذا الحادث الذى طالما قرأناه فى كتب السيرة وفى كتب التفسير ، ثم مررنا به وتركناه , أو تلبثنا عنده قليلا ثم جاوزناه ! إنه حادث ضخم . ضخم جدا . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته , فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا ! إنه حادث ضخم بحقيقته . وضخم بدلالته . وضخم بآثاره فى حياة البشرية جميعا . . وهذه اللحظة التى تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هى أعظم لحظة مرت بهذه الأرض فى تاريخها الطويل . ما حقيقة هذا الحادث الذى تم فى هذه اللحظة ؟ حقيقته أن الله جل جلاله ، العظيم الجبار القهار المتكبر ، مالك الملك كله ، قد تكرم - فى عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان ، القابعة فى ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض . ذلك شأن المقطع الأول من السورة . فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد . فهى تشير إلى مواقف وحوادث فى السيرة لم تجىء إلا متأخرة ، بعد تكليف الرسول ﷺ إبلاغ الدعوة ، والجهر بالعبادة ، وقيام المشركين بالمعارضة . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى فى السورة (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ؟). . . الخ ولكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة ، وتسلسلا فى ترتيب الحقائق التى تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم . يجعل من السورة كلها وحدة منسقة متماسكة . .

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{١} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{٢} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{٣} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{٤} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{٥} كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى{٦} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى{٧} إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى{٨} أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{٩} عَبْداً إِذَا صَلَّى{١٠} أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{٢١} أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{١٢} أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{١٣} أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{١٤} كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{١٥} نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{١٦} فَلْيَدْعُ نَادِيَه{١٧} سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{١٨} كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ){١٩}

إنها السورة الأولى من هذا القرآن ، فهى تبدأ باسم الله . وتوجه الرسول [ص] أول ما توجه ، فى أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى ، وفى أول خطوة من خطواته فى طريق الدعوة التى اختير لها . . توجهه إلى أن يقرأ باسم الله (اقرأ باسم ربك) وتبدأ من صفات الرب بالصفة التى بها الخلق والبدء (الذى خلق) ثم تخصص:خلق الإنسان ومبدأه (خلق الإنسان من علق) من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم . من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين . فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته . فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذى يعلم فيتعلم (اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) وإنها لنقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير . ولكن الله قادر . ولكن الله كريم . ومن ثم كانت هذه النقلة التى تدير الرؤوس ! وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم . تعليم الرب للإنسان (بالقلم) لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا فى حياة الإنسان . . ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذى نلمسه الآن ونعرفه فى حياة البشرية . ولكن الله - سبحانه - كان يعلم قيمة القلم ، فيشير إليه هذه الإشارة فى أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية . فى أول سورة من سور القرآن الكريم . . هذا مع أن الرسول الذى جاء بها لم يكن كاتبا بالقلم ، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذى يقول هذا القرآن . لولا أنه الوحى ، ولولا أنها الرسالة ! ثم تبرز مصدر التعليم . . إن مصدره هو الله . منه يستمد الإنسان كل ما علم ، وكل ما يعلم . وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود ،

ومن أسرار هذه الحياة ، ومن أسرار نفسه . فهو من هناك . من ذلك المصدر الواحد ، الذى ليس هناك سواه . وبهذا المقطع الواحد الذى نزل فى اللحظة الأولى من اتصال الرسول ﷺ بالملأ الأعلى , بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيمانى العريضة ، كل أمر . كل حركة . كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه . وإليه تصير . والله هو الذى خلق . وهو الذى علم . فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة . . والإنسان يتعلم ما يتعلم ، ويعلم ما يعلم . . فمصدر هذا كله هو الله الذى خلق والذى علم (علم الإنسان ما لم يعلم) وهذه الحقيقة القرآنية الأولى ، التى تلقاها قلب رسول الله ﷺ فى اللحظة الأولى هى التى ظلت تصرف شعوره ، وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجاهه ، بعد ذلك طوال حياته . بوصفها قاعدة الإيمان الأولى . ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة:حقيقة أن الله هو الذى خلق . وهو الذى علم . وهو الذى أكرم . أن يعرف الإنسان . ويشكر . ولكن الذى حدث كان غير هذا ، وهذا الانحراف هو الذى يتحدث عنه المقطع الثانى للسورة (كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى) إن الذى أعطاه فأغناه هو الله . كما أنه هو الذى خلقه وأكرمه وعلمه . ولكن الإنسان فى عمومه – لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه – لا يشكر حين يعطى فيستغنى ; ولا يعرف مصدر النعمة التى أغنته ، وهو المصدر الذى أعطاه خلقه وأعطاه علمه . . ثم أعطاه رزقه . . ثم هو يطغى ويفجر ، ويبغى ويتكبر ، من حيث كان ينبغى أن يعرف ثم يشكر . وحين تبرز صورة الإنسان الطاغى الذى نسى نشأته وأبطره الغنى ، يجىء التعقيب بالتهديد الملفوف (إن إلى ربك الرجعى) فأين يذهب هذا الذى طغى واستغنى ؟ وفى الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيمانى . قاعدة الرجعة إلى الله . الرجعة إليه فى كل شىء وفى كل أمر ، وفى كل نية ، وفى كل حركة ، فليس هناك مرجع سواه . إليه يرجع الصالح والطالح . والطائع والعاصى . والمحق والمبطل . والخير والشرير . والغنى والفقير . وإليه يرجع هذا الذى يطغى أن رآه استغنى . ألا إلى الله تصير الأمور . ومنه النشأة وإليه المصير . . ثم يمضى المقطع الثالث فى السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان:صورة مستنكرة يعجب منها ، ويفظع وقوعها فى أسلوب قرآنى فريد (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى؟). والتشنيع والتعجيب واضح فى طريقة التعبير ، التى تتعذر مجاراتها فى لغة الكتابة . ولا تؤدى إلا فى أسلوب الخطاب الحى . الذى يعبر باللمسات المتقطعة فى خفة وسرعة ! (أرأيت)؟ أرأيت هذا الأمر المستنكر ؟ أرأيته يقع ؟(أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة ؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة ؟ أرأيت إن كان هذا الذى يصلى ويتعرض له من ينهاه عن صلاته . . إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ ثم ينهاه من ينهاه . مع أنه على الهدى ، أمر بالتقوى ؟ . أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة فعلة أخرى أشد نكرا ؟(أرأيت إن كذب وتولى ؟) هنا يجىء التهديد الملفوف كما جاء فى نهاية المقطع الماضى:(ألم يعلم بأن الله يرى (?يرى تكذيبه وتوليه . ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى ، وهو على الهدى ، آمر بالتقوى . يرى . وللرؤية ما بعدها !(ألم يعلم بأن الله يرى !) وأمام مشهد الطغيان الذى يقف فى وجه الدعوة وفى وجه الإيمان ، وفى وجه الطاعة ، يجىء التهديد الحاسم الرادع الأخير ، مكشوفا فى هذه المرة لا ملفوفا: كلا . لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية . إنه تهديد فى إبانه . فى اللفظ الشديد العنيف (كلا . لئن لم ينته لنسفعن بالناصية) هكذا (لنسفعن) بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه . والسفع: هو الأخذ بعنف . والناصية: هى الجبهة . أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر . مقدم الرأس المتشامخ: إنها ناصية تستحق السفع والصرع (ناصية كاذبة خاطئة)! وإنها للحظة سفع وصرع . فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه (فليدع ناديه) أما نحن فإننا (سندع الزبانية) الشداد الغلاظ . . والمعركة إذن معروفة المصير ! وفى ضوء هذا المصير المتخيل الرعيب . . تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته (كلا . لا تطعه ، واسجد ، واقترب) كلا ! لا تطع هذا الطاغى الذى ينهى عن الصلاة والدعوة . واسجد لربك واقترب منه بالطاعة والعبادة . ودع هذا الطاغى . الناهى دعه للزبانية ! ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة – عدا المقطع الأول منها – قد نزلت فى أبى جهل إذ مر برسول الله ﷺ وهو يصلى عند المقام . فقال [يا محمد . ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره . .] ولعلها هى التى أخذ فيها رسول الله ﷺ بخناقه وقال له: أولى لك ثم أولى فقال:يا محمد بأى شى تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديا ، فأنزل الله (فليدع ناديه . . .) وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . ولكن دلالة السورة عامة فى كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله . وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة ، ويتوعد على الطاعة ، ويختال بالقوة . . والتوجيه الربانى الأخير (كلا ! لا تطعه واسجد واقترب) وهكذا تتناسق مقاطع السورة كلها وتتكامل إيقاع

سورة القدر

مكية ، و آياتها ٥

الحديث فى هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التى سجلها الوجود كله فى فرح وغبطة وابتهال . ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد ﷺ ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته , وفى دلالته ، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعا . العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ{١} وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ{٢} لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ{٣} تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ{٤} سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ{٥}

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ؟) (ليلة القدر خير من ألف شهر) والنصوص القرآنية التى تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير . بل هى تفيض بالنور الهادئ السارى الرائق الودود . نور الله المشرق فى قرآنه (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ونور الملائكة والروح وهم فى غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملأ والأعلى (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ونور الفجر الذى تعرضه النصوص متناسقا مع نور الوحى ونور الملائكة ، وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية فى هذا الوجود (سلام هى حتى مطلع الفجر) والليلة التى تتحدث عنها السورة هى الليلة التى جاء ذكرها فى سورة الدخان (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) والمعروف أنها ليلة من ليالى رمضان ، كما ورد فى سورة البقرة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) أى التى بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول ﷺ ليبلغه إلى الناس . وفى رواية ابن إسحاق أن أول الوحى بمطلع سورة العلق كان فى شهر رمضان ، ورسول الله ﷺ يتحنث فى غار حراء . وقد ورد فى تعيين هذه الليلة آثار كثيرة . بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان . وبعضها يعين الليلة الواحدة والعشرين . وبعضها يعينها ليلة من الليالى العشر الأخيرة . وبعضها يطلقها فى رمضان كله . فهى ليلة من ليالى رمضان على كل حال فى أرجح الآثار واسمها (ليلة القدر) قد يكون معناه التقدير والتدبير . وقد يكون معناه القيمة والمقام . وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكونى العظيم . حدث القرآن والوحى والرسالة . . وليس أعظم منه ولا أقوم فى أحداث هذا الوجود . وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير فى حياة العبيد . وهى خير من ألف شهر . والعدد لا يفيد التحديد . فى مثل هذه المواضع من القرآن . إنما هو يفيد التكثير . والليلة خير من آلاف الشهور فى حياة البشر . فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك فى الحياة بعض ما تركته هذه الليلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات . والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشرى (وما أدراك ما ليلة القدر) وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التى شاعت حول هذه الليلة فى أوهام العامة . فهى ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن . وإفاضة هذا النور على الوجود كله ، وإسباغ السلام الذى فاض من روح الله على الضمير البشرى والحياة الإنسانية ، وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام فى الأرض والضمير . وتنزيل الملائكة وجبريل – عليه السلام – خاصة ، بإذن ربهم , ومعهم هذا القرآن – باعتبار جنسه الذى نزل فى هذه الليلة – وانتشارهم فيما بين السماء والأرض فى هذا المهرجان الكونى ، الذى تصوره كلمات السورة تصويرا عجيبا . . وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة ، ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذى شهدته الأرض فى هذه الليلة ، ونتدبر حقيقة الأمر الذى تم فيها ، ونتملى آثاره المتطاولة فى مراحل الزمان ، وفى واقع الأرض ، وفى تصورات القلوب والعقول . . فإننا نرى أمرا عظيما حقا . وندرك طرفا من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة (وما أدراك ما ليلة القدر ؟). ولقد فرق فيها من كل أمر حكيم . وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين . وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد . أقدار أمم ودول وشعوب . بل أكثر وأعظم . . أقدار حقائق وأوضاع وقلوب ! ولقد تغفل البشرية – لجهالتها ونكد طالعها – عن قدر ليلة القدر . وعن حقيقة ذلك الحدث , وعظمة هذا الأمر . وهى منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها , وخسرت السعادة والسلام الحقيقى – سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع – الذى وهبها إياه الإسلام . ولم يعوضها عما فقدت ما فتح

عليها من أبواب كل شيء من المادة والحضارة والعمارة . فهى شقية ، شقية على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش ! لقد انطفأ النور الجميل الذى أشرق فى روحها مرة ، وانطمست الفرحة الوضيئة التى رفت بها وانطلقت إلى الملأ الأعلى . وغاب السلام الذى فاض على الأرواح والقلوب . فلم يعوضها شيء عن فرحة الروح ونور السماء وطلاقة الرفرفة إلى عليين . . ونحن - المؤمنين - مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل هذه الذكرى ؛ وقد جعل لنا نبينا ﷺ سبيلا هينا لينا لاستحياء هذه الذكرى فى أرواحنا لتظل موصولة بها أبدا ، موصولة كذلك بالحدث الكونى الذى كان فيها . . وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام ، ومن تحريها والتطلع إليها فى الليالى العشر الأخيرة من رمضان . . فى الصحيحين:" تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان " . . وفى الصحيحين كذلك ":من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " . . والإسلام ليس شكليات ظاهرية . ومن ثم قال رسول الله ﷺ فى القيام فى هذه الليلة أن يكون "إيمانا واحتسابا" . . وذلك ليكون هذا القيام استحياء للمعانى الكبيرة التى اشتملت عليها هذه الليلة "إيمانا" وليكون تجردا لله وخلوصا "واحتسابا" . . ومن ثم تنبض فى القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذى نزل به القرآن . والمنهج الإسلامى فى التربية يربط بين العبادة وحقائق العقيدة فى الضمير ، ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هذه الحقائق وإيضاحها وتثبيتها فى صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفكير . وقد ثبت أن هذا المنهج وحده هو أصلح المناهج لإحياء هذه الحقائق ومنحها الحركة فى عالم الضمير وعالم السلوك . وأن الإدراك النظرى وحده لهذه الحقائق بدون مساندة العبادة , وعن غير طريقها ، لا يقر هذه الحقائق ، ولا يحركها حركة دافعة فى حياة الفرد ولا فى حياة الجماعة . .

وهذا الربط بين ذكرى ليلة القدر وبين القيام فيها إيمانا واحتسابا ، هو طرف من هذا المنهج الإسلامى الناجح القويم .

سورة البينة

مدنية ، و آياتها ٨

السورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية فى أسلوب تقريرى هو الذى يرجح أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بهذا . والحقيقة الأولى هى أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة:رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة)

والحقيقة الثانية :أن أهل الكتاب لم يختلفوا فى دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة)

والحقيقة الثالثة:أن الدين فى أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف فى ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة)

والحقيقة الرابعة:أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافا بينا (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه)

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة فى إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة . وفى التصور الإيمانى كذلك . نفصلها فيما يلى:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{١} رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً{٢} فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{٣} وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{٤} وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{٥} إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ{٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{٧} جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{٨}

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة:رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ، فيها كتب قيمة) لقد كانت الأرض فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة . وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركون فى الجزيرة العربية وفى خارجها سواء . وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذى صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة , وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) مطهرة من الشرك والكفر(فيها كتب قيمة) والكتاب يطلق على الموضوع , كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة ، وكتاب القدر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة – وهى هذا القرآن – فيها كتب قيمة أى موضوعات وحقائق قيمة . . على أن الدين فى أصله واضح والعقيدة فى ذاتها بسيطة (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وهذه هى قاعدة دين الله على الإطلاق ، عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة (وذلك دين القيمة) عقيدة خالصة فى الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال فى سبيل الله ، وهو الزكاة . . فمن حقق هذه القواعد ,فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب ، فأما وقد جاءتهم البينة من قبل فى دياناتهم على أيدى رسلهم ؛ ثم جاءتهم البينة ، حية فى صورة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ؛ ويقدم لهم عقيدة ، واضحة بسيطة ميسرة ، فقد تبين الطريق . ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه) إن محمدا ﷺ هو الرسول الأخير ؛ وإن الإسلام الذى جاء به هو الرسالة الأخيرة . وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح . وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة ، لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك . ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذى لا حد له ، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية) حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال . مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان ، بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير . لا نستريب فى هذا الحكم لأى مظهر من مظاهر الصلاح ، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية) حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال . ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال . إنه الإيمان . لا مجرد مولد فى أرض تدعى الإسلام ، أو فى بيت يقول:إنه من المسلمين . ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ! إنه الإيمان الذى ينشئ آثاره فى واقع الحياة (وعملوا الصالحات) وليس هو الكلام الذى لا يتعدى الشفاه ! والصالحات هى كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل . وفى أولها إقامة شريعة الله فى الأرض ، والحكم بين الناس بما شرع الله . فمن كانوا كذلك فهم خير البرية (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) جنات للإقامة الدائمة فى نعيمها الذى يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات . والطمأنينة من القلق الذى يعكر وينغص كل طيبات الأرض . . كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو يلقى ظلال النداوة والحياة والجمال ! ثم يرتقى السياق درجة أو درجات فى تصوير هذا النعيم المقيم (رضى الله عنهم ورضوا عنه) هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم . وهذا الراضا فى نفوسهم عن ربهم الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن إنعامه عليهم والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذى يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق إنه تعبير يلقى ظلاله بذاته (رضى الله عنهم ورضوا عنه) حيث يعجز

أى تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال ! (ذلك لمن خشى ربه) وذلك هو التوكيد الأخير . التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله ، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهى عن كل انحراف . . الشعور الذى يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عاريا أمام الواحد القهار . والذى يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك فى كل صورة من صوره . فالذى يخشى ربه حقا لا يملك أن يخطر فى قلبه ظلا لغيره من خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك . فإما عمل خالص له ، وإلا لم يقبله . تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هى مقررات هذه السورة الصغيرة ، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذى يتجلى بصفة خاصة فى هذه السور القصار . .

سورة الزلزلة

مدنية ، و آياتها ٨

هذه السورة مدنية فى المصحف وفى بعض الروايات ؛ ومكية فى بعض الروايات الأخرى . ونحن نرجح الروايات التى تقول بأنها مكية ، وأسلوبها التعبيرى وموضوعها يؤيدان هذا . إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظى . وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء فى بضع فقرات قصار ! وهذا هو طابع الجزء كله ، يتمثل فى هذه السورة تمثلا قويا . . .

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا{١} وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا{٢} وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا{٣} يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا{٤} بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا{٥} يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ{٦} فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{٧} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَهُ){٨}

(إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها) إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا ، وتزلزل زلزالا ، وتنفض ما فى جوفها نفضا ، وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلا . وكأنها تتخفف من هذه الأثقال ، التى حملتها طويلا ! وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شىء ثابت ؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتا باقيا ؛ وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التى يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة ! ويزيد هذا الأثر وضوحا بتصوير "الإنسان" حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده (وقال الإنسان:ما لها ؟) وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء ، الذى يرى ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ,ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت . مالها ؟ ما الذى يزلزلها هكذا ويرجها رجا ؟ مالها ؟ وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ؛ ويحاول أن يمسك بأى شىء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يمور مورا شديدا ! والإنسان" قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبها بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين فى الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به . أمر لا يعرف له سرا ، ولا يدكر له نظيرا . أمر هائل يقع للمرة الأولى ! (يومئذ) يوم يقع هذا الزلزال ويشده أمامه الإنسان (تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها . . لقد كان ما كان لها (بأن ربك أوحى لها) وأمرها أن تمور مورا ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه أليها . وهنا و"الإنسان" مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعا ورعبا ، ودهشة وعجبا ، واضطرابا ومورا . . هنا و"الإنسان" لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل:مالها مالها ؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وفى لمحة نرى مشهد القيام من القبور (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) نرى مشهدهم شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض . . وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق فى أجيالها جميعا تنبعث من هنا ومن هناك . وحيثما امتد البصر رأى شبحا ينبعث ثم ينطلق مسرعا ! لا يلوى على شىء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه ممدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروع . مفزع . مرعب . مذهل (

ليروا أعمالهم) وهذه أشد وأدهى . . إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ، ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانا أقسى من كل جزاء . وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه ليشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟! إنها عقوبة هائلة رهيبة . . مجرد أن يروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذى لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازى عليها (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ذرة . . كان المفسرون القدامى يقولون:إنها البعوضة . وكانوا يقولون:إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس . . . فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة . . . فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الإسم ,وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنما هي" رؤيا" في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها ! فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! . . . عندئذ لا يحقر "الإنسان" شيئا من عمله . خيرا كان أو شرا . ولا يقول:هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله إرتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذى ترجح به الذرة أو تشيل ! إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض . . إلا في القلب المؤمن . . القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر . . . وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر . . ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال . . إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب !!

سورة العاديات

مكية ، و آياتها ١١

يجرى سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من احداها إلى الأخرى قفزا وركضا ووثبا ، في خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهى إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف ! وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ,المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في صفوفه الذعر والفرار ! يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد ! ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور ! وفي الختام ينتهى النقع المثار ، وينتهى الكنود والشح ، وتنتهى البعثرة والجمع . . إلى نهايتها جميعا . إلى الله . فتستقر هناك (إن ربك بهم يومئذ لخبير) والإيقاع الموسيقى فيه خشونة ودمدمة وفرقعة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذى تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ,والأثرة والشح الشديد . . فلما أراد لهذا كله إطارا مناسبا ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة فجاءة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار . . . فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار .

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً{١} فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً{٢} فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً{٣} فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً{٤} فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً{٥} إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{٦} وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ{٧} وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{٨} أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ{٩} وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ{١٠} إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ){١١}

(و العاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا) يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها حتى تورى الشرر منها ,مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب ! إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة . . . والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوى بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته سبحانه إليها ؟ (إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد) إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده في

مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذى يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها . أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود):وإنه على ذلك لشهيد). . يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال ! (وإنه لحب الخير لشديد) فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير . ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا . . . ثم تجىء اللفتة الأخيرة فى السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه . مع عرض مشهد البعث والحشر فى صورة تنسى حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ؟) وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما فى القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التى ضنت بها وخبأتها بعيدا عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسى . . فالجو كله عنف وشدة وتعفير ! أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولا يذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفى لهز المشاعر . ثم ليدع النفس تبحث عن الجواب ، وترود كل مراد ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب ! ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهى إليه كل شىء ، وكل أمر ، وكل مصير (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فالمرجع إلى ربهم . وإنه لخبير بهم (يومئذ) وبأحوالهم وأسرارهم . . والله خبير بهم فى كل وقت وفى كل حال . ولكن لهذه الخبرة (يومئذ) آثار هى التى تثير انتباههم لها فى هذا المقام . . . إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . وهذا المعنى الضمنى هو الذى يلوح به فى هذا المقام ! إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر . . حتى ينتهى إلى هذا القرار . . معنى ولفظا وإيقاعا ، على طريقة القرآن !

سورة القارعة

مكية ، و آياتها ١١

القارعة:القيامة . كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . والقارعة توحى بالقرع واللطم ، فهى تقرع القلوب بهولها . والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهى إليه . . فهى تعرض مشهدا من مشاهد القيامة . والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس فى ظله صغارا ضئالا على كثرتهم فهم (كالفراش المبثوث) مستطارون مستخفون فى حيرة الفراش الذى يتهافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفا ! وتبدو الجبال التى كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذى يلقيه اللفظ ، والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة فى الناس والجبال سواء ! وتلقى إيحاءها للقلب والمشاعر ، تمهيدا لما ينتهى إليه المشهد من حساب وجزاء !

(الْقَارِعَةُ{١} مَا الْقَارِعَةُ{٢} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ{٣} يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ{٤} وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ{٥} فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ{٦} فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{٧} وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ{٨} فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ{٩} وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ{١٠} نَارٌ حَامِيَةٌ){١١}

(القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟) لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة (القارعة) بلا خبر ولا صفة . لتلقى بظلها وجرسها الإيحاء المدوى المرهوب ! ثم أعقبها سؤال التهويل (ما القارعة ؟) فهى الأمر المستهول الغامض الذى يثير الدهش والتساؤل ! ثم أجاب بسؤال التجهيل (وما أدراك ما القارعة ؟) فهى أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور ! ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) هذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعا ، وترجف منه الأوصال ارتجافا . ويحس السامع كأن كل شىء يتشبث به فى الأرض قد طار حوله هباء ! ثم تجىء الخاتمة للناس جميعا وثقل الموازين وخفتها تفيدنا قيما لها عند الله اعتبار ، وقيما ليس لها عنده اعتبار . وهذا ما يلقيه التعبير بجملته ، وهذا – والله أعلم – ما يريده الله بكلماته . فالدخول فى جدل عقلى ولفظى حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآنى ، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقى بالقرآن والإسلام ! (فأما من ثقلت موازينه) فى اعتبار الله وتقويمه (فهو فى عيشة راضية) ويدعها مجملة بلا تفصيل ، توقع فى الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم (وأما من خفت موازينه) فى اعتبار الله وتقويمه (فأمه هاوية) والأم هى مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية ! وفى التعبير أناقة ظاهرة ، وتنسيق خاص . وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد فى عمق الأثر المقصود وما أدراك ما هيه ؟ سؤال التجهيل والتهويل

المعهود في القرآن ، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك ! ثم يجيء الجواب كنبرة الختام (نار حامية) هذه هي أم الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوى ! والأم عندها الأمن والراحة . فماذا هو واجد عند أمه هذه . . الهاوية . . النار . . الحامية !!

سورة التكاثر

مكية ، و آياتها ٨

هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هي صوت نذير ، قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوى بنبرته . يصيح بنوم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة ، وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ

(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{١} حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ{٢} كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{٣} ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{٤} كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{٥} لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ{٦} ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ{٧} ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ){٨}

(ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر . . استيقظوا وانظروا . . فقد (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين (كلا سوف تعلمون) ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين (ثم كلا سوف تعلمون) ثم يزيد التوكيد عمقا ورهبة ، وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل , لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار (كلا لو تعلمون علم اليقين) ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة (لترون الجحيم) ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب (ثم لترونها عين اليقين) ثم يلقي بالإيقاع الأخير ، الذي يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه ، والسادر يتلفت , والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم)! لتسألن عنه من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفي طاعة ؟ أم من معصية وفي معصية ؟ أمن حلال وفي حلال ؟ أم من حرام وفي حرام ؟ هل شكرتم ؟ هل أديتم ؟ هل شاركتم ؟ هل استأثرتم ؟ (لتسألن) عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل ! إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلا مشغولا بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون ! إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة . . ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال ؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد . . وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة ، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها ، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها . . حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض ثم يحمل ما يحمل منها ويمضي به مثقلا في الطريق ! ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !!!

سورة العصر
مكية ، و آياتها ٣

فى هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة:حقيقتها ووظيفتها . فى آية واحدة هى الآية الثالثة من السورة . . وهذا هو الإعجاز الذى لا يقدر عليه إلا الله . . والحقيقة الضخمة التى تقررها هذه السورة بمجموعها هى هذه:

إنه على امتداد الزمان فى جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان فى جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح ، وطريق واحد ناج . هو ذلك المنهج الذى ترسم السورة حدوده ,وهو هذا الطريق الذى تصف السورة معالمه . وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار إنه الإيمان . والعمل الصالح . والتواصى بالحق . والتواصى بالصبر . . فما الإيمان ؟ ؟ نحن لا نعرف الإيمان هنا تعريفه الفقهى ؛ ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته فى الحياة . إنه اتصال هذا الكائن الإنسانى الفانى الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلى الباقى الذى صدر عنه الوجود . ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر ، وبالنواميس التى تحكم هذا الكون ، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه . والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير . ومن حدود قوته الهزيلة. ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التى لا يعلمها إلا الله . وفضلا عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنسانى من قوة وامتداد وانطلاق ، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعا بالوجود وما فيه من جمال ، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه . فإذا الحياة رحلة فى مهرجان إلهى مقام للبشر فى كل مكان وفى كل أوان . . . وهى سعادة رفيعة ، وفرح نفيس ، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب . وهو كسب لا يعدله كسب . وفقدانه خسران لا يعدله خسران . . . ثم إن مقومات الإيمان هى بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة . . . أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة – أو الجماعة المسلمة – ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتى تعرف حقيقة ما هى مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح ، الذى يشمل فيما يشمل قيادة البشرية فى طريق الإيمان والعمل الصالح ; فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى . والتواصى بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة:هوى النفس , ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين . والتواصى بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل ,من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بد من الصبر . لا بد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة . الربح الحق والخسر الحق . هناك فى الأمد الطويل ، وفى الحياة الباقية ، وفى عالم الحقيقة ، هناك الربح والخسر:ربح الجنة والرضوان ، أو خسر الجنة والرضوان . هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له ، أو يرتكس فتهدر ادميته ، وينتهى إلى أن يكون حجرا فى القيمة ودون الحجر فى الراحة وهذه السورة حاسمة فى تحديد الطريق . . إنه الخسر . .(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ,وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر). . طريق واحد لا يتعدد . طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة ، التى تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .

سورة الهمزة
مكية ، و آياتها ٩

(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ{١} الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ{٢} يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ{٣} كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ{٤} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ{٥} نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ{٦} الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ{٧} إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ{٨} فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ){٩}

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية فى حياة الدعوة فى عهدها الأول . وهى فى الوقت ذاته نموذج يتكرر فى كل بيئة . . صورة اللئيم الصغير النفس ، الذى يؤتى المال فتسيطر نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة . القيمة التى تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار:أقدار الناس . وأقدار المعانى . وأقدار الحقائق . وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب ! كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شىء ؛ لا يعجز عن فعل شىء ! حتى دفع الموت وتخليد الحياة . ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك فى نظره حساب وجزاء ! ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ؛ وتنطلق فى كيانه نفخة فاجرة , تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم . ولمزهم وهمزهم . . يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته . سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم . . بالقول والإشارة . بالغمز واللمز . باللفتة الساخرة والحركة الهازئة ! وهى صورة لئيمة حقيرة من صور النفس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقى . وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب فى مواضع شتى . إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد ، يوحى بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين . . فجاء الرد عليها فى صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعيب . وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات . ولكنها ليست وثيقة . فنكتفى نحن بما قررناه عنها . . والتهديد يجىء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية ، وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة ، الذى يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم فى أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلا بالخلود ! صورة هذا المتعالى الساخر المستقوى بالمال ، تقابلها صورة "المنبوذ" المهمل المتردى فى (الحطمة) التى تحطم كل ما يلقى إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه . وهى (نار الله الموقدة) وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحى بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة . وهى(تطلع) على فؤاده الذى ينبعث منه الهمز واللمز ، وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور . . وتكملة لصورة المحطم المنبوذ المهمل . . هذه النار مغلقة عليه ، لا ينقذه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد ! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ! وفى جرس الألفاظ تشديد: عدده . كلا . لينبذن . تطلع . ممددة وفى معانى العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد (لينبذن فى الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة . .) فهذا الإجمال والإبهام . ثم سؤال الاستهوال . ثم الإجابة والبيان . . كلها من أساليب التوكيد والتضخيم . . وفى التعبير تهديد) ويل . لينبذن . الحطمة . . (نار الله الموقدة . التى تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . فى عمد ممددة). . وفى ذلك كله لون من التناسق التصويرى والشعورى يتفق مع فعلة (الهمزة اللمزة)! لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها فى الوقت ذاته . وكان هو السلاح البتار الصاعق الذى يدمر كيد الكائدين ، ويزلزل قلوب الأعداء ويثبت أرواح المؤمنين . وإنا لنرى فى عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين: الأول:تقبيح الهبوط الأخلاقى وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس . والثانى:المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة ، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم ، ويكرهه ، ويعاقب عليه . . وفى هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم . . .

سورة الفيل

مكية ، و آياتها ٥

تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة فى حياة الجزيرة العربية قبل البعثة ، عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير ، ومحضن العقيدة الجديدة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية فى أرجاء الأرض ، وإقرار الهدى والحق والخير فيها . . وجملة ما تشير إليها الروايات المتعددة عن هذا الحادث ، أن الحاكم الحبشى لليمن - فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسى منها - وتسميه الروايات":أبرهة " ، كان قد بنى كنيسة فى اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة , على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام فى مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب فى وسط الجزيرة وشماليها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية . ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبى هذا البيت ، وكان هذا موضع اعتزازهم على

طريقتهم بالفخر والأنساب . وكانت معتقداتهم – على تهافتها – أفضل فى نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم ، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك . عندئذ صح عزم "أبرهة " على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ؛ وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة ، وفى مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف فى طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام , فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا . ثم وقف له فى الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير , فهزمهم كذلك وأسر نفيلا ، الذى قبل أن يكون دليله فى أرض العرب . حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له:إن البيت الذى يقصده ليس عندهم إنما هو فى مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذى بنوه للات ! وبعثوا معه من يدله على الكعبة ! فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة ، بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم , وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله , ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك . وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له فى دمائهم ! فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك . . فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له:والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام . . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . . فانطلق معه إلى أبرهة . .

قال ابن إسحاق:وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه :قل له:ما حاجتك ؟ فقال:حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه: قل له:قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ! أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل . وإن للبيت رب سيمنعه . قال:ما كان ليمتنع منى . قال: أنت وذاك ! . . فرد عليه إبله . ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز فى شعف الجبال . ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروى عن عبد المطلب أنه أنشد:

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك .

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك !

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا: خلأت القصواء [أى حرنت] فقال رسول الله ﷺ " ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل . . " وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة:" إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب " ، فهى حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة فى يوم الفيل . . ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكى عنهم القرآن الكريم . . وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة , حتى قدموا به صنعاء ، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات . . وتختلف الروايات هنا فى تحديد نوع هذه الجماعات من الطير ، وأشكالها ، وأحجامها , وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروى أن الجدرى والحصبة ظهرا فى هذا العام فى مكة . ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات ، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى . وأن الطير قد تكون هى الذباب والبعوض التى تحمل الميكروبات ، فالطير هو كل ما يطير . قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره للسورة فى جزء عم ــ وفى اليوم الثانى

فشا في جند الجيش داء الجدرى والحصبة . . قال عكرمة:وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث:إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين ، وأصيب الجيش ، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة ، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء" . هذا أول ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح" . إن سنة الله ليست فقط هى ما عهده البشر وما عرفوه . وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون ، وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم فى الزمن الطويل ، فهذه الخوارق – كما يسمونها – هى من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه ! فأما فى هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرا أبابيل غير معهودة – وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التى تصف أحجام الطير وأشكالها وصفا مثيرا ، نجد له نظائر فى مواضع أخرى تشى بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها ! – تحمل حجارة غير معهودة , تفعل بالأجسام فعلا غير معهود . .

نحن أميل إلى هذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة . ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب . فقد كان الله – سبحانه – يريد بهذا البيت أمرا . كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنا ؛ وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة ، فى أرض حرة طليقة ، لا يهيمن عليها أحد من خارجها ، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة فى محضنها . ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار فى جميع الأجيال ، حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة فى هذه السورة ، ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها . . فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود ، بكل مقوماته وبكل أجزائه . ولا داعي للمحاولة فى تغليب صورة المألوف من الأمر فى حادث هو فى ذاته وبملابساته مفرد فذ . وبخاصة أن المألوف فى الجدرى أو الحصبة لا يتفق مع ما روى من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده ،فإن الجدرى أو الحصبة لا يسقط الجسم عضوا عضوا وأنملة أنملة ، ولا يشق الصدر عن القلب . وهذه الصورة هى التى يوحى بها النص القرآنى:(فجعلهم كعصف مأكول). . إيحاء مباشرا قريبا .

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل ، وإلى دلالة القصة . .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{١} أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{٢} وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{٣} تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{٤} فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ){٥}

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟) وهو سؤال للتعجيب من الحادث ، والتنبيه إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ . يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات . . والمشهور أن مولد رسول الله ﷺ كان فى عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة ! وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها ، إنما كانت تذكيرا بأمر يعرفونه ،المقصود به ما وراء هذا التذكير . ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك (ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟). . أى ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه . . ولعله كان بهذا يذكر قريشا بنعمته عليهم فى حماية هذا البيت وصيانته ، فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم , كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد ﷺ والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ؛ فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته . فأما كيف جعل كيدهم فى تضليل فقد بينه فى صورة وصفية رائعة (وأرسل عليهم طيرا أبابيل , ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) والأبابيل: هى الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان:حجر وطين . أو حجارة ملوثة بالطين . والعصف: هو الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول: أى فتيت طحين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه , أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير . ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدرى أو الحصبة .

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة . .

وأول ما توحى به أن الله – سبحانه – لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لا تتكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى فى إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة – لا السنة المألوفة المعهودة – فهذا أنسب وأقرب . ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول فى دين الله حينما جاءهم به الرسول ﷺ وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب – أبرهة وجنوده – أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة . حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته . ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الكائدين . وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ، ولا يهيمن على هذا الدين الذى جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبى هذا الدين قد ولد فى هذا العام ! ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولا تنى أو تهدأ فى التمهيد الخفى اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور فى الأرض . بل لم يكن لهم كيان . قبل الإسلام . كانوا فى اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفى الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان . . ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه . ولكنه ظل فى حالة بداوة أو فى حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية فى ميدان القوى العالمية . وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وما حدث فى عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبى .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش ، وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة . . ولكن الذى هيأ للعرب هذا لأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر ، وذكروا أنهم ومسلمون . مسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام ، ورابة الإسلام وحدها . وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية ؛ ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه . وخرجوا من أرضهم جهادا فى سبيل الله وحده ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين فى مجلس يزدجرد: "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " . عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة . . ولكنها كانت كلها لله وفى سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم ، لأن الله قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه ! وما العرب بغير الإسلام ؟ ما الفكرة التى قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التى لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، إنما ذابوا فى الأمم التى فتحوها . والفكرة

الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة الإسلامية ، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم في التاريخ دور . . وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ، وأرادوا القيادة . . والله الهادي من الضلال . .

سورة قريش

مكية ، و آياتها ٤

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات) فجعل هذا البيت آمناً ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين ؛ وجعل من يأوي إليه آمنا والمخافة من حوله في كل مكان . . حتى حين إنحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام . . لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام . ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه ، وصان حرمته ؛ وكان من حوله كما قال الله فيهم (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟) وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن في الجنوب ، وإلى الشام في الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين:إحداهما إلى اليمن في الشتاء ، والثانية إلى الشام في الصيف . ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء ؛ وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب ، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، في أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين ، فصارتا لهم عادة وإلفا !

(لإِيلَافِ قُرَيْشٍ{١} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{٢} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{٣} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{٤}

هذه هي المنة التي يذكرهم الله بها - بعد البعثة - كما ذكرهم منة حادث الفيل في السورة السابقة ، منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين - وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف . سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم في أسفارهم وترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء . يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ؛ وهو رب هذا البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين ؛ ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين . . يقول لهم:من أجل إيلاف قريش:رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع) وكان الأصل - بحسب حالة أرضهم - أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع (وآمنهم من خوف) وكان الأصل - بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم - أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف ! وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس . ويثير الخجل في القلوب . وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها . وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولا وثن ، ولم يقل له . . إن الآلهة ستحمي بيتها . إنما قال له:"أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه" . . ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق ، ولا يثوب إلى حق ، ولا يرجع إلى معقول . وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها . وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة ، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور . ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب . .

سورة الماعون

مكية ، و آياتها ٧

هذه السورة مكية فى بعض الروايات ، ومكية مدنية فى بعض الروايات [الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية] وهذه الأخيرة هى الأرجح . وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة , ذات اتجاه واحد ، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة ، إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلا كاملا . فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة ، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التى أرادها الله للبشر وهو بعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ {١} فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ {٢} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ {٣} فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ {٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ {٥} الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ {٦} وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) {٧}

(أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم , ولا يحض على طعام المسكين) إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذى يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى (أرأيت الذى يكذب بالدين ؟) وينتظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة وإلى من تتجه ؟ ومن هو هذا الذى يكذب بالدين ، والذى يقرر القرآن أنه يكذب بالدين . . وإذا الجواب (الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين)! ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها (فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، والذين هم يراؤون ويمنعون الماعون) إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . . فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون ! إنهم (الذين يراءون ويمنعون الماعون) إنهم أولئك الذين يصلون ، ولكنهم لا يقيمون الصلاة . الذين يؤدون حركات الصلاة ، وينطقون بأدعيتها ، ولكن قلوبهم لا تعيش معها ، ولا تعيش بها ، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات . إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله . ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها .ساهون عنها لم يقيموها . والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها . وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها . ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها فى نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . فهم يمنعون الماعون . يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية . يمنعون الماعون عن عباد الله . ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله ما منعوا العون عن عباده , فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله . .

سورة الكوثر

مكية ، و آياتها ٣

هذه السورة خالصة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى ، وسورة الشرح . يسرى عنه ربه فيها , ويعده بالخير ، ويوعد أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر . ومن ثم فهى تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية فى أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبى ﷺ ودعوة الله التى يبشر بها ؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه . كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر والكفران . الأولى كثرة وفيض وامتداد . والثانية قلة وانحسار وانبتار . وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك . ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول ﷺ ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء . ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذى جاءهم به من عند الله , من أمثال العاص ابن وائل ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبى لهب ، وأبى جهل ، وغيرهم , كانوا يقولون عن النبى ﷺ إنه أبتر . يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده . وقال أحدهم:دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهى أمره ! وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له فى البيئة العربية التى تتكاثر بالأبناء صدى ووقعا . وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله ﷺ

وشانئيه , ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضا . ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى ، وتقرر حقيقة الخير الباقى الممتد الذى اختاره له ربه ؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ{١} فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ{٢} إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ){٣}

(إنا أعطيناك الكوثر) والكوثر صيغة من الكثرة . . وهو مطلق غير محدود . يشير إلى عكس المعنى الذى أطلقه هؤلاء السفهاء . . إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير . غير ممنوع ولا مبتور . . فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذى أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور . هو واجده في النبوة . في هذا الاتصال بالحق الكبير ، والوجود الكبير . الوجود الذى لا وجود غيره ولا شيء في الحقيقة سواه . وماذا فقد من وجد الله ؟ وهو واجده في هذا القرآن الذى نزل عليه . وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته , وينبوع ثر لا نهاية لفيضه وغزارته ! وهو واجده في الملأ الأعلى الذى يصلى عليه ، ويصلى على من يصلى عليه في الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء . وهو واجده فى سنته الممتدة على مدار القرون ، في أرجاء الأرض . وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه ، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة . وهو واجده في الخير الكثير الذى فاض على البشرية فى جميع أجيالها بسببه وعن طريقه . سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض ! وهو واجده فى مظاهر شتى ، محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها ! إنه الكوثر ، الذى لا نهاية لفيضه ، ولا إحصاء لعوارفه ، ولا حد لمدلوله . ومن ثم تركه النص بلا تحديد ، يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد . وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر فى الجنة أوتيه رسول الله ﷺ ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذى أوتيه الرسول . فهو كوثر من الكوثر ! وهذا هو الأنسب فى هذا السياق وفي هذه الملابسات (فصل لربك وانحر) بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة ، على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون , وجه الرسول ﷺ إلى شكر النعمة بحقها الأول . حق الإخلاص والتجرد لله فى العبادة وفى الاتجاه . . فى الصلاة وفى ذبح النسك خالصا لله (فصل لربك وانحر) غير ملق بالا إلى شرك المشركين ، وغير مشارك لهم فى عبادتهم أو فى ذكر غير اسم الله على ذبائحهم . وفى تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح ، وتحريم ما أهل به لغير الله , وما لم يذكر اسم الله عليه . . ما يشى بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره . لا تخليص التصور والضمير وحدهما (إن شانئك هو الأبتر) فى الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر . وفى هذه الآية يرد الكيد إلى كائديه ، ويؤكد – سبحانه – أن الأبتر ليس هو محمد ، إنما هم شانئوه وكارهوه . ولقد صدق فيهم وعيد الله . فقد انقطع ذكرهم وانطوى . بينما امتد ذكر محمد وعلا . ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، فى صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهدوه سامعوه الأولون ! وصدق الله العظيم . وكذب الكائدون الماكرون . .

سورة الكافرون

مكية ، و آياتها ٦

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التى يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة . . وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وأن بينه – سبحانه – وبين الجنة نسبا ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفى هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء كالذى جاء فى سورة العنكبوت (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) وفى إيمانهم كانوا يقولون :والله . وتالله . وفى دعائهم كانوا يقولون:اللهم . . الخ . ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم ، فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا فى زرعهم وأنعامهم

ونصيبا فى أولادهم . حتى ليقتضى هذا النصيب أحيانا التضحية بأبنائهم . وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب ، الذين كانوا يعيشون معهم فى الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون:عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله – بزعمهم – فكانوا يعدون أنفسهم أهدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى . . وكله شرك . وليس فى الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا ! فلما جاءهم محمد ﷺ يقول:إن دينه هو دين إبراهيم – عليه السلام – قالوا: نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد ؟! وفى الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ خطة وسطا بينهم وبينه ؛ وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله فيهم وعليهم ما يشترط ! ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه . . لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة ، يمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد نصفين والالتقاء فى منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية ! ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة , ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق . . نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا التوكيد . وبهذا التكرار . لتنهى كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لا تقبل المساومة والجدل فى قليل ولا كثير: فبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{١} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{٢} وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٣} وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{٤} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٥} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ){٦}

نفي بعد نفي . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفى والجزم والتوكيد (قل) . . فهو الأمر الإلهى الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد ﷺ فيه شيء . إنما هو الله الآمر الذى لا مرد لأمره ، الحاكم الذى لا راد لحكمه (قل يا أيها الكافرون) ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفتهم . . إنهم ليسوا على دين ,وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم فى طريق . . وهكذا يوحى مطلع السورة وافتتاح الخطاب ، بحقيقة الانفصال الذى لا يرجى معه اتصال ! (لا أعبد ما تعبدون) فعبادتى غير عبادتكم ، ومعبودى غير معبودكم (ولا أنتم عابدون ما أعبد) فعبادتكم غير عبادتى ، ومعبودكم غير معبودى (ولا أنا عابد ما عبدتم) توكيد للفقرة الأولى فى صيغة الجملة الإسمية وهى أدل على ثبات الصفة واستمرارها (ولا أنتم عابدون ما أعبد) تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كي لا تبقى مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد ! ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذى لا التقاء فيه ، والاختلاف الذى لا تشابه فيه , والانفصال الذى لا اتصال فيه ، والتمييز الذى لا اختلاط فيه (لكم دينكم ولى دين) أنا هنا وأنتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق !!! مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق . . ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل ، الذى يستحيل معه اللقاء على شيء فى منتصف الطريق . الاختلاف فى جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور , وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق . إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر . . ولا يلتقيان . . التوحيد منهج يتجه بالإنسان – مع الوجود كله – إلى الله وحده لا شريك له . ويحدد الجهة التى يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التى يتلقى المؤمن عنها هى الله ، الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك فى أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . . وهى تسير . . وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعوين . إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة فى الجماعات التى عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها .وهذه الجماعات هى أعصى الجماعات على الإيمان فى صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التى لا تعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى فى الوقت الذى تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها ، قد يغرى الداعية نفسه بالأمل فى اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد . . وهذا الإغراء فى منتهى الخطورة ! إن الجاهلية جاهلية ، والإسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه . وأول خطوة فى الطريق هى تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية ، تصورا ومنهجا وعملا . الانعزال الذى لا يسمح بالالتقاء فى منتصف الطريق . والانفصال الذى يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام . لا ترقيع . ولا أنصاف حلول . ولا التقاء فى منتصف الطريق . . مهما تزيت الجاهلية بزى الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان ! وتميز

هذه الصورة فى شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شىء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة فى طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم فى طريقه هو ، بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير !

سورة النصر
مدنية ، و آياتها ٣

هذه السورة الصغيرة . . كما تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ودخول الناس فى دين الله أفواجا ؛ وكما توجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار . كما تحمل إلى الرسول ﷺ البشرى والتوجيه . تكشف فى الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق والتحرر . هذه القمة السامقة الوضيئة ، التى لم تبلغها البشرية قط إلا فى ظل الإسلام . ولا يمكن أن تبلغها إلا وهى تلبى هذا الهدف العلوى الكريم . وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد:حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق ، قال:قالت عائشة:كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قوله:" سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه " وقال ":إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا ؛ فقد رأيتها " (إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) و هناك حديث رواه الحافظ البيهقى - بإسناده - عن ابن عباس كذلك:قال:لما نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال:" إنه قد نعيت إلى نفسى " فبكت . ثم ضحكت . وقالت أخبرنى:أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، ثم قال:" اصبرى فإنك أول أهلى لحوقا بى " فضحكت . ففى هذا الحديث تحديد لنزول السورة . فكأنها نزلت والعلامة حاضرة . أى أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجا قد تحقق . فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله ﷺ أنه أجله . فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآنى ، ومع الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم فى صحيحه . من أنه كانت هناك علامة بين الرسول ﷺ وربه هى (إذا جاء نصر الله والفتح . .)فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضى الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضى الله عنها . ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذى جاءت به هذه السورة الصغيرة . . فإلى أى مرتقى يشير هذا النص القصير:

(إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{١} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{٢} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً){٣}

(إذا جاء نصر الله والفتح) فى مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص ، عن حقيقة ما يجرى فى هذا الكون من أحداث ، وما يقع فى هذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول ﷺ ودور المؤمنين فى هذه الدعوة ، وحدهم الذى ينتهون إليه فى هذا الامر . . هذا الإيحاء يتمثل فى قوله تعالى (إذا جاء نصر الله) فهو نصر الله يجىء به الله فى الوقت الذى يقدره . فى الصورة التى يريدها . للغاية التى يرسمها . وليس للنبى ولا لأصحابه من أمره شىء ، وليس لهم فى هذا النصر يد . وليس لإشخاصهم فيه كسب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حراسا ، ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس فى دين الله أفواجا . . وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول ﷺ ومن معه بإزاء تكريم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه - ومن معه - هو الإتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار فى لحظة الانتصار . التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه . وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه ، وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا فى هذا الخير الفائض العميم ، بعد العمى والضلال والخسران . والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل ، الاستغفار من الزهو

الذى قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه فى القلب البشرى . فمن هذا يكون الاستغفار . والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه فى فترة الكفاح الطويل والعناء القاسى , والشدة الطاغية والكرب الغامر . . من ضيق بالشدة ، واستبطاء لوعد الله بالنصر ,

سورة المسد

مكية ، و آياتها ٥

أبو لهب - [واسمه عبد العزى بن عبد المطلب] هو عم النبى ﷺ وإنما سمى أبو لهب لإشراق وجهه ، وكان هو وامرأته "أم جميل" من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ وللدعوة التى جاء بها . . قال ابن اسحاق :"حدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال:سمعت ربيعة بن عباد الديلى يقول:"إنى لمع أبى رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول ، وضىء الوجه ذو جمة ، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول:" يا بنى فلان . إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقونى وتمنعونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به " وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه:يا بنى فلان . هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقمس ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه . فقلت لأبى:من هذا ؟ قال عمه أبو لهب . [ورواه الإمام أحمد والطبرانى بهذا اللفظ] فهذا نموذج من نماذج كيد أبى لهب للدعوة وللرسول ﷺ وكانت زوجته أم جميل فى عونه فى هذه الحملة الدائبة الظالمة . [وهى أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان] . ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول للدعوة . أخرج البخارى - بإسناده - عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى ":يا صباحاه" فاجتمعت إليه قريش ، فقال:أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقى ؟ قالوا:نعم . قال:" فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله (تبت يدا أبى لهب وتب . . .) الخ . وفى رواية فقام ينفض يديه وهو يقول: تبا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله السورة . ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبى طالب على حماية النبى ﷺ ولو لم يكونوا على دينه ، تلبية لدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشا ، وكان معهم فى الصحيفة التى كتبوها بمقاطعة بنى هاشم وتجويعهم كى يسلموا لهم محمدا ﷺ . وكان قد خطب بنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبى ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما ! وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربا شعواء على النبى ﷺ وعلى الدعوة ، لا هوادة فيها ولا هدنة . وكان بيت أبى لهب قريبا من بيت رسول الله ﷺ فكان الأذى أشد . وقد روى أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه فى طريق النبى ؛ وقيل:إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة . نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبى لهب وامرأته . وتولى الله - سبحانه - عن رسوله ﷺ أمر المعركة !

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{١} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{٢} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً){٣}

(تبت يدا أبى لهب وتب) والتباب هو الهلاك والبوار والقطع (وتبت) الأولى دعاء (وتب) الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء . ففى آية قصيرة واحدة فى مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق ، وتنتهى المعركة ويسدل الستار ! فأما الذى يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان (ما أغنى عنه ماله وما كسب) لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك . فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار . ذلك - كان - فى الدنيا . أما فى الآخرة فإنه (سيصلى نارا ذات لهب) ويذكر اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها . (وامرأته حمالة الحطب) وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب . . وحالة كونها (فى جيدها حبل من مسد) أى من ليف . . تشد هى به فى النار . أو هى الحبل الذى تشد به الحطب . على المعنى الحقيقى إن كان المراد هو الشوك . أو المعنى المجازى إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعى بالأذى والوقيعة .

سورة الإخلاص

مكية ، و آياتها ٤

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء فى الروايات الصحيحة . قال البخارى:حدثنا إسماعيل:حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ,عن أبيه ، عن أبى سعد ، أن رجلا سمع رجلا يقرأ (قل هو الله أحد) يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ فذكر ذلك له – وكأن الرجل يتقالها – فقال النبى ﷺ والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن . . وليس فى هذا من غرابة . فإن الأحدية التى أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها (قل هو الله أحد) هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . . وقد تضمنت السورة – من ثم – أعرض الخطوط الرئيسية فى حقيقة الإسلام الكبيرة . .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{١} اللَّهُ الصَّمَدُ{٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ){٤}

(قل هو الله أحد). . وهو لفظ أدق من لفظ "واحد" . . لأنه يضيف إلى معنى "واحد" أن لا شيء غيره معه . وأن ليس كمثله شيء . إنها أحدية الوجود . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقى إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقى ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية . وهى – من ثم – أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلا لشيء ، أو فاعلا فى شيء، فى هذا الوجود أصلا . وهذه عقيدة فى الضمير وتفسير للوجود أيضا . . ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . . ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح (الله الصمد) ومعنى الصمد اللغوى:السيد المقصود الذى لا يقضى أمر إلا بإذنه . والله – سبحانه – هو السيد الذى لا سيد غيره ، فهو أحد فى ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذى يقضى فى كل أمر بإذنه , ولا يقضى أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد (لم يلد ولم يولد) فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لا تعتورها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق فى جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال . ثم هى تقتضى زوجية . تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة (أحد) تتضمن نفى الوالد والولد (ولم يكن له كفوا أحد) أى لم يوجد له مماثل أو مكافئ , لا فى حقيقة الوجود ، ولا فى حقيقة الفاعلية ، ولا فى أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق بأنه (أحد) ولكن هذا توكيد وتفصيل . . وهو نفى للعقيدة الثنائية التى تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلها يعاكس الله – بزعمهم – ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد فى الأرض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس فى إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة فى جنوبى الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان !! هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة "الكافرون" نفى لأى تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه – فى صلاة سنة الفجر – بالقراءة بهاتين السورتين . . وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه .

سورة الفلق

مكية ، و آياتها ٥

هذه السورة والتى بعدها توجيه من الله – سبحانه وتعالى – لنبيه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف: خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل . . وكأنما يفتح الله – سبحانه – لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، فى مودة وعطف:تعالوا إلى هنا . تعالوا إلى الحمى . تعالوا إلى مأمنكم الذى تطمئنون فيه . تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا . . هنا الأمن والطمأنينة والسلام . ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه (قل:أعوذ برب الفلق) (قل:أعوذ برب الناس) وفى قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار ، تتفق كلها

مع هذا الظل الذي استروحناه , والذى يتضح من الآثار المروية أن رسول الله ﷺ استروحه فى عمق وفرح وانطلاق :عن عقبة – ابن عامر – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال:" ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ؟ قل:أعوذ برب الفلق وقل:أعوذ برب الناس " . وهنا فى هذه السورة يذكر الله – سبحانه – نفسه بصفته التى بها يكون العياذ من شر ما ذكر فى السورة .

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{١} مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{٢}وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{٣} وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ{٤} وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{٥}

(قل أعوذ برب الفلق) والفلق من معانيه الصبح ، ومن معانيه الخلق كله . بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة ، وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذى يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذى يؤمن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع ما بعده (من شر ما خلق) أى من شر خلقه إطلاقا وإجمالا . وللخلائق شرور فى حالات اتصال بعضها ببعض . كما أن لها خيرا ونفعا فى حالات أخرى . والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها . والله الذى خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التى يتضح فيها خيرها لا شرها ! (ومن شر غاسق إذا وقب) والغاسق فى اللغة الدافق ، والوقب النقرة فى الجبل يسيل منها الماء . والمقصود هنا – غالبا – هو الليل وما فيه . الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة . والليل حينئذ مخوف بذاته . فضلا على ما يثيره من توقع للمجهول الخافى من كل شىء:من وحش مفترس يهجم . ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن . وحشرة سامة تزحف . ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب فى الليل ، وتخنق المشاعر والوجدان , ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء . ومن شهوة تستيقظ فى الوحدة والظلام . ومن ظاهر وخاف يدب ويثب ، فى الغاسق إذا وقب ! (ومن شر النفاثات فى العقد) والنفاثات فى العقد: هن السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر . وهن يعقدن العقد فى نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء ! وقد وردت روايات – بعضها صحيح ولكنه غير متواتر – أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبى ﷺ فى المدينة . . قيل أياما ، وقيل أشهرا . . حتى كان يخيل إليه أنه يأتى النساء وهو لا يأتيهن فى رواية ، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشىء ولم يفعله فى رواية ، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما استحضر السحر المقصود – كما أخبر فى رؤياه – وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء . ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية فى الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله ﷺ وكل قول من أقواله سنة وشريعة ، كما أنها تصطدم بنفى القرآن عن الرسول ﷺ أنه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك . ومن ثم تستبعد هذه الروايات . . وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها فى أمر العقيدة . والمرجع هو القرآن . والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث فى أصول الاعتقاد . وهذه الروايات ليست من المتواتر . فضلا على أن نزول هاتين السورتين فى مكة هو الراجح . مما يوهن أساس الروايات الأخرى (ومن شر حاسد إذا حسد) والحسد انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها . وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعى منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد الانفعال النفسى ، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفى أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار ، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته . فنحن لا ندرى إلا القليل فى هذا الميدان . وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة فى الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك ! فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه والله برحمته وفضله هو الذى يوجه رسوله – صلى الله عليه وسلم – وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور . ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به – وفق توجيهه – أعاذهم . وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا .وقد روى البخارى – بإسناده – عن عائشة – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ، " قل هو الله أحد " . و " قل : أعوذ برب الفلق " . . و " قل : أعوذ برب الناس " . . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات . . وهكذا رواه أصحاب السنن

. . .

سورة الناس

مكية ، و آياتها ٦

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{١} مَلِكِ النَّاسِ{٢} إِلَهِ النَّاسِ{٣} مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{٤} الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{٥} مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{٦}

الاستعاذة فى هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . والمستعاذ منه هو:شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس . والاستعاذة بالرب ، الملك ، الإله ، تستحضر من صفات الله – سبحانه – ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة . فالرب هو المربى والموجه والراعى والحامى . والملك هو المالك الحاكم المتصرف . والإله هو المستعلى المستولى المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذى يتدسس إلى الصدور . . وهى لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور . والله رب كل شيء ، وملك كل شيء ، وإله كل شيء . ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى فى موقف العياذ والاحتماء . والله – برحمة منه – يوجه رسوله ﷺ وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معانى صفاته هذه ، من شر خفى الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله . فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون . والوسوسة: هي الصوت الخفي . والخنوس: هو الاختباء والرجوع . والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس . وقد أطلق النص الصفة أولا (الوسواس الخناس) وحدد عمله (الذي يوسوس في صدور الناس) ثم حدد ماهيته (من الجنة والناس) وهذا الترتيب يثير فى الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته فى أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التى يتحقق بها شره ، تأهبا لدفعه أو مراقبته ! والنفس حين تعرف – بعد هذا التشويق والإيقاظ – أن الوسواس الخناس يوسوس فى صدور الناس خفيةوسرا , وأنه هو الجنة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين . . النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق ! ووسوسة الجنة نحن لا ندرى كيف تتم ، ولكنا نجد آثارها فى واقع النفوس وواقع الحياة . ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ؛ وأن الشيطان قد أعلنها حربا تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذنا ، فأذن فيها – سبحانه – لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجردا من العدة . فقد جعل له من الإيمان جنة ، وجعل له من الذكر عدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحا . . فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم ! عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:قال رسول الله ﷺ :" الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس " . وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير . ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين ! رفيق السوء الذى يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس , لأنه الرفيق المأمون ! وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جبارا مفسدا في الأرض ، مهلكا للحرث والنسل ! والنمام الواشى الذى يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذى لا مرية فيه . وبائع الشهوات الذى يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله . وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها . . وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبا ! والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية . ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه فى المعركة الرهيبة ! وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه (الخناس) فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس . ولكنها من جهة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمى مداخل صدره . فهو – سواء كان من الجنة أم كان من الناس – إذا ووجه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى . أو كما قال الرسول الكريم فى تمثيله المصور الدقيق:" فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس " . . وهذه اللفتة تقوى القلب على مواجهة الوسواس . فهو خناس . ضعيف أمام عدة المؤمن فى المعركة . ولكنها – من ناحية أخرى – معركة طويلة لا تنتهي أبدا . فهو أبدا قابع خانس ، مترقب للغفلة . واليقظة مرة لا تغنى عن اليقظات . . والحرب سجال إلى يوم القيامة ؛ كما صورها القرآن الكريم فى مواضع شتى ، وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها – سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر – من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبا على أمره فيها فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب فهو

آخذ بناصيته . وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلهم فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية فالخير إذن يستند إلى القوة التى لا قوة سواها وإلى الحقيقة التى لا حقيقة غيرها يستند ودواعيه الخفية فالخير إذن يستند إلى القوة التى لا قوة سواها وإلى الحقيقة التى لا حقيقة غيرها . يستند إلى الرب الملك الإله . والشر يستند إلى وسواس خناس يضعف عن المواجهة ويخنس عند اللقاء وينهزم أمام العياذ بالله . . وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر كما أنه أفضل تصور يحمى القلب من الهزيمة ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة . . والحمد لله أولا وأخيرا . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين . . .

إنتهينا من إنجاز مختصر تفسير فى ظلال القرآن مساء يوم السبت ٣٠ أكتوبر ٢٠٢١ ، راجين من الله العلى القدير أن يتقبله قبولا حسنا ، و يجعله فى ميزان حسناتنا ، صدقة جارية و علما ينتفع به ، املين من كل الذين سيطالعونه الدعاء باالصحة و العافية و الخير و الفلاح فى الدنيا ، و المغفرة و الرحمة بعد الممات .

الفهرس

سورة الملک ..... ص: ٣ سورة الغاشية ..... ص : ٩٧

سورة القلم ..... ص: ١٠ سورة الفجر ..... ص : ٩٩

سورة الحاقة ..... ص: ١٨ سورة البلد ..... ص : ١٠١

سورة المعارج ..... ص: ٢٥ سورة الشمس ..... ص : ١٠٤

سورة نوح ..... ص: ٣١ سورة الليل.....ص : ١٠٦

سورة الجن ..... ص : ٣٦ سورة الضحى ..... ص : ١٠٨

سورة المزمل ..... ص : ٤٢ سورة الشرح ..... ص : ١٠٩

سورة المدثر ..... ص : ٤٦ سورة التين ..... ص : ١١٠

القيامة ..... ص : ٥٢ سورة العلق ..... ص : ١١١

سورة الإنسان ..... ص : ٥٧ سورة القدر ..... ص : ١١٤

سورة المرسلات ..... ص : ٦٢ سورة البينة ..... ص : ١١٥

سورة النبأ ..... ص : ٦٥ سورة الزلزلة ..... ص : ١١٧

سورة النازعات ..... ص : ٦٨ سورة العاديات ..... ص : ١١٨

سورة عبس ..... ص : ٧٣ سورة القارعة ..... ص : ١١٩

سورة التكوير ..... ص : ٧٧ سورة التكاثر ..... ص : ١٢٠

سورة الإنفطار ..... ص : ٨٠ سورتى العصر و الهمزة ..... ص : ١٢١

سورة المطففين ..... ص : ٨٣ سورة الفيل .....ص : ١٢٢

سورة الإنشقاق ..... ص : ٨٧ سورة قريش ..... ص : ١٢٦

سورة البروج ..... ص : ٩٠ سورتى الماعون و الكوثر ..... ص : ١٢٧

سورة الطارق ..... ص : ٩٣ سورة الكافرون ..... ص : ١٢٨

سورة الأعلى ..... ص : ٩٤ سورة النصر ..... ص : ١٣٠

سورة المسد ..... ص : ١٣١

سورتى الإخلاص و الفلق..... ص : ١٣٢

سورة الناس ..... ص : ١٣٤

الفهرس ..... ص :١٣٦

الأستاذ : محمد رباعة من مواليد ٢١ أكتوبر ١٩٦٣ ب القراح (القرزى) بلدية أولاد رحمون ، ولاية قسنطينة ، (الجزائر) كاتب عصامى و صحفى مستقل ، مدير دار القبس للنشر الإلكترونى ، و رئيس تحرير مجلة القبس الشهرية السياسية الثقافية الإلكترونية ، الف العديد من الكتب أهمها: موسوعة النظام الجزائرى من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ التى تتكون من ستة (٦) أجزاء ، تقدم قراءة تحليلية موضوعية لأهم الأحداث و القرارات و المواقف و الإنجازات ، و كتب التصور الإسلامى لله و الحياة و الإنسان و هو معالجة عصرية لأهم عناصر العقيدة الإسلامية ، و مأزق الحداثة و ما بعد الحداثة و موقف الإسلام منهما ، الذى عالج الموضوع بأسلوب بسيط قريب الى الأذهان و بعيد عن تعقيدات و غموض الكتابات الحداثية و العلمانية ، و الحراك الإسلامى فى الجزائر من سنة ١٩٦٢ الى سنة ٢٠١٢ ، و كتاب مختصر فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ، و كل كتبه مطبوعة بطريق ة ألكترونية **PDF** طباعة راقية و أنيقة